أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٤٦٢١٤

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

يشترك في تحريرها
عباس محمود العقاد
بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء الرابع — السنة الرابعة والثلاثون — جمادى الآخرة سنة ١٣٨٢ هـ - نوفمبر ١٩٦٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزيرة تنتفض مرة أخرى

بقلم : أحمد حسن الزيات

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

تنتفض الجزيرة العربية اليوم انتفاضتها الأخرى ، وكانت الأولى منذ أربعة عشر قرنا حين شاء الله أن تخفق على الجبال الصهب ، وفوق الرمال الصفر ، أجنحة الوحي نازلة بنور السماء ، وعبير الجنة ، وسلام الروح ، ووحدانية الله وحرية الإنسان ، وعدالة الحق ، على بلد أو بقته الوثنية ، وأهلكته العصبية ، وأكلته الحروب ، واستعبده الطغيان ، واستذله الحرمان وهان على الدنيا حتى أكل القذر ، وشرب الكدر ، وعبد الحجر ، وشرد عن ركب الحياة.

فلما أصابه الغيث الإلهي اهتز القفر ، وربا الصخر ، وأنبت هذا البلد الجديب أخصب العقول بالرأي الحكيم ، وأرطب القلوب بالإيمان الصادق ، وأثبت الأيدي بالسيف الرادع وهؤلاء هم أصحاب محمد الذين بسطوا ظلال الله على محاري الجزيرة ، فنبضت بالحياة ، ورتعت في النعيم ، واطمأنت بالأمن . ثم انتقل منها طلعها الخصب مع الرياح اللواقح إلى كل أرض ! . . .

* * *

تلك كانت الانتفاضة الأولى للجزيرة التي وضع فيها أول بيت للناس ، وبعث بها آخر رسول لله ، انتفضتها بروح من عند الله ما شاء أن تنتفض ، ثم انقبض عن محاريها الظل ، وخبا في أرجائها النور ، فعادت

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

كما كانت بالأمس قطعة منبتة متروكة ، لا هى فى عداد الناس ولا هى فى حساب الزمن !

جمدت الجبال فلا توحى ، وصمتت الرمال فلا تهمس ، واستجهل الإسلام فلم تعد له فى النفوس معانى الوحى ، واستعجم العرب فلم يعودوا يتدبرون آى القرآن . وقضت الجزيرة شمالها وجنوبها ألفا ومائتى سنة فى ردة عامة ورقدة شاملة ، لا يسعى فيها إلا ملك يطغى ، وإمام يجور ، وفاتك ينهض ، وشارد يهيم ، وجائع يتضور . وانطمست آثار العمرين والخالدين(١) تحت أقدام الطغاة الفجرة من آل الحسين وآل سعود وآل حميد الدين ، وتحطمت أصنام الشرك فى مكة لتعود حية ناطقة فى قصور الحجاز ونجد واليمن .

جثمت هذه الأصنام الثلاثة بصدورها الحجرية على إنسانية الشعب العربى وكرامته ، وإرادته وثروته ، لا تتحلحل ولا تريم ، يشربون ويسكى انجلترا وهو يشرب أبوال الإبل ، ويأكلون خنازير أمريكا وهو يأكل دواب الأرض ، وينفقون أمواله على حسان الترك والانجليز ، وهو عارى الجسد خاوى الجوف ، لا يشعر بالحياة ولا تشعر به الحياة ؛ حتى جاء عصر الذرة الذى راد السماء ، وزلزل الأرض ، وبلبل الأنفس ، وزعزع العروش ، صاح بالنائم أن يستيقظ . وبالغافل أن يعى ، وبالمتخلف أن يلحق .

وهبت على العالم العربى هبة من جانب مصر فيها ريح النبوة ، ولها صوت الحق ، يقول للشعوب الخانعة : إنكم مسلمون والمسلم لا يدين إلا لله ، وإنكم عرب والعربى لا يستكين للذل ، وإنكم أصحاب الأرض وما فوقها من زرع وضرع ، وما تحتها من بترول وركاز ، فليس من شهامة العربى ، ولا من كرامة المسلم ، أن تدعوا هؤلاء الطفيليين الفضوليين يستأثرون بخيرها دونكم ، وما قوتهم إلا منكم ، ولا سطوتهم إلا بكم .

فإذا جردوا من الألقاب المزيفة ، وأزيلوا عن العروش المستعارة ، عادوا ناسا أقل من الناس ؛ لأنهم كما قلت أصنام ينطق فى أفواههم الشيطان ، ويوسوس فى صدورهم المستعمر .

ورحم الله شاعرنا الذى قال :

عجبت لقوم يخضعون لدولة
يسوسهم فى الموبقات عميدها
وأعجب من ذا أنهم يرهبونها
وأموالها منهم ومنهم جنودها

هنالك استجاب المستضعفون فى الأرض والمعذبون فى الناس لدعاء عبد الناصر إلى المبادئ الخالدة ، التى نزلت من عند الله على محمد رسوله ، وأدركوا بعد لأى أن الأمر شورى ، والرزق شركة ،

(١) العمران : أبو بكر وعمر . والخالدان : ولد خاسعد .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

والحكم عدالة ، فتحرك الأردن فصرخ الطفل ، وتمردت السعودية فكش الملك ، وثارت اليمن فطاح الإمام ! .

وعى عرب الجزيرة أن بواديهم لم تعد رملا ولا صخراً ، ولا آباراً تبض بالماء ، ولا مراعى تضن بالعشب ، وإنما أصبحت بفضل الأبحر السود التى تعج من تحتها بالنفط ، ومناجم تقذف بالتبر ، وقصوراً تضج بالجوارى ، وجنانا تفيض بالنعيم . ولكنهم رأوا أن أولئك كله : احشوشته فئة باغية لتكنزه فى مصارف سويسرا ولندن ، وتنفقه فى مواخير كابرى وباريس ، فقالوا للسارق السارق : حسبك ! إن الراعى الفرد يستطيع أن يسوق القطيع الضخم بعصاه ، فيجز صوفه ، ويحتلب لبنه ، ويحز رأسه ، مادام لا يعرف أن له قروناً تبقر البطون ، وتفلق الرءوس ، فإذا عرف ذلك ـ ولا بد أن يعرف ـ انقلبت قرونه دبابات تحطم ، وحوافره مقذوفات تبيد .

بهذا الوعى الذى أيقظته سورة تاريخ ، وأنضجته عبقرية جنس ، وأكملته عقيدة دين ، سرت فى العالم العربى روح من قلق الروح ، لا يصبر على الهـــون ، ولا يرضى بالدون ولا يعنو وجهه لغير ربه .

وبهذا الروح القلق الذى ملك الجزيرة كلها رأسها وقلبها وأطرافها ، تلاقت العدنانية فى الشمال ، والقحطانية فى الجنوب على موعد من مواعيد الحق ، ليضعوا الأغلال التى عليهم فى أعناق من استعبدوهم باسم الدين ، واستذلوهم بقوة الجهل ، ولينطلقوا خفافا إلى حياة أفضل ، ومكان أكرم ، يليقان بالجيل الجديد فى الوجود الجديد .

* * *

ظلت اليمن حقبا طوالا معرة العالم المتحضر المتحرر ، تجرى عليها حركات الدهر وهى ساكنة سكون الجماد لا تشعر بالفلك وهو دائر ، ولا بالعالم وهو سائر ، لأن (الأئمة) ـ أخذهم الله بما صنعوا ـ استعانوا على عزلها عن الوجود بالفقر والجهل والمرض والقات والترهات والشعوذة ، فما كان يظن ظان أن من ألح عليه الخدر يفيق ، ولا أن من استبد به الضرر يطيق .. ولكن حدثت المعجزة وانشقت أرض صنعاء وتمخر عن أبناء التبابعة والأذواء ، يتساءلون فى تباشير الفجر : من الذى أطبق على نفوسنا الليل ، وألطفأ فى عيوننا النهار ، حتى حسبنا أن الظلام سرمد ؟ .

وكان الجواب دويا كنفخة الصور انبعث من مصر يقول : ومن غير الأئمة من آل حميد الدين يستطيع أن يجعل آية النهار عمياء ولسان الحق أبكم ؟ وتكاتفت الثورتان : ثورة السلال وثورة عبد الناصر على أن تحطما

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

السد الذى حجز الماء والنماء والتقدم عن اليمن السعيدة . وألقى المنكان الضئيلان سعود وحسين بجثتيهما النخرتين أمام السد المنهار ليؤخرا ساعة انقضاضه ، فما زاداه إلا ضعفا على ضعف !

أعلمت كيف كانت تحكم اليمن ؟ .

إليك مثالا واحداً من آلاف : حدثنى المغفور له صديقى الدكتور عبد الوهاب عزام وكان سفيراً لنا فى السعودية واليمن ، أنه بات ليلة من ليالى الشتاء فى ضيافة الإمام يحيى هو وبعض صحبه ، وكان البرد قارسا ، وكانوا قد وضوا على كل سرير بطانية واحدة من غير لحاف . فاستعان كل منهم على الدفء بمعطفه إلا واحداً لم يكن عليه معطف ، فطلب السفير من القيم على دار الضيافة بطانية أخرى للضيف المقرور ، فذهب القيم فقاه وقال إن فى هذه المسألة مشكلة : لابد أن يرفع إلى الإمام طلب بهذا الطلب تشرح فيه الحال الداعية إلى هذه البطانية ، فإذا اقتنع بالأسباب - وقليلا ما كان يقتنع - أخرج مفتاح المخزن من سلسلة فى عنقه ، ودفعه إلى أمينه الخاص فيخرج المطلوب إلى المتعهد ثم يعود به إليه والإمام قد دخل مخدعه الآن فلا سبيل إلى الدخول عليه ! !

بماذا تريد أن أعلق على هذه الواقعة ، واستبداد الإمام قد تغلغل إلى خيط الإبرة وشرك النعل وسير اللجام ؟ أليس هذا الفرعون الصغير واقعا فى مرمى قول الله تعالى: « إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم (أئمة) ونجعلهم الوارثين » . صدق الله العظيم .

أحمد حسن الزيات

قال الله تعالى فى سورة الحجرات :

« وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » .

« صدق الله العظيم »

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الإسلام دين الحجة والبرهان

لفضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت

الإسلام دين الحجة والبرهان ، دين الأمن والسلام ، دين التعاون والتآخي ودين التعمير والبناء . وهو لا يعدل عن الحجة ما وجد منها سبيلا إلى هدفه ، وهو إقرار الحق في نصابه وتمتع الناس بحريتهم الطبيعية ، وشعار العدل والمساواة . فإذا ما التوت بالعقول السبل ، واختلس الإنسان من سكان الكهوف والمغاور أخلاقهم وطيشهم ، فعبث بالحياة ، وأراق الدماء ، وسخر الضعفاء ، وتحكم بجبروته في الحقوق ، وانقض على الهادئين فزلزل عليهم أمنهم ، وعلى المالكين فاغتصب حقوقهم : وانتزع منهم أوطانهم وفتنهم في دينهم ودنياهم .

فهنا ، وهنا فقط - حفظا لعرض الإنسانية من أن يثلم ، ولحكمة الله في خلق الإنسان أن تذهب - لا يجد بدا من ارتكاب الصعب وهو خوض معامع الحرب والقتال ، فيأذن بها لأهله حتى يرد أهل البغي والعناد ، وليحترموا حقوق الإنسانية المكرمة ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » .

الإسلام دين الواقع

وما كان للإسلام وهو دين عملي واقعي أن يتجاهل سنة الاجتماع البشري التي كثيرا ما يندفع بها الناس إلى التنازع وارتكاب المظالم والتنكر للحق والاعتداء على الحريات « إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » . على هذا اعترف الإسلام بالحرب واتخذها حيث لا تنفع الحجة والبرهان وسيلة عملية لمكافحة البغي ، ورد العدوان ، وإزالة العقبات ، والقضاء على المفاسد والطغيان « فقاتل في سبيل الله ، لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا » ، « فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا » .

اعترف الإسلام بالحرب في تلك الدائرة وجعلها ذروة سنامه ، وأفرغ عليها صبغة الجهاد في سبيل الله ، يقيم بها العدل والميزان ويمهد بها سبل الحياة الطيبة السعيدة ، وحينما يصل المسلمون بالحرب إلى هذه الغاية أوجب أن تضع الحرب أوزارها . وأوجب الكف

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

عنها ، فإن انتهوا ، فلا عدوان إلا على الظالمين ، ، فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ، .

وهو إذ يقررها ويدعو إليها وسيلة لإقامة العدل والميزان ، يحوطها بالتشريع الذى من شأنه أن يحقق هدفها ، وهو إخضاع قوى الشر والفساد ، والذى من شأنه فى الوقت نفسه أن يخفف من ويلاتها ، ويضمد من جراحها ، ولا يترك أهله يفتحون بابها على الناس: أبواب الجحيم من كل جانب ، لا يترك لهم أن يبقروا فيها بطون الحبالى ، ولا أن يمثلوا بجثث الشيوخ والرضع .

هذا الجحيم الذى نرى دعاة الحضارة والمدنية يدقون ناقوسه بسبب ولغير سبب ، ويوقدون ناره فى جميع الآفاق ، فلا تلبث أن تلتهم المشرق والمغرب ، ويصير الناس فيها كمثل قوم فى سفينة ، أخذتها الأعاصير من كل جانب ، واضطربت بهم فى بحر لجى ، يغشاه موج من فوقه موج ، من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض . يكاد اليم يبتلعها بمن فيها ، أو كمثل قوم حوصروا بالنار ذات الوقود فى بيت مغلق النوافذ ، وقد تقطعت بهم أسباب النجاة فجمدوا فى أماكنهم ، شاخصة أبصارهم ، يشهدون التهام النار متاعهم ونفائسهم وأموالهم وأبناءهم وأنفسهم ثم لا يستطيعون أن يحركوا ساكنا ، أو يلتمسوا طريقاً للخلاص من هول ما هم فيه سوى العويل والصياح ، والاستغاثة من الخطر الذى دهمهم ، وحل بهم وبدارهم إلى أن تخمد أنفاسهم ويصيروا جثثا هامدة تحت أنقاض البيوت وعروش العمائر ! .

حرب المدنية :

هذه هى مدنية القرن العشرين : مدنية العلم الذى أنعم الله به على الإنسان ليسعد به الإنسانية فأشقاها ، ويحييها فأماتها . هذا هو حربها وهذا هو سلامها الذى يتغنى به الخراصون الأفاكون ، والذى نسجوا من اسمه أحبولة يكيدون بها السلام الحق بها ، يفسدون حكمة الله فى خلق الإنسان ، هذا هو السلام الذى يحتفل الأفاكون بعيده كل عام ، ويزعمون أنهم ينتسبون إلى رسوله الذى جاء عنه قوله تعالى : « إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً . وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حياً . وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً . والسلام علىَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » .

عناصر الانتصار :

أقر الإسلام الحرب طريقاً للسلم ، وتحقيقاً لهذا الهدف السامى أرشد القرآن الكريم إلى عناصر النصر الذى يرد العدوان ، ويكافح الظلم والطغيان . أرشد إلى القوة المادية ، وإلى جملة من أصول التنظيم لعملية الحرب ، وأرشد

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

إلى الروح المعنوية الذى به تعمل الحرب عملها وتصل إلى أهدافها .

القوة المادية :

أرشد إلى القوة المادية ونزلت فيها آية محكمة « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » والقوة كلمة تتسع لكل ما عرف ويعرف من آلات الحرب برية وبحرية وجوية . والرباط كلمة تتسع لكل ما عرف ويعرف فى تحصين الثغور ومداخل الأعداء وقوى الدفاع الظاهرة والكامنة . ويعلن فى الآية أن فائدة هذا الإعداد العام الشامل ليست هى النصر فى المواقع الحربية فقط ، وإنما هى قبل ذلك وسيلة قوية لإقرار الحق ومنع الأعداء من التفكير فى زلزلته والطغيان عليه « ترهبون به عدو الله وعدوكم » ومن هذا الجانب تكون القوة المادية عاملا من عوامل السلم ، تحفظ الحقوق وتقيها شر الاعتداء وينشر على العالم ظلال الأمن والاستقرار .

وكما يرشد القرآن إلى القوة المادية من جهة العدد والآلات ، يرشد أيضاً فى دائرة القوة المادية أن تكون الأمة كلها جنداً مدرباً على السلاح ، مدافعاً عن الحوزة ولا يستثنى القرآن من ذلك سوى أرباب الأعذار التى تحول بينهم وبين القيام بهذا الواجب ، وفى ذلك يقول : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله . . . » ولكن المسلمين فيما انتابهم من عصور الضعف والانحلال تحللوا من هذا الواجب ، وعولوا على حماية غيرهم لهم فوجدوا فيهم لقمة سهلة لينة ، فضغوها وهضموها وكانت أثراً بعد عين .

أهملوا الجندية وجعلوها صورة هزلية ، ومظهراً من مظاهر السلطان الفاسد ، ولوناً من ألوان الخدمة لكبار الدولة المأجورين ، فقصروها على الفقراء الذين لا يستطيعون دفع البدل النقدى ، وأخرجوا من صفوف المجاهدين حملة القرآن والعلم وأبناء الأغنياء والوزراء وأرباب الوظائف الإدارية ، وبذلك صارت الجندية فى أذهاننا وفى أوضاعنا عنوان الذلة والضعة .

وإنى لأحمد الله الذى هيأ لهذه الأمة من وضع الجندية فى مكانتها ، ورفع من شأنها . وأحمده مرة أخرى إذ تلقت الأمة هذا الوضع الجديد بإيمان قوى . وصدر ممتلئ بمعنى العزة والكرامة ، وستسير أمتنا فى طريق المجد إن شاء الله بعد هذه اليقظة الواعية مستلهمة أحكام الله وشرعه . وبه يكون النصر المؤزر ، والكلمة العالية .

محمود شلتوت

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الأبجدية العربية الكمل الأبجديات

للأستاذ عباس محمود العقاد

فى أيام البحث فى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية كان أحد الزملاء - أعضاء مجمع اللغة العربية - يروى أن الأبجدية الروسية تشتمل على نحو أربعة وثلاثين حرفا وتزيد نحو ثلاثة حروف على الأبجدية العربية ، مع حسبان حروف المد فى الأبجديتين .

وكان يلوح لذلك أننا قد نستفيد من مقابلة تلك الأحرف الزائدة بما يناسب النطق العربى لأداء الأحرف التى لا توجد فى لغة الضاد .

وقد رجعنا - لهذه المناسبة - إلى مرجع واف لأصول الأبجديات فوجدنا أن الأبجدية الروسية التى ذكرها الزميل أنقص حروفا من الأبجدية العربية ، وإن زادت علامات الأحرف بها عن علامات الأحرف عندنا .

(أولا) لأن الأبجدية الروسية لا توجد بها حروف تمثل أصوات الحاء والذال والصاد والضاد والطاء والظاء ، فهذه الأصوات ناقصة فيها يعوضونها إذا كتبوا الأسماء العربية بوضع نقط تحت الحروف التى تؤدى عندهم أصوات الحاء والزاى والسين والدال والتاء .

و (ثانيا) لأن بعض علامات الحروف عندهم يكتب حرفين متلاصقين لأداء المخارج الصوتية الملتبسة .

و (ثالثا) لأن حروف المد عندهم تتكرر بعلاماتها لتؤدى حركات الألف والواو والياء عندنا ، وهى مصوتة أو صامتة يتغير نطقها بتغير حركات الضم والفتح والكسر أو السكون عليها .

و (رابعا) لأن بعض الحروف عندهم تمثل أصواتا ملتبسة بين مخرجين ولا تمثل حرفا خالصا من مخرج واحد .

وكل هذه الحروف ليست بالناقصة فى اللغة العربية ، ولكنها موجودة فى لهجات القبائل وعليها زيادة من قبيلها ، وهى جميعا تدل على طور من أطوار النطق تخطاه العرب فى سبيل سلامة النطق التى انتهت إليها قبائلهم الفصحى وخلص فيها النطق السليم من لبس المخارج ولبس الحروف ، فلا يسيغون حرفا واحدا يختلط فيه مخرجان ولا يسيغون مخرجا واحدا يتعثر فيه اللسان بين حرفين ، ولا يقعون فى إهمال المخارج الصوتية المهمة التى يستقيم بها نطق الإنسان ، وأهمها مخرج

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الحروف الحلقية التي تلتبس الحروف عند الأمم غير العربية لإهمالها في تقسيم حروف الكلمات .

وفي أبواب الإبدال والحروف المتفرعة التي تستوفيها كتب النحو والصرف والقراءات بيان مفصل عن هذه الحروف الكثيرة التي تبلغ بها الأبجدية العربية فوق الأربعين ، لو أضيفت إليها .

فمن هذه الحروف حرف الياء القريبة من الجيم في بعض لهجات قضاعة .

وحرف الكاف القريبة من الشين في بعض لهجات ربيعة .

وحرف الباء القريبة من الميم في بعض لهجات مازن .

وحرف الكاف القريبة من الجيم القاهرية في بعض لهجات اليمن .

وحرف بين الصاد والسين ، وحرف بين الطاء والتاء ، وحرف بين الظاء والثاء ، وحرف بين الباء والفاء ، وحرف بين العين والجيم في بعض لهجات قيس وبني أسد وبعض لهجات المتحدثين ممن تنحرف ألسنتهم عن النطق السوي المتفق عليه بين قبائلهم التي اصطلحت على النطق الفصيح .

فهذه الأصوات لم تكن ناقصة في لهجات اللغة العربية ، ولكنها كانت في هذه القبيلة أو تلك أصواتا مضطربة بين مخارج النطق تجري مواضعها القويمة من حروفها الخالصة ، إلى أن استقرت على حروف لا التباس بها ومخارج وافية من النطق الإنساني لا يهمل بعضها ولا تتداخل الحروف على اختلاط واشتباه في بعضها الآخر .

وقوام النطق الإنساني الفصيح أن فيه جميع مخارج الأصوات ، وأن تخلص فيه مواقع الحروف بغير لبس ولا اختلاط ،

وهذه هي مزية « الأبجدية » العربية التي يحق لنا من أجلها أن نحسبها أكمل الأبجديات ، وأن نستشهد لذلك بالشواهد العضوية الحيوية أو الشواهد البيولوجية الفزيولوجية كما تقول في مصطلحات العلم الحديث ؛ لأن جهاز النطق الإنساني وتوزيع مخارج النطق عليه حقيقة من حقائق العلم والحياة لا تزيد عليها ولا تنقص منها مفاخر الأجناس والأنساب ، ولا دعاوى اللغات واللغويين .

وقد تقدمت اللغة العربية في هذه الأطوار وانتقلت من طور اللبس والاختلاط إلى طور الفصاحة والتمييز السليم لأسباب متعددة تخصها ولا تعم « العائلات » اللغوية الأخرى ، وأكبرها أثرا فيما نحن بصدده أن التطور بين لهجاتها قد كان تطورا بين لهجات لغة واحدة في جزيرة واحدة ، ولم يكن تطورا تتنازعه اللغات المختلفة من عائلة لغوية واحدة أو عائلات شتى .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فإذا تنازعت لهجتان فالغالب المستحسن منهما باق فى اللغة العربية ، والفرق بين المختار منهما والمتروك معروف بمقياس واحد فى تلك اللغة مردود إلى أصل واحد من أصولها . باق فيها على أنه مزية من مزاياها تهدى إلى الاقتداء بها فى مزايا أخرى.

وقد يرجع استيفاء النطق بمخارج الحروف الحلقية إلى مزية جوية فى الجزيرة ، تاريخية فى أهلها ؛ لأن مناخ الجزيرة لا يحول دون استخدام الحلق فى الكلام ، واشتغال أهلها برعى الإبل والشاة يعودهم سماع الأصوات التى تقارب حروف القاف والعين والخاء ، ولكن الفضل فى الاختيار والتمييز لا يزال بعد وجود الحروف لأى سبب من الأسباب الجوية أو التاريخية حقا خالصا للمتكلمين المتسابقين فى تجويد النطق وحسن البيان .

* * *

وهذه معلومات واقعية عن لغتنا تخولنا أن نعتد برسم الكتابة عندنا وأن نقيم على أساسه كل تنقيح أو توسع نحتاج إليه . فإن هذا الرسم نمط رفيع بين الأبجديات فى لغات الأمم التى لم تسلم بعد من العجمة أو اللكنة ولم تخلص فى تجربة المخارج الصوتية من الإهمال والاختلاط إلى فصاحة النطق السليم .

ونسميها « معلومات واقعية » ولا نسميها مفاخر قومية ؛ لأننا أحرى أن نعنى أنفسنا من دعوى الفخر فى أمر نستغنى فيه بتقرير الواقع عن انتحال الدعوى ، وما من زمن هو أولى بإبراز هذه المعلومات من زمن كثرت فيه أحاديث التطوير والتجديد فى قواعد الرسم وأصول الكتابة ومزايا الضبط فى التعبير والأداء .

وخصلة أخرى تدعونا إلى إبراز تلك المعلومات والإبانة عن أسرارها وظواهرها ، وهى وجوب الانتهاء من طور الاتهام وسوء الظن بالنفس أمام الفضائل الأجنبية ما ثبت منها وما هو من قبيل المفاخر المشكوك فيها ، فقد كان طور الاتهام وسوء الظن بالنفس حميد المغبة من بعض جهاته ، يوم كان الشعور بالفضائل الأجنبية فى عالم الثقافة والصناعة لازما للتنبيه إلى مواطن ضعفنا وقصورنا والنهوض بنا إلى تصحيح أخطائنا وعيوبنا وابتعاث عزائمنا وأفكارنا ، ولكن الجانب الحميد منه قد ينقلب إلى نقيض ذميم إذا انتهينا إلى طور العمل ووجب علينا أن ندرك الحقائق على جليتها وأن نعطى كل شىء حقه من الجهد عندنا وعند غيرنا .

وثمة جانب آخر من جوانب الاتهام وسوء الظن لم يكن حميد المغبة من قبل وليس هو بالحميد المغبة فى وقت من الأوقات .

وذاك أن الإسراع إلى قبول التهم التى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

تكال لنا جزافا قد كان إحدى الشهوات الحمقاء فى نفوس المغرورين من زمرة المتفرنجين ، إذ غلب فيهم حب الظهور على حب الحقيقة بل على حب الكرامة ، فلم يكن أعجل منهم إلى الترحيب بكل نقيصة تنسب إلى لغتنا وكل مزية تنسب إلى اللغات الأخرى اغترارا منهم بسمعة العلم الذى انفردوا بتحصيله من الغرب ولم يشاركهم فيه إخوانهم ممن فاتهم تحصيله هناك كما حصلوه ، وليس لهذا الغرور محل فى زمننا هذا لانتهاء المفاجأة التى فتحت أبواب الإنكار على الثقافة الأجنبية من جهة ، وفتحت أبواب التعصب لها والمباهاة بها من جهة أخرى ... فليس منا من يحق له أن يعتبر الثقافة الأوربية فخرا له دون غيره بين أبناء قومه ، وليس منا من يحق له أن يتمادى مع التقليد الأعمى فيخيل إليه أن كل مزية ننسبها إلى لغتنا إنما هى نعرة فخار ونخوة عصبية ، ولو كانت لها حقيقة واضحة كحقائق الأرقام ؟

عباس محمود العقاد

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الحجاج والأعرابى الحكيم

قال الأصمعى : خرج الحجاج ذات يوم فأصحر ، وحضر غداؤه ، فقال : اطلبوا من يتغدى معنا ، فطلبوا فلم يجدوا إلا أعرابيا فى شملة ، فأتوه به ، فقال له : هلم . قال له : قد دعانى من هو أكرم منك فأجبته . قال : ومن هو ؟ قال : الله تبارك وتعالى دعانى إلى الصوم فأنا صائم . قال : صوم فى مثل هذا اليوم على حر ! قال : صمت ليوم هو أحر منه . قال : فافطر اليوم وصم غداً . قال : ويضمن لى الأمير أن أعيش إلى غد ؟ قال : ليس ذلك إلىّ . قال : فكيف تسألنى عاجلا بآجل ليس إليه سبيل . قال : إنه طعام طيب . قال والله ما طيبه خبازك ، ولا طباخك ، لكن طيبته العافية . قال الحجاج : تالله ما رأيت كاليوم أخرجوه عنى .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

من معاني القرآن

« قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم » (قرآن كريم)

(القول المعروف يصدق على كل كلام يتسم بالرفق والخير والإحسان.
(والمغفرة ستر الذنب بالعفو والصفح عن فاعله .
(والمراد بالصدقة هنا ما يبذله المنفق أو المتصدق للسائل أو المحتاج.
(والأذى يطلق على المكروه الذى يؤلم ، والشئ الذى يستقذر .

ومعنى الآية ـ والله أعلم بمراده ـ أن رد السائل بقول حسن أو كلمة طيبة خير من إعطائه ما يطلب من صدقة إذا كان يتبعها كلام يؤذيه ويؤلمه . أو اعتداد بها من المنفق أو المتصدق يثقل عليه ، ويدخل فى ذلك إظهار الضيق به . والتبرم منه ، والتجهم فى وجهه ، والله غنى لا يحتاج لغيره . بل كل ما سواه محتاج إليه ، وهو حليم لا يعاجل بالعقاب من يبخل بماله . أو يبذله ويتبع البذل بما يبطله من أذى السائل بالقول أو الفعل . فلا يغرنكم ذلك . وخافوا عذابه وعقابه . فإنكم لا محالة محاسبون أمامه .

ويظهر من مقابلة القول المعروف بالصدقة أن المراد بها صدقة التطوع والتبرع . وقد شاع استعمال هذه الكلمة بهذا المعنى فى كلام الناس حتى فهم خطأ أنها قاصرة عليه. مع أنها فى وضعها الإسلامى السليم ـ وقبل أن يضيق العرف الفاسد معناها الواسع ـ تطلق على كل قول وكل فعل ينم على صدق الإيمان. وإحساس المؤمن بما يجب عليه نحو الله ونحو الناس .

فالزكاة وهى ضريبة لازمة وحق مفروض فى مال الأغنياء . تسمى صدقة ، كما يفهم من قول الله « إنما الصدقات للفقراء والمساكين الخ » والعامل على الزكاة كان يسمى عاملا على الصدقة ، بل كل عضو فى جسم الإنسان عليه ـ كل يوم تطلع فيه الشمس ـ صدقة ، كما يفهم من قول النبى صلى الله عليه وسلم « كل سلامى « عضو » من الناس عليه صدقة » كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقة ، وتعين الرجل فى دابته فتحمله عليها أو تحمل له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة . وتميط الأذى عن الطريق صدقة » .

ومن ثم يتبين أن معنى الصدقة يسع كل خير وبر ، وأن صدقة التبرع أو التطوع . يجب ألا يشوبها جور على كرامة السائل والمحتاج ، فعلى الذين يرون فى الصدقة غضا من قيمة الإنسان وكرامته أن يفهموا الإسلام على سلامته واستقامته ، فسيجدون فيه اشتراكية أوسع وأرفع .

عبد الرحيم فودة

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية

للأستاذ محمد محمد أبو شهبة

بينت فى المقال السابق أن مرجع الشريعة الإسلامية إلى القرآن والسنة المحمدية يعنى أنها من عند الله سبحانه وأنه ليس للبشر فيها إلا فهم النصوص والاجتهاد فيما لم يرد فيه نص صريح بقياس الشبيه على الشبيه ، وتخريج الفروع على الأصول ؛ واستخراج أحكام الجزئيات من الكليات ، والنظر والاستدلال فى حدود القواعد العامة ، ومراعاة روح التشريع الإسلامى ومقاصده وأهدافه ، وأن القوانين الوضعية مرجعها إلى عقول البشر فهى بشرية بحتة ويترتب على هذا الفرق الأصيل فى المصدر النتائج الآتية :

١ — أن تكون للتشريعات الإسلامية القداسة والتقدير والاحترام فى النفوس وذلك لأن واضعها هو الله سبحانه وتعالى وله فى النفوس القداسة العظمى ، والخضوع المطلق ، وليست القوانين الوضعية كذلك فهى عارية عن هذا التقديس مهما كانت منزلة واضعها ، ولهذا التقديس أثره الكبير فى التزام الشريعة والعمل بها فى السر والعلن ، والرضا والغضب ، حتى ولو أمن العامل بها غفلة الحاكم الذى ينفذ الشريعة ، ويقيم الحدود والتعزيرات ، ويقضى بين الناس ؛ لأنه إن غفل الحاكم وأعوانه ولم يصل إلى علمهم المخالفة أو الجريمة فلن يغفل الرقيب الأعلى العليم بكل شىء والخبير بما تهجس به النفوس ، وهو الله تبارك وتعالى ، وهذه المراقبة للحق تبارك وتعالى إنما تربيها وتنميها الشرائع السماوية ، ولا تزال تنمو وترسخ حتى تصير ملكة نفسية ولن تجد أصلح للمجتمعات من سيطرة ملكة المراقبة فى النفوس .

وإنك لتلمس هذا المعنى واضحا فى مسلك بعض الأغنياء الذين يخرجون زكاة أموالهم طائعين مختارين عن طيب نفس ومع التحرى والتحوط البالغين فى التقدير والإخراج ، بينما تجدهم يتقاعسون عن دفع بعض الضرائب التى تفرضها الدولة مع أنها تنفق فى الخير والمصلحة العامة بل ويتحايلون على التخلص منها ، وإذا دفعوها دفعوها مكرهين ، وذلك لأن الزكاة تكليف من الشارع الحكيم ، أما الضرائب فتكليف بالقانون .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وتلمسه أيضا فى هذا المشهد العظيم - موسم الحج - حيث يجتمع الألوف المؤلفة من كل جنس ولون ، ومن كل قطر وصقع ، ومع هذا يكاد يكون التعدى على الدماء والأعراض والأموال فى حكم العدم ، ولم نسمع أن أحدا قتل ، أو عرضا انتهك ، أو مالا انتشل ، إلا فى القليل النادر جدا ، ولو رأيت الناس وهم يطوفون حول البيت رجالا ونساء ، وشبابا وشيبا ، ويتزاحمون بالمناكب حتى لا تكاد تجد منفذا لإبرة ، لعجبت ألا تجد أحداً سرقت نقوده ، أو عجوزاً وطئ تحت الأقدام ، أو امرأة عرض لها أحد بسوء ، أو خدش حياءها بلمسة مريبة ، أو كلمة نابية ، ولآمنت حق الإيمان بسلطان الشريعة على النفوس وقداستها فى القلوب ، ولو أن مجتمعا دنيويا لا يصل تعداده عشر معشار هذا الحشد الحاشد من الحجيج لما سلم من الجرائم والمظالم التى لا يحصيها العد ولكنه الوازع الدينى الذى هو من ملازمات التشريع السماوى ولا سيما الإسلام .

(٢) مواءمة التشريعات الإسلامية للفطر وصلاحيتها لكل زمان ومكان ولكل الأمم والشعوب على اختلاف طبائعها ، واتجاهاتها وبيئاتها ، وذلك لأن واضعها ومشرعها هو الله سبحانه وتعالى وهو عالم بما كان وما يكون ، وعالم بالبشر وفطرهم ، وغرائزهم وطبائعهم ، وما يعرض لهم من صحة ومرض وغنى وفقر ، وسفر وحضر ، ولذلك جاءت التشريعات الإسلامية متفقة مع الفطرة وفيها كفاء لكل هذه الأحوال والملابسات .

وسأقتصر على ضرب مثل لهذا ، وليكن ذلك بعقوبة القصاص فى النفس فقد جعلت الشريعة القصاص حقا لولى الدم ولم يجعله الله سبحانه حقا لازما كالحدود لا يجوز التنازل عنه ولكنه شرع لولى الدم العفو إلى بدل وهى الدية ، أو العفو المطلق قال سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم . ولكم فى القصاص حياة ياأولى الألباب لعلكم تتقون » (١) وقال : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » (٢) .

والآية وإن كانت فى شريعة التوراة فهو فى شريعتنا كذلك ، وقد دلت الآية على أن

(١) البقرة ١٧٨ ، ١٧٩ .
(٢) المائدة الآية ٤٥

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

شريعة التوراة كان فيها القصاص والعفو المطلق ، أما شريعتنا فجاءت بالقصاص والدية والعفو المطلق . وبذلك تميزت عن الشرائع السماوية السابقة والقوانين الوضعية ، وجاءت أوفى وأتم ، وأشد مواءمة للفطر والنفوس . ولذلك سر ، ذلك أن بعض الناس كالقبائل البدوية وأهل الريف بمصر مثلا ومن فى حكمهم ممن يستحكم فيه حب الأخذ بالثأر والتشفى والانتقام لا يرضون إلا بإراقة الدم وذلك بالقصاص وبغيره لاتذهب الحزازات من النفوس وذلك أمر معروف ويحس به أكثر المتصدرون للقضاء بين الناس ، وبعض الورثة وأولياء الدم قد يرون أن الدية أنفع لهم من القصاص ولا سيما إذا كان القتيل هو عصمتهم وليس لهم عائل سواه ويرون أنهم فى حاجة إلى المال للإنفاق على الأرامل والصغار أو لاعتبارات أخرى ككون القاتل له صلة قربى بهم ، وأمثال هؤلاء يميلون غالباً إلى الدية بدل القصاص وبعض أولياء الدم قد يرون العفو المطلق . إما لسمو فى نفوسهم أو تسامح فى فطرتهم ، أو قوة فى دينهم فهم يلتمسون الأجر من الله . وإما لظروف تدعوهم إلى العفو عن القاتل كقرابة ونحوها ، فمن ثم جاءت الشريعة بالأمور الثلاثة وقد كان الشارع حكيما أيضاً حينما جعل القصاص حقاً للولى وجعل للولى أن يقتص بنفسه لترضى بذلك نزعة الانتقام الكامنة فى أغواره ، ولتحول بينه وبين أن يأخذ حقه بيده قبل المحاكمة أو قبل الموعد المحدد لتنفيذ العقوبة ، أو أن يرى العقوبة التى تنفذها السلطات العامة غير كافية لشفاء نفسه فيحاول أن ينتقم من أهل القاتل ، وحينما جعل لولى الدم أن يقتص أو أن يعفو إلى بدل أو يعفو عفواً مطلقاً . فبعد أن مكنته من القصاص كل التمكين وسلطته على الجانى إلى هذا الحد ، حببت إليه العفو وأغرته به من الناحية المادية فجعلت له أن يعفو على مال ، وأغرته به من الناحية المعنوية فوعدته رضاء الله والثواب الجزيل فى الآخرة ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله[1] ، ، فمن تصدق به فهو كفارة له ، ، والكاظمين الغيظ والعافين عن النا[2] ، حتى إذا عفا بعد هذا كله فقد عفا بنية صحيحة ، وانمحت السخائم والحزازات ، وحل الوئام محل الخصام ، وهو العامل الفعال فى حفظ الأمن وإقرار النظام بين الجماعات[3] .

وليس ثمة من يجادل فى أن الإنسان بطبعه يكون أقرب للعفو عن حقه بنية صادقة كلما كان قادراً على الوصول لحقه ، لا يمنعه عنه

(١) الشورى ٤٠ .

(٢) آل عمران ١٣٤ .

(٣) التشريع الجنائى الإسلامى ص ٥٤٩ ج ١ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

مانع . ومن هذا العرض الموجز يتبين لنا موافقة الشريعة الإسلامية لطبائع البشر وغرائزهم ، وفضلها على غيرها فى هذا . وهذا المعنى هو الذى عناه الحق تبارك وتعالى بقوله : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون[1] » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : (ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟) رواه البخارى ومسلم والفطرة هى الدين الحق ، دين الإسلام ، الذى يوائم الفطر والطبائع وقوله : (تركتكم على الحنيفة السمحة التى ليلها كنهارها) .

أما القوانين الوضعية فواضعها البشر وهم مهما بلغوا من العلم فعلمهم قاصر لأنهم إن علموا ما فى أمسهم ويومهم فلن يعلموا ما فى الغد ، وإن علموا بعض الطبائع فلن يعلموا كلها ، وإن علموا بعض البيئات فلن يحيطوا بها كلها علماً ومن ثم كانت بعض القوانين الوضعية لا توائم كل الفطر ولا جميع البيئات ، ولا تحقق مصلحة الناس ولا صلاح المجتمعات .

وليس أدل على هذا من أن القانون الذى نحكم به فى بعض الجرائم والعقوبات كالزنا مثلا أفسد ولم يصلح ، وفتح باب شر كبير على مجتمعاتنا الإسلامية . وذلك لأنه وضع لبيئة غير بيئتنا ولقوم دينهم غير ديننا ، وطبيعتهم غير طبيعتنا ، وتقاليدهم غير تقاليدنا ، بل قد أثبت الواقع عدم صلاحية هذه القوانين للبيئة التى وضعت لها . وليس أدل على ذلك من فشو الفساد والانحلال الخلق والاجتماعى فى كثير من البلاد الغربية ، التى تحكم بالقوانين الوضعية ، ولن يجادل فى هذا إلا مكابر .

٣ — موافقة التشريعات الإسلامية للصواب والحق والعدل وذلك لعدم احتمال الخطأ أو الغلط أو الجور أو الظلم من واضعها أو الخضوع الأهواء والشهوات والتأثر ببعض المؤثرات وعدم احتمال المحاباة أو المجاملة أو النفاق والمداهنة ، إذ الحق سبحانه وتعالى منزه عن كل ذلك ، وكذا الرسول صلوات الله وسلامه معصوم عن ذلك ، وقد قامت الدلائل العقلية والنقلية على كل ذلك ، وقد بين الحق تبارك وتعالى هذا المعنى بقوله : « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم »[1] ، وقال : « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

(البقية على صفحة ٤١٠)

(١) الروم ٣٠

(١) الأنعام ١١٥ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وأما مصطلح النحويين فهو ما تقدم الكلام عليه .

والتضمين النحوى تعرض له علماء البلاغة فى بحث المجاز .

ومن الرسائل المدونة فيه :

١ - رسالة ابن كمال باشا ومؤلفها توفى سنة ٩٤٠ هـ - ١٥٣٣ م .

٢ - رسالة ياسين بن زين الدين أبى بكر ابن محمد بن الشيخ عليم (بالتصغير) الحمصى الشافعى نزيل مصر الشهير بالعليمى ويعرف بالسنوشرى (محشى كتاب التصريح على التوضيح) وله رسالة أخرى فى التضمين أيضا . توفى سنة ١٠٦١ هـ - ١٦٥٠ م .

٣ الدر الثمين فى محاسن التضمين ، تأليف العلامة الشيخ عبد الله بن سلامة الإذكارى نزيل القاهرة ولد سنة ١١٠٤ هـ - ١٦٩٢ م والمتوفى فى ٥ جمادى الأولى سنة ١١٨٤ هـ - ١٧٧١ م فرغ من تأليفه سنة ١١٧٥ هـ منه نسخة بدار الكتب المصرية .

٤ - رسالة المرحوم الأستاذ محمود شكرى الألوسى .

وهذه الرسائل تعين مجارى الآراء فى الموضوع سواء كان للسيد الشريف الجرجانى أو لسعد الدين التفتازانى أو لغيرهما من تلا من علماء البلاغة ؟

عمر الفاضلي السيد
من خريجى الأزهر

(بقية المنشور على صفحة ٤٠٤)

تنزيل من حكيم حميد ،[1] وقال : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ».[2] .

أما القوانين البشرية ، فإن واضعها عرضة للغلط والسهو والخطأ واتباع الأهواء والشهوات ، وقصد المحاباة أو النفاق وتملق الجماهير بل احتمال ذلك أمر قريب محتمل ، ولذلك نجد القوانين الوضعية لا تسلم من التخطئة والنقض والإبطال ، والتغيير والتبديل ، وما من قانون وضعى قديم أو حديث إلا وفيه ثغرات كثيرة ، نفذ منها الناقدون المنصفون ، على حين نجد الشريعة الإسلامية ، مضى عليها قرابة أربعة عشر قرنا وقد بلغت من الجدة كأن عهدها بالحياة أمس ، ومن الإحكام ما جعلها تفوق كل تشريع كما بينا وكما سنبين ، وإذا كانت لم تسلم من الطعون ، فما ذلك إلا إرضاء لتعصب ذميم ، أو حقد دفين ، أو استجابة لهوى نفسى من المبشرين والقساوسة ومن لف لفهم ، والمنصفون من الغربيين قد وصفوها بما هى له أهل ، وقد بينا طرفا من ذلك فى المقال الأسبق ونحسبنا هذا اليوم ، فإلى المقال الآتى إن شاء الله ؟

محمد محمد أبو شهبة

(١) فصلت ٤١ : ٤٢ . (٢) النساء ٨٢

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

التضمين، أو نيابة حرف مكان آخر

للأستاذ عمر لطفي السيد

من أمد بعيد كنا نسمع فى مجالسنا الأدبية فيما يجرى من مباحث ومطالب تتعارض فيها الآراء أحيانا ومن جملة ما كان يجرى بحثه أن (حروف الجر ينوب بعضها مناب البعض الآخر) فكان من رأى جماعة أنه لا يجوز أن ينوب حرف جر مناب آخر . وقال بعضهم إذن لا نستطيع أن نغلط أحدا فقلت له : فهل التغليط مقصود ؟ وإذا كان التوجيه ممكنا فمن الضرورى أن يحمل القول على محمل صحيح . ويصرون على أن مرجع ذلك اللغة ومدونانها ... وشاركهم من شاركهم ممن لا يؤم المجالس الأدبية . ومن رأى جماعة آخرين أن هذه الحروف ينوب منابها غيرها وقد طالت المباحثات فى هذا الموضوع .

وهذه المسألة لا تحل بإبداء الآراء وإنما تحقق من ناحية التبدل المشهود فى الكلمات ومشاهدة التغير فيها عند التركيب أى من ناحية النحو . ومن جهة أخرى نلاحظ علاقتها باللغة وبمجارى النطق العربى من جهة البلاغة وموافقتها أو مخالفتها . ولما دخلت هذه الحروف بحث الأخذ والرد وجب البت فى أمرها وبيان حقيقة الموضوع أو توضيحه فأقول :

الفعل فى اللغة يراد به معناه الأصلى ، والحروف المتعلقة به أو حروف الجر لا تتغير أبدا بالنظر إليه وهذا مما يؤيد أرباب الرأى الأول . وإذا تخلف ذلك ووضعنا حرفا مكان آخر عد ذلك غلطا قطعا وهذه قاعدة أصلية مقتبسة من كتب اللغة . ومن كلام العرب الفصحاء ، ولا تخرج هذه عن قاعدتها إلا إذا أردنا (المجاز المرسل) وهذا يقال له فى مصطلح النحويين (التضمين) أو أن يراد باللفظ (الحقيقة العرفية) ومن ثم يقولون : إن حروف الجر ينوب بعضها مناب البعض الآخر - بأن يبقى اللفظ على حاله لا يتغير، وإنما يتغير حرف الجر للدلالة على أن الفعل تبدل معناه إلى ما يقاربه من وجه فى التوسع أو التقييد لمعناه .

والعلاقة فى الغالب سببية ولا تذكر لمعلوميتها أو أنها صارت (عرفا لغويا) ولا ينكر أن التضمين فى اللغة العربية كثير

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

عد منه المرحوم الأستاذ (مصطفى صادق الرافعى) المتوفى سنة ١٩٢٧ م عشرة آلاف كلمة فعجز عن الإحصاء (والنحو فى هذه الحالة يراعى تحول الحروف ظاهرا) .

وغالب النقد من جهة مطابقة اللغة أو مخالفتها دون التفات إلى مراعاة التضمين أى المجاز ومن هنا عد أنه حصل بصورة غير صحيحة وهناك التحمل فى التأويل ليلتئم . وإلا فالملازمة غير قطعية ولا سيما عند تغير المعنى بصرف الفعل إلى معنى آخر يستدعى تبديل الحرف لعلاقة السببية أو لغيرها ومحل النزاع ما ورد فى (المغنى) من أن الحروف لا ينوب بعضها مناب البعض الآخر إلا بتحوطات .

وهذا نصه :

« مذهب البصريين أن أحرف الجر لا ينوب بعضها عن بعض « بقياس » كما أن أحرف الجزم والنصب كذلك ، وما أوهم ذلك فهو عندهم إما مؤول تأويلا يقبله اللفظ كما قيل فى قوله تعالى : « ولأصلبنكم فى جذوع النخل » وإن (فى) ليست بمعنى على ولكن شبه المصلوب لتمكنه من الجذع بالحال فى الشىء ، وإما على تضمين الفعل معنى فعل يتعدى بذلك الحرف كما ضمن بعضهم (شربن) فى قوله :

شربن بماء البحر ثم ترفعت
متى لجج خضر لهن نئيج

وشربن معنى روين (وأحسن) فى « وقد أحسن بى إذا أخرجنى من السجن » معنى لطف وإما على شذوذ إنابة كلمة عن أخرى وهذا الأخير هو بحمل الباب كله عند أكثر الكوفيين ، وبعض المتأخرين لا يجعلون ذلك شاذا ومذهبهم أقل تعسفا » اهـ [١]

وجاء فى التصريح [٢] :

« والصحيح عند البصريين أن حروف الجر لا ينوب بعضها عن بعض بقياس كما لا تنوب أحرف الجزم وأحرف النصب وما أوهم ذلك فهو عندهم إما مؤول تأويلا يقبله اللفظ وإما على تضمين الفعل معنى فعل يتعدى بذلك الحرف وإما على شذوذ إنابة كلمة عن أخرى وهذا الأخير هو بحمل الباب كله عند الكوفيين ، وبعض المتأخرين لا يجعلون ذلك شاذا ومذهبهم أقل تعسفا على ما قال صاحب المغنى » اهـ .

وهذا الإجمال هو موضوع المناقشة ويوضح هذا :

١ — أن أصل اللغة مبناها (الحقيقة) وأن الأفعال منها ـ ما تتعلق بها حروف

[١] المغنى ج ١ ص ١١١ طبعة الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد .

[٢] شرح التصريح ج ٢ ص ٤ — ٧ (المتن) طبعة سنة ١٩٢٥ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الجر الخاصة بها فلا تتجاوزها وبهذا الاعتبار لا ينوب بعضها مناب البعض الآخر على الإطلاق إلا بتحوطات وهذه عدها صاحب التصريح إجمالا عند البصريين . وذلك بأن تؤول الكلمة أو أن يراعى (فيها التضمين) إلى آخر ما جاء ، فهذه القاعدة عامة فى حقيقة اللغة وأما التجوز فإنه تابع لمراعى الكلام تبعا لعلاقات مجازية وهو موضوع (علم البيان) إلا أن التبدل قد يكون باستعارة كلمة أو صرف معناها عن حقيقته ، فإذا زال السبب عاد الكلام إلى ما كان عليه من حقيقة وإلا لم يكن الأمر كيفيا أو حسب الأهواء بأن تتصرف به حسب ما نريد وبدون مراعاة عوارض اللغة أى تتصرف بلا قياس.

٢ — التضمين أمر مجازى فى الحقيقة وذلك بأن نستعمل فعلا فى معنى آخر مجازا لعلاقة السببية فيظهر التحول فى معنى الفعل فتتغير له حروف الجر . والنحويون ليس من مباحثهم المجاز وإنما ينظرون إلى تبدل حروف الجر نظرا لتبدل المعنى ويقولون « تضمينا » .

٣ — تغليط النحويين وأهل البلاغة ، مبناه التوغل فى كتب اللغة ومشاهدة أن الحروف ثابتة لا تتغير بالنظر للأفعال فى « حقيقة » استعمالها ولذا يغلطون النحويين وعلماء البلاغة فيما ذهبوا إليه من « مجاز مرسل » أو « تضمين » ، وهؤلاء من جراء كثرة توغلهم فى المعاجم لم يكونوا أهل سعة فى مدلولات اللغة ، ولذا كانوا فى تغليطهم على خطأ وإن كان فى حقيقة اللغة صوابا ، هذا مع أن اللغة لا تخلو من ضروب بيان سواء فى الألفاظ أو فى الجمل وهى عوارض تزول بزوال علاقاتها ويزيد بعضهم بأنه لو راعينا هذه القاعدة لم يبق مجال فى تغليط أحد من حيث اللغة ، نظرا لهذا الاحتمال أو لهذا السبب . فى حين أن الكلام إذا كان له وجه صحيح ، فلا يجوز لنا التغليط إذا كان له مخرج فى اللغة ولا تقبل التمحلات أو التمطعات .

وكأن ذلك يضيع عليهم مكانتهم اللغوية وموقعهم الممتاز فيها . وانتقل هذا الأمر إلى آخرين أمثالهم أو المقلدين لهم على العمياء ، وما ذلك إلا لأن هؤلاء توغلوا فى معاجم اللغة توغلا صرفهم عن أن يدركوا مجاريها وجمدوا على أصل اللغة دون مراعاة ما يلامسها فى تصرفاتها فى غير معاجمها ، واعتبار ذلك تجاوزا على حدود اللغة ولم ينظروا إلى المجازات المرسلة والاستعارات ، ولا إلى المجاز العقلى والكنايات .

وهذا ما دعا النحاة أن يقولوا : « الحروف ينوب بعضها مناب البعض » ، وما ذلك إلا لأن المعنى قد يتبدل فيتحول المقصود من الفعل بإرادة معنى آخر ، ومن ثم يحول الحرف

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الذى هو من متعلقاته تبعا للمعنى المقصود من الفعل وإرادة معنى آخر ، أو أن الحرف شاع تبدله تبعا للمعنى المطلوب واطراده فى الاستعمال وشيوعه، وكأن الفعل متداول فى المعنيين فصح أن يستعمل الحرف محل الآخر ، وهذا هو الاستعمال (العرفى) أو ما يقال : إنه (حقيقة عرفية) وقد يسمى به (التضمين) أيضا من جراء عدم ظهور العلاقة أو فقدانها .

وأما التخصيص فيراد به الحرف المقصود قطعاً كأن استعملنا فعلا بمعنى فعل آخر إن اضطررنا أن نراعى الحرف المؤدى لمعنى ذلك الفعل وما يحتاج إليه من حرف وهذا من أوضح ضروب التضمين .

ولا شك فى أن اللغة كائن حى ، وفى تبدل مستمر وتغير لا نهاية له بمثل هذه الاستعمالات وهى لغوية أيضا ولكن اللفظ الأصلى يحافظ على وضعه وعلاقته بالحرف المـــلازم له فى الأصل قبل أن يحدث تبدل طارئ ، فإذا أردنا أن نشير فى أغراضنا المتحولة المتبدلة دائما وجب أن نجعلها مرتبطة بتلك الأغراض لعلاقات مجازية أو تضمينات ... باستخدام الحروف للمعنى المقصود دون (المعنى الحقيق) وهكذا شيوع الاستعمال أو (الحقيقة العرفية) .

وهذه ظواهر ليس من الصواب أن ننكرها أو نغلط الناطقين بها لمجرد أنها تخالف أصل اللغة ، وهذا التغليط ناجم عن التوغل فى المعاجم (أصول اللغة) كما تقدم ، أو عدم إدراك العلة الناجمة ، ومن ثم صار يعد كل خروج انحرافا عن اللغة وشذوذا عنها . وأكبر سبب هو أن الاستعمال مرتبط بعلاقات حالية أو مجازية يزول حكمها بزوال تلك العلاقات وتبعا لها فلا تبقى مستقرة كاللغة الأصلية .

فإذا كانت المعاجم تتكلم عن أصل وضع اللغة أو ما جرى فى زمان ، وعد المرء ذلك هو اللغة وحدها كان مخطئا من جهة أنه ضيق على اللغة فلم يتعرض للمجازات وتصرفات الألفاظ وما ماثل من ضروب التغير . فالمفردات مبنية فى المعاجم على حقيقتها وكذا الأفعال ومتعلقاتها ، أما المجازات فهى تابعة للعلاقات وفيها مؤلفات كثيرة فلا تدخل فى أصل اللغـــة وإنما ذلك تابع للاستعمال ومن أجل مباحثه (التضمين) .

وكذلك (الجمل) فهى متحولة وقد يراد بها غير ما وضعت له فى تكون اللغة وذلك مثل (المجاز العقلى) فيصرف عن أصل المعنى كتشبيه جملة بجملة أو معنى تام بمعنى آخر مثله أو يكون ذلك كما قلنا (مجازا) وأطلق عليه علماؤنا لفظ (المجاز العقلى) وهذا أيضا من ضروب البيان وضروب البيان

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

والتفنن فى التعبير تجعل للغة ثروة عظيمة والمجاز لا يرجع فيه إلى كتب اللغة ومثله الحقيقة العرفية .

والتضمين مجاز علاقته غير ظاهرة وربما وجدنا أن كثرة الاستعمال فى مثل هذه تقطع (العلاقة) فتصير (حقيقة عرفية) ... والتلاعب فى البيان لا حدود له ، وإن ضروب المعانى لا ينكر وجودها ، وتتكون لأدنى علاقة ظاهرة أو خفية أو غير مدركة بسهولة كالإشارة والكناية .

نعلم أن اللغة (مادية) فى الأصل وأن تصرف الناس خرج بألفاظها إلى الأمور المعنوية ، أو معان أخرى غير مقصودة لأدنى ملابسة من أصل اللفظ ، وقد تنسى وجهة الملابسة أو المناسبة فيبقى الاستعمال وهو حجة ، ومثل هذا ضرورى لضيق اللغة مهما بلغت من المكانة فى السعة ؛ فإنها مقيدة للناطقين بها وحاجاتهم ،وضرورة بيانهم تدعو إلى ذلك ولا تختلف اللغة العربية عن غيرها من اللغات ، وإن كانت واسعة النطاق فإن الناطقين بها لغتهم محدودة فيضطرون إلى استعمال المجاز فى اللغة كأنها لا يوجد منها غير ما يعلمون للتصرف بألفاظها وجعلها فيميلون إلى محامل كثيرة ، وإن المعارضين استبعدوا فى الحروف أن ينوب بعضها مناب البعض الآخر .

وهذه القاعدة أقرها علماء اللغة والنحو معا فالتصدى إلى أنها غير صحيحة لا يستند إلى دليل ونحن نستدل بكتب النحو ونصوصها ونستدل بالاستعمال فلا ندرى وجها للإنكار ولكن أرباب هذا الرأى لا يسمعون دليلا ويريدون أن يفرضوا آراءهم فرضا

وصفوة القول : إن اللغة دونت (الحقيقة) أو ما هو شائع فى عصر التدوين كحقيقة ولم يلتفت إلى استعمال الناس استعمالا مطردا فى ألفاظها مجازا أو استعارة أو كناية أو إشارة أو رمزا أو حقيقة عرفية ، ولا إلى الجمل واستعمالها بما هو قريب من هذا مما يعبر عنه بالمجاز العقلى ، وهذه الاستعمالات زادت فى ضروب البيان كما خرجت بمعانى الألفاظ الأولى إلى ما يقرب منها أو ما يعد مقاربا من وجه أو متباعدا بمقدار ضعف العلاقة أو قوتها ، وأكد ذلك الكتاب الكريم والحديث الشريف وضروب المدونات فى الأدب العربى . . وقد قيل (استعمال الناس حجة) فى اللغة وفى غيرها . . و (الحقيقة العرفية) من أمثلة ذلك فلا نجد بين حقيقة اللغة وبين الحقيقة العرفية حدودا سوى الاستعمال . هذا والتضمين فى مصطلح البيانيين الإشارة إلى آية أو مثل أو بيت شعر وتضمينه . . وهذا لم يكن من موضوعنا .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وأما مصطلح النحويين فهو ما تقدم الكلام عليه .

والتضمين النحوى تعرض له علماء البلاغة فى بحث المجاز .

ومن الرسائل المدونة فيه :

١ - رسالة ابن كمال باشا ومؤلفها توفى سنة ٩٤٠ هـ - ١٥٣٣ م .

٢ - رسالة ياسين بن زين الدين أبى بكر ابن محمد بن الشيخ عليم (بالتصغير) الحمصى الشافعى نزيل مصر الشهير بالعليمى ويعرف بالسنوشرى (محشى كتاب التصريح على التوضيح) وله رسالة أخرى فى التضمين أيضا . توفى سنة ١٠٦١ هـ - ١٦٥٠ م .

٣ الدر الثمين فى محاسن التضمين ، تأليف العلامة الشيخ عبد الله بن سلامة الإذكارى نزيل القاهرة ولد سنة ١١٠٤ هـ - ١٦٩٢ م والمتوفى فى ٥ جمادى الأولى سنة ١١٨٤ هـ - ١٧٧١ م فرغ من تأليفه سنة ١١٧٥ هـ منه نسخة بدار الكتب المصرية .

٤ - رسالة المرحوم الأستاذ محمود شكرى الألوسى .

وهذه الرسائل تعين مجارى الآراء فى الموضوع سواء كان للسيد الشريف الجرجانى أو لسعد الدين التفتازانى أو لغيرهما من تلا من علماء البلاغة ؟

عمر الفاضلي السيد
من خريجى الأزهر

(بقية المنشور على صفحة ٤٠٤)

تنزيل من حكيم حميد ،[1] وقال : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ».[2] .

أما القوانين البشرية ، فإن واضعها عرضة للغلط والسهو والخطأ واتباع الأهواء والشهوات ، وقصد المحاباة أو النفاق وتملق الجماهير بل احتمال ذلك أمر قريب محتمل ، ولذلك نجد القوانين الوضعية لا تسلم من التخطئة والنقض والإبطال ، والتغيير والتبديل ، وما من قانون وضعى قديم أو حديث إلا وفيه ثغرات كثيرة ، نفذ منها الناقدون المنصفون ، على حين نجد الشريعة الإسلامية ، مضى عليها قرابة أربعة عشر قرنا وقد بلغت من الجدة كأن عهدها بالحياة أمس ، ومن الإحكام ما جعلها تفوق كل تشريع كما بينا وكما سنبين ، وإذا كانت لم تسلم من الطعون ، فما ذلك إلا إرضاء لتعصب ذميم ، أو حقد دفين ، أو استجابة لهوى نفسى من المبشرين والقساوسة ومن لف لفهم ، والمنصفون من الغربيين قد وصفوها بما هى له أهل ، وقد بينا طرفا من ذلك فى المقال الأسبق ونحسبنا هذا اليوم ، فإلى المقال الآتى إن شاء الله ؟

محمد محمد أبو شهبة

(١) فصلت ٤١ : ٤٢ . (٢) النساء ٨٢

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

عالم جرئ يواجه الطغيان :

يحيى بن يعمر العدواني

للأستاذ محمد رجب البيومي

لو ازدهر التأليف فى القرن الأول من الهجرة كما ازدهر فيما تلاه من العصور لغنمت الثقافة الإسلامية خيراً كثيراً منه ، إذ أن هذا القرن الجليل قد حفل بعلماء أماثل من أجلة الصحابة ، وأهلة التابعين ، وإذا كنا نرى اليوم آراءهم العلمية متفرقة فى مطاوى الكتب فتقف على الرائع من اجتهادهم الحافل واستنباطهم الدقيق ، فماذا كنا نغنم من المعرفة لو عكف هؤلاء الأعلام على تدوين آرائهم فى كتب خاصة بهم كما فعل الخلف ممن تلاهم على مد العصور ، وإن سماء ساطعة يتألق فى أفقها التاسع كواكب وضاءة من أمثال على وابن عباس وابن عمر وزيد ومعاذ وابن مسعود من مشيخة الصحابة ، ومن طراز الزهرى وابن المسيب وابن جبير وعطاء والشعبى وربيعة وحماد والحسن من أعيان التابعين ، إن سماء تسطع بهذه الكواكب لجديرة أن تبعث الضوء فى ظلمات الأحقاب ، ودياجى العصور ، فتهدى إلى التى هى أحسن ...

لقد كان يحيى بن يعمر العدوانى أحد هؤلاء المتضلعين فى علوم الشريعة والعربية من أفاضل التابعين ، وقد شارك مشاركة مثمرة فى غرس بذور النحو ، مع أبى الأسود الدؤلى ، ثم إنه كان كاتباً لا يتلقى العلم مشافهة فحسب ، بل يدون ويسجل ، وقد عثر على بعض الصحف الأثرية مسطورة باسمه ، كما أنه المخترع الأول لنقط الحروف بعد أن خاف اللبس من الإهمال ، فابتكر الإعجام ، هذا إلى تضلع واسع فى اللغة إذ كان لا يسأل عن كلمة ينطق بها بادى مصحر إلا شرحها واستشهد عليها من محفوظه ، وقد دعاه هذا التتبع الواسع لمهجور الكلام فى بطون القبائل ، وأخذ البداة أن ينطق فى بعض حديثه بالغريب ، حتى اشتط بعض الكاتبين فعده بين المتعقرين ، وما أظن هذا صحيحا ، لأن المتعقر هو الذى يجمع الحوشى من هنا ومن هناك ليتشدق به عن عمد على سبيل المباهاة . أما العالم اللغوى المتمكن ، فلا بد أن يجىء على لسانه ما لا يتعمده من الغريب ، كما نرى اليوم بعض الاصطلاحات العلمية فى كتابات العلماء وأحاديثهم دون أن يقصدوا إلى تعالم شخصى ، إنما يتحكم فيهم تخصصهم الضليع تحكما لا يقوون على الانفلات منه ، وهكذا كان يحيى بن يعمر فيما نطق به من الغريب حتى اشتهر به وتنوقلت عنه طرائف وأفاكيه .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

روى أن يزيد بن المهلب كتب إلى الحجاج لقد لقينا العدو ففعلنا وفعلنا حتى اضطررناه إلى عرعرة الجبل ، فقال الحجاج : ما لابن المهلب وهذه العرعرة ؟ فقيل له إن يحيى ابن يعمر لديه ، فابتسم يقول : هو ذاك .

هذا بعض ما يشير إلى مكانته فى علوم العربية ، أما آراؤه العلمية فى الفقه والتفسير والحديث فأكثر من أن يلم بها ملم فى نطاق وجيز ، ولسنا هنا بصدد إيضاح مركزه العلمى وتحديده ، ولكننا نمهد لإيضاح عظمته النفسية ، وعزته الخلقية ، فقد كان من الشجاعة الأدبية فى الحق ، والجرأة الخلقية فى مواجهة الباطل بالمكان الأعلى ، والمنزل المرموق ، وقد شاء له القدر أن يبتلى بالحجاج أو يبتلى الحجاج به ، فواجهه وكابر ، وأدى دوره مرفوع الرأس عالى الجبين .

كان الحجاج طاغية العراق يدين بفلسفة القوة والإرهاب ، فليس من همه أن يستميل القلوب بمعسول القول وجميل الفعل ، إذ أن ظروف حياته ، وفتن بيئته ، وكوارث عصره قد جعلته جميعها لا يعبأ بمهادنة واستمالة ، وإنما يرى القمع الرادع سبيل الهدوء والاستقرار ، وقد اختاره عبد الملك ابن مروان ليردع ويقمع لا ليؤلف ويكتب ، ووجد بعد التجربة أن القمع الزاجر يدنى من مأربه ، ويرفع من مكانته لدى الخلافة ، فتمادى فيه تمادياً جائراً ، ووطد عزمه على أن يقوم السيف بواجب الطاعة والخضوع ، مهما امتلأت منه القلوب موجدة وغيظاً ، وإنه ليجلس على العراق عالما أن حاشيته الخاصة قبل رعيته يضيقون به ، ويسعون للتخلص من شره ، ثم هو لا يعبأ بما يعلم ، ما دام السيف فى يده والسجن من ورائه ، فليغضب الغاضبون كما يشاءون ، فالقوة الباغية تقيه كل سوء ، وقد تغلغل اعتقاده هذا فى نفسه ، حتى سرى إلى أسرته الخاصة ، فكان يجبر المرأة على الاقتران به ثم يعاملها معاملة من لا يستميل ودها ، أو يحرص على حنانها ، بل معاملة المتسلط المتحكم ، ولها أن تضيق فيما بينها وبين نفسها بزوجها ومنزلها وحياتهما فليس بمنجيها منه تبرم أو ضيق ، وإذا كان هذا سلوكه مع أحب الناس إليه فما ظنك بالجنيب البعيد ؟ ! هذا المتحكم القاهر قد ابتلى بيحيى ابن يعمر فيمن ابتلى بهم من خيار العلماء فاوهنوا لما أصابهم بل ناوشوه وقارعوه ، وانتصروا عليه بالمنطق المفحم فى يوم مجموع له الناس .

لقد رأى الحجاج أن الكوفة تهيم حباً بالحسين بن على ، وتجعل من ذكراه العاطرة المؤسية منحدراً للدمع ومصعداً للزفير ، وقد كافح وجاهد فى تبديد هذا الحب الوثيق فما استطاع ، وكان يعلم أن قرابة السبط الشهيد من رسول الله صلى الله عليه وسلم

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

تجمع عليه القلوب ، وتضعه بين الجوانح والشغاف ، ففكر وقدر . ثم رأى أن يعلن أن الحسين رضى الله عنه هو ابن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب وليس من ذرية محمد ابن عبد الله ، لأن انتسابه لفاطمة الزهراء لا يغير من الأمر شيئاً ، فالأب هو المعتبر فى النسب دون الأم على قول من قال :

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا
بنوهن أبناء الرجال الأباعد

وقد خطب فى ذلك وأطال ، وأخذ يتتبع مخالفيه سجناً وتشريداً ، ويرسل عيونه فى الكوفة ليأتوه بمعارض يصدر عن غير رأيه ـ فيجعل من عقابه مثلا رادعا لغيره ، وسرعان ما جاءه الخبر أن يحيى بن يعمر سئل عن الحسين وانتسابه لذرية رسول الله فأجاب فى المسجد الجامع بأنه من ذريته ، وزاد فحكم بأن الحجاج يحكم ولا يفتى فإذا أفتى فعن غير علم واطلاع .

لم يدهش الطاغية لما بلغه فهو يعرف فى يحيى جرأة وشجاعة ، وكثيراً ما اصطدم معه فى جدل مذهبى فكان صاحب الحجة الفاصلة ، والمنطق الراجح دون أن تعصف به رهبة أو يميل بثباته إيعاد ثم هو بعد يتشيع لآل البيت فى اعتدال فلا يوازن بين الصحابة ليضع عليا فوقهم ولكن ليعرف لكل مجاهد مكانه الصحيح ، مستعصما بالعروة الوثقى من الإيمان ، على أنه من وراء ذلك مسموع الكلمة ، محترم الرأى ، فإذا أفتى بما يعارض الحجاج ، فقد تمكن رأيه من قلوب الناس . وذهبت دعوى الطاغية فى الحسن والحسين أباديد . ماذا عسى أن يصنع به وقد اصطدم منه بداهية دهياء ؟ !! لا بد أن يتمكن من إسكاته عن طريق الادعاء والتعنت ، فيلزمه بنص واضح من القرآن يؤيد دعواه ، وليس فى القرآن الكريم فى منطق الحجاج ما يثبت ذلك ، فإذا أعلن يحيى عجزه عن الاستشهاد بالقرآن ، فقد قامت عليه الحجة فى رأى الجمهرة من العامة وللطاغية بعد ذلك أن يتطاول عليه مستكثرا بالسلطان والجبروت حتى يخذله خذلانا لا نجح من بعده !

هكذا قدر الحجاج وأراد ثم تعجل فحشد مجلساً خاصاً بأعوانه ووجهاء الكوفة ، ودعا معهم شيعة يحيى ومقدرى فضله من الزملاء والتلاميذ ، لينكشف أمامهم فى المعمعة فيضيع ما ينتسب إليه من علم وثبات ، ثم أرسل من يحضر يحيى ابن يعمر ليتجرع كأس الهزيمة فى انكسار ! .

وحانت الساعة المرتقبة ، فحضر الرجل ليرى حفلا غاصا بالجموع ، وقد تصدره الحجاج بن يوسف الثقفى كالح الوجه ، مقطب الجبين ، فامتدت العيون لترى العالم الوقور يتقدم فى اطمئنان ، فيلقى تحية الإسلام ، ثم يهم بالقعود فيصيح به الحجاج غاضبا :

لا تقعد يا يحيى ، وأوضح لنا رأيك فى صلة الحسين برسول الله ؟ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فيرد يحي فى كبرياء : الحسين من ذرية محمد صلى الله عليه وسلم وإن غضب الحجاج . فيتنمر الطاغية متحفزا و يصيح ألديك دليل من كتاب الله ؟ فيرد العالم الشجاع فى ثقة بالغة معنى الدليل من القرآن !!

فيضرب الحجاج كفا بكف ، ويقول متهكما : ما شاء الله : أفى القرآن أن الحسين من ذرية رسول الله ؟ ! لقد قرأته مئات المرات فما وجدت ما تقول يا رجل !! .

فيتطلع يحي إلى الحاضرين ثم يصيح بصوت مجاجل وإيمان وثاب : قال الله تعالى « وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ووهبنا له إسحق و يعقوب كلا هدينا ، ونوحا هدينا من قبل ، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزى المحسنين . وزكريا ويحي وعيسى وإلياس كل من الصالحين » ثم يلتفت إلى الجمهور قائلا : أيكون عيسى بن مريم من ذرية إبراهيم بنص القرآن ولا يكون الحسين من ذرية رسول الله ، وبينهما من القرابة الدانية أكثر مما بين عيسى وإبراهيم عليهما السلام ؟ ! ! .

جاء الدليل صاعقاً قاصماً ، وقد اعتصم الحجاج بذكائه ليسعفه برد مضلل فما استطاع و بات الفرحة والشماتة فى عيون الجالسين ، فزادت من ضيق الحجاج وانهياره ، ثم رأى أن يتراجع فى مأزق ضائق يضغط عليه بآصاره فابتسم فى تصنع ، وقال : اجلس يا يحي فقد فاتنى هذا الاستنباط .

ولم يشأ أن يصرف القوم بعد ما لحقه من خزى فاشل ، فرأى أن ينهض فيعترف بأن القرآن بحر لا ساحل له ، وأن العربية الفصيحة لا تسلم قيادها لغير من يحفظ كتاب الله ، وأنه ـ أى الحجاج ـ هو الذى أمر يحي بن يعمر أن يضع النقط على حروف المصحف ، لتسهل سبيل الحفظ الدقيق ، والاستظهار الصحيح ، ورأى أن يجامل يحي فالتفت إليه سائلا :

أتجدنى ألحن فى قولى يابن يعمر ؟

فابتسم يحي ابتسامة المتهكم ، وقال فى لهجة ذات مغزى خاص : الأمير أفصح من ذلك .

فاغتاظ الطاغية وصاح قائلا : عزمت عليك ، أتجدنى ألحن ؟

فقال يحي بملء فمه : نعم أيها الأمير .

فنظر منبهرا وقال : ألحن فى أى شىء ؟

فصاح يحي : فى كتاب الله ! ! فنهض الحجاج مرتبكا وهو يصيح : ذلك أسوأ لو كان ! ففى أى حرف لحنت ؟ .

فرد يحي فى تحد بين : لقد قرأت فى المسجد الجامع : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم ، وأزواجكم ، وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ترضونها أحب إليكم من الله » ! فضممت الباء وهى مفتوحة !

فتغير وجه الرجل ، وحدثته نفسه أن يهم بصاحبه ، ولكن انهياره النفسى أورثه ترددا لا عهد له به ، ثم إنه خشى أن يصيبه بسوء فيتناقل الناس فى الأمصار قصة حجاجه فى نسب الحسين ، وينتهى إلى قصر الخلافة ماكان من ثورة حين جادل فى أمر لا يقبل الجدل ، فمكن لخصوم بنى أمية من الانتصار وأضاف إلى حججهم الكبيرة حجة بالغة ، فرأى أن يستكين .

وشاء بعض الحاضرين أن يصرف الحديث إلى موضوع آخر ، فأخذ يسأل الحجاج عن مدينة واسط التى شيدها باذلا جهده الجاهد فى التعمير والتشمير ، وكأن الطاغية قد ارتاح إلى هذا الانتقال المنقذ . فأخذ يسهب فى تقدير كفايته الشخصية ، وبين حسن اختياره للمكان ، وسخاءه فى الإنفاق والتشييد ، ويحصى عداد من قاموا بالبناء من الفعلة والعمال ، وما استخدم من الماشية والحيوان ، وما أنفق من الذهب والفضة ، ثم رأى أن يصانع يحيى بن يعمر ليظهر أمام الناس أن هزيمته لم تنل من نفسه ، وأن الأمر لا يخرج عن مجرد رأى يخطئ ويصيب ، فربت على كتفه برفق ، ثم قال : لم تذكر لنا رأيك فى مدينة واسط يا يحيى .

فسكت الرجل ولم يرد ، وتوجهت العيون إليه ، فزادت من حرج الحجاج وتورطه . فأعاد السؤال مغيظا ، وأخذ يتطلع ، فقال يحيى فى غير اكتراث : أيها الأمير ماذا أقول عن واسط ، وقد شيدتها من غير مالك وسيسكنها غير أهلك ! !

فلم يعد فى قوس الصبر لدى الطاغية من منزع ، وتلهب الجمر فى عينيه يقدح بالشرر ، ثم صاح فى انفعال ، ما حملك على هذا ؟

فقال يحيى فى اعتداد : ما أخذ الله تعالى على العلماء فى علمهم ألا يكتموا الناس حديثا.

فأطرق الحجاج منخذلا ، وساد صمت حائر غمر المكان لحظات ، ورأى الطاغية أن يقوم بعمل أو قول ينقذ خشيته فصاح بيحيى : أيها الرجل ، لا تساكنى ببلد أنا فيه ! ! فاذهب منفياً إلى خراسان ! ثم نهض من مكانه متضايقا ، فتفرق المجتمعون . كل إلى مثواه .

* * *

قال الراوى : وذهب يحيى بن يعمر إلى خراسان ، فوجد صيته الطائر قد سبقه إلى هناك ، ورأى الناس يتحدثون عن مجابهته الحجاج معجبين مقدرين ، ودنا خراسانى فسأله فى تعجب :

ألم تخش سيف الحجاج ؟

فرد فى إيمان الواثق : لقد ملأنى خشية الله ، فلم تدع مجالا لخشية إنسان ؟

محمد رجب البيومى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

المسئولية الفردية والمسئولية الجماعية في نظر الإسلام

للدكتور عبد العظيم شرف الدين

لا يستقيم أمر هذه الحياة إلا إذا عرف كل إنسان واجبه، وحرص على تنفيذه حرصه على نيل ما له من حقوق، وتفانى فى أداء واجبه، تفانيا ملك عليه إحساسه وشعوره، فلم يدخر وسعا فى أداء الواجب والنهوض بأعبائه، يدفعه إلى هذا رغبة صادقة، وضمير حى يقظ يحاسبه على ما يأتى وما يدع من الأمور؛ لهذا قرر الإسلام مبدأ المسئولية الفردية، فكل إنسان فى نظر الإسلام - محاسب على ما عمل، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، لا فرق فى هذا بين أمر الدنيا، وأمر الآخرة.

فلا ينفع المرء فى دنياه إلا ما قدمت يداه، ولا يشفع له إلا عمله الصالح، فالكل أمام القانون سواء، ولأمر ما لم يقبل الرسول عليه السلام شفاعة أسامة قائلا: «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، فو الذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها».

وعلى هذا السنن القويم سار الخلفاء الراشدون؛ فقد أعلن أبو بكر يوم أن تولى أمر هذه الأمة: «الضعيف عندى قوى حتى آخذ الحق له، والقوى عندى ضعيف حتى آخذ الحق منه».

وكذلك أمر الآخرة لا يفترق عن أمر الدنيا فى هذا المبدأ، فكل امرئ رهن بما اكتسب «ولا تزر وازرة وزر أخرى، وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء، ولو كان ذا قربى»، ولقد حمل الرسول عشيرته الأقربين المسئولية، وأبان لهم أنه لن يغنى عنهم من الله شيئا: عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله: «وأنذر عشيرتك الأقربين» قال: «يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم، لا أغنى عنكم من الله شيئا، يا بنى عبد مناف، لا أغنى عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغنى عنك من الله شيئا، ويا صفية عمة رسول الله، لا أغنى عنك من الله شيئا، ويا فاطمة

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بنت محمد ، سليني ما شئت من مالي ، لا أغني عنك من الله شيئا » .

وإلى جانب هذه المسئولية الفردية هناك مسئولية جماعية لا تقل خطراً - إن لم تزد - عن المسئولية الفردية ، فعلى جماعة المسلمين أن تأخذ على يد الظالم ، وأن تحارب الجريمة قبل أن يستفحل خطرها ، ويشتد أمرها ، وإلا كانت مسئولة عن هذا التهاون ، واعتبرت مسئولة عما ينتاب الجماعة من تدهور ، وما يعتريها من انهيار ، وقد حدد القرآن الكريم هذه المسئولية الجماعية بقوله : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » ، وقد عاقب الله من سبق من الأمم بالهلاك والدمار لأنهم تستروا على الجرائم التي كان يرتكبها أشرافهم ، ولم يكبحوا جماحهم : (إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه) .

وقد ضرب الرسول عليه السلام مثلا يحدد العلاقة بين القائمين على الحق المهيمنين عليه ، والموجهين لمجتمعاتهم توجها سليما ، وبين هؤلاء الذين يقعون في الخطيئة ، فإن حال الفريق الأول دون وقوع الطائفة الثانية في الجريمة نجا الجميع ، وإن تركوهم وما يريدون كانوا متعاونين معهم على وقوع الجريمة فهلكوا جميعا : روى النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (مثل القائم على حدود الله ، والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ، ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجت و نجوا جميعا) .

فالرسول عليه السلام شبه جماعة المسلمين بجماعة اقتسموا سفينة ، فأخذ بعضهم أسفلها ، وبعضهم أعلاها ، وكان الذين بأسفلها إذا أرادوا ماء مروا على الذين بأعلاها ، فربما تأذوا بهم ، فهم الذين بأسفلها أن يخرقوا في نصيبهم خرقا ليأخذوا منه الماء ، فإن تركهم الذين بأعلاها وما يريدون كان مصيرهم جميعا الهلاك ، وإن وقفوا في سبيلهم نجا الجميع .

وإنما يهلك هؤلاء الذين لم يباشروا الجريمة لأنهم قصروا في أداء واجبهم ، وتركوا الجريمة تبيض وتفرخ حتى شب فيها الصغير ، وهرم عليها الكبير ، ولم يصحوا من سباتهم العميق إلا بعد فوات الأوان ، فجنوا ثمرة هذا التراخي والإهمال ندما وحسرة ، ومتى يجدي الندم ؟ ! ومتى تنفع الحسرات ؟ !

وكذلك إقامة الحدود يترتب عليها سلامة المجتمع ، والتهاون في أمرها ينشأ عنه الهلاك والدمار ، وإن الكوارث - عند ما تحل بالأمم ، وتنتاب الشعوب - لا تتخير من تصيبه ، وإنما هي عمياء لا تبصر . وكم من كوارث حلت بالأمم ، فأكلت الأخضر واليابس ، وقضت على الصغير والكبير

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

لهذا ندب القرآن الكريم إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر » . وإن هؤلاء الداعين إلى الخير ، والناهين عن المنكر فى الأمة بمثابة صمام الأمان ، وهم الرقباء والحراس الذين يعبئون كل القوى لمحاربة تيارات الإلحاد والزندقة ، ويدعون الأغنياء إلى الإسهام فى الأعمال الإنشائية البناءة التى تساير ركب الإنسانية الصاعد نحو المجد والتحرر والعزة والكرامة . لهذا كانت مسئوليتهم أتم لبصرهم بالأمور وعواقبها ، ولأمر ما ارتبط مصير الأمم بتاريخ قادتها وزعمائها ، وإن القائد المظفر هو الذى يرسم لأمته طريق النجاح ، ويقودها من نصر إلى نصر ، ويحمل الناس على محبته واحترامه وتقديره .

وقد طلب الإسلام من جماعة المسلمين أن تعد طائفة من أبنائها كى يقوموا فى المستقبل بمنصب التوجيه السليم : يرسمون للأمة سياستها ، ويحددون لها أهدافها ، ويبصرونها بعواقب الأمور ، فلا تخبط فى سياستها خبط عشواء ، وإنما تسير فى ضوء سياسة مرسومة ، وتتجه نحو هدف معين ، وترسم لنفسها خطة بعيدة المدى ، تتسم بعمق الغور ، وبعد النظر ، فلا تتورط فى سياستها باتفاقات دولية ، أو أحلاف استعمارية قد تجر عليها الخراب ، وتلزمها التزامات تضحى من أجلها بأعز أبنائها ، تقدمهم وقوداً لحرب ، لا ناقة لها فيها ولا جمل ، ولا يد لها فيها ، اللهم إلا اتفاق مشئوم ناشئ عن خطأ فهم ، وقصر نظر : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » .

هذا ، وقد يبدو لبعض قصار النظر أن مبدأ المسئولية الجماعية ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يتعارض مع قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » ؛ وذلك لأن هذه الآية تعنى المؤمنين من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتطالبهم أن يعنوا بأمورهم الخاصة ، ولن يضيرهم ضلال من ضل ما داموا هم قد اهتدوا ، وآمنوا بالله ولكنى أقول رداً على هؤلاء : إن الدافع إلى هذا الفهم القاصر هو تفسير الاهتداء بمجرد الإيمان ، دون أن يدخل فى مفهومه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ ولكن سياق الآية يدل على أن الاهتداء يراد به الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ وذلك لأن الآية تخاطب المؤمنين ، فأى فائدة فى تقييد الحكم بالإيمان مع أن المفروض أنهم مؤمنون ، وإنما تظهر الفائدة فى تقييد الحكم بأمر آخر أكثر من مجرد الإيمان ، وهو ما يكمل به الإيمان من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وغير هذا من صفات المؤمنين الذين كمل إيمانهم ، وصدقت عزائمهم ، وبناء على هذا نقول : إن الآية تهيب بالمؤمنين

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أن يتعهدوا أنفسهم بالإصلاح بأداء ما أمر الله به ، واجتناب ما نهى عنه ، وأن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر . ويكملوا إيمانهم بغير هذا من الصفات التي تجلو القلوب ، وتسمو بالأرواح . ولا يضيرهم بعد هذا ما يصادفونه من إصرار من يدعونهم على الضلال ما داموا قد اهتدوا ، وأدوا ما يتطلبه الاهتداء من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فالآية إذا لا تعني الناس من المسئولية الجماعية كما قد يتبادر لقصار النظر لأول وهلة .

وليس مبدأ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وبمعنى آخر ليس مبدأ المسئولية الجماعية مبدأ خاصاً بأمة دون أخرى ، فهو مبدأ فطري تقتضيه القوانين الاجتماعية التي تنظم علاقة الناس بعضهم مع بعض ، ويستلزمه النهوض بالجماعة ، ولهذا كان من المبادئ الإلهية التي طالب الله بها الأمم السابقين ، ويوم أن تخلوا عنه وقع بهم العذاب ، عن علي ـ رضي الله عنه ـ عن النبي صلى الله عليه وسلم : (إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل ـ كان الرجل يلقى الرجل ، فيقول : يا هذا ، اتق الله ، ودع ما تصنع ، فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ثم قال : « لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » ، ثم قال : « كلا ، والله لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطراً (١) ، ولتقصرنه على الحق قصرا ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ، ثم ليلعنكم كما لعنهم) وإذ إنما الشعور بالمسئولية الفردية في نفوس الأفراد ، وشعرت الجماعة بما عليها من مسئوليات جماعية مشتركة توفر للمجتمع ما يصبو إليه من رقي وأمن وسعادة في حاضره ومستقبله ، وأصبح جديرا بالبقاء ، واستطاع أن يقود غيره من المجتمعات الإنسانية نحو المثل العليا والمبادئ القويمة التي يعيش في ظلها أفراده ، ويتفانون في سبيلها .

فعلى رب الأسرة أن ينشئ أبناءه على حب الفضيلة ، والتفاني في سبيل الواجب ، وينمي فيهم الشعور بما عليهم من مسئوليات فردية كانت أم جماعية ، فإنما تحيا الأمم ، وتنهض الشعوب بكفاح أبنائها المخلصين الذين عرفوا واجبهم ، فقاموا به عن طواعية وطيب خاطر ، يحدوهم الأمل ، ويدفعهم الرجاء .

وعلينا أن نستفيد من التجارب التي مرت وتمر بالأمم ، فإن فيها دروساً وعبراً نستفيد منها في حاضرنا لنعمل فيه لمستقبلنا ، والله الموفق

دكتور عبد العظيم شرف الدين

(١) يقال : أطرا العود إذا عطفه وثناه ، فالمعنى : لتعطفنه على الحق عطفا ، ولتحملنه عليه حملا .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الأزهر والتطور

للأستاذ محمود الشرقاوى

١ — قالت جريدة التيمس ، وهى تعلق على قانون تطوير الأزهر : إن دخول الفتاة العربية الأزهر أمر (يكاد ألا يتصوره العقل) .

وهذا التعليق من كبرى الصحف الانجليزية دليل على أمرين : أولهما كثافة التقاليد التى كانت ، وما يزال شىء منها ، تحيط بالأزهر والفكر الدينى ومحاولة إصلاح ذلك. ثانيهما قوة تلك اليد ، يد الثورة ، التى شهرت سيفها الصارم لكسر هذه التقاليد والمعوقات، بعد طول المعاناة وكثرة المحاولات .

ونحن حين نذكر ما لقيه قاسم أمين ، فى حياته وبعد موته ، من الصد والاتهام بسبب دعوته المتواضعة لتعليم المرأة وكشف وجهها ، وما لقيه الإمام الشيخ محمد عبده من مثل ذلك بسبب دعوته المتواضعة أيضاً لتصحيح الأسلوب وتحرير الفهم وتقرير شىء من الحرية للفكر الدينى ، حين نذكر هذا وذاك ندرك صدق هذا التعليق الذى علقت به التيمس على قانون تطوير الأزهر .

ونحن الذين قضينا ثلاثين سنة متوالية ندعو ونجهر بمثل ذلك ، ونلقى من الخصومات والشر والتهمة ما نلقى، ندرك قوة هذه اليد الباطشة ، يد الثورة ، التى تستطيع هى وحدها ، أن تكسر هذه التقاليد وتخرج بالأزهر والفكر الدينى من هذه المعوقات . وهكذا صدر فى السنة الماضية قانون (تطوير الأزهر) الذى بدأ تطبيقه فى السنة الدراسية القائمة .

وإذا أردنا أن ندرك الأثر السريع الحاسم لهذه الثورة وقانونها لتطوير الأزهر نذكر أن الحاصلين على الشهادة الثانوية من الأزهر يقبلون الآن فى معهد التمثيل والفنون الجميلة و (الكونسر فتوار) ، بعد أن أشرنا إلى إنشاء كلية البنات ومعهد الفتيات ، كما نذكر ما نشرته صحف القاهرة من أن (فاطيما) أى (فاطمة) جاءت من ليبريا لتتعلم فى الأزهر، وأنها تقضى وقتها — كما قالت الصحف — فى تعلم اللغة العربية والرقص والغناء ، ويقبلها الأزهر ضمن طالباته لتتعلم فيه الدين واللغة .

٢ — ولكى ندرك مغزى التطور وأهدافه يجب أن نحيط أولا بالحال التى كان عليها الفكر الدينى وكانت عليها الحياة التعليمية فى الأزهر، وهى حال ، أو هما حالان ، ما يزال كثير من مظهرهما وجوهرهما موجوداً فى أذهان كثير من المتصلين بهذا الفكر وهذا المعهد .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وموجوداً أيضاً فى عواطفهم وخواطرهم وآمالهم، كما يوجد أيضاً فى واقع الفكر الدينى وواقع الحياة التعليمية لكثير من المعاهد الدينية فى بلادنا العربية والإسلامية، وهى بيئات ومعاهد نطلب لها ما نطلب لأنفسنا من الصلاح والخير.

كان الفكر الدينى قائماً على التسليم والمتابعة، وكانت الحياة التعليمية فى الأزهر قائمة على التلقين والتلقى والحفظ. كانت هذه الحياة، متابعة منها لعصر خاص من عصور التفكير العلمى، تصف العالم (بالحافظ) لأنه يحفظ وينقل. بدلا من وصفه (بالباحث) لأنه يفهم ويبحث ويناقش ويتصدى.

كانت حياة تتناول «طائفة من الكتب والآراء وضعت فى العصر المملوكى، أو فى العصور التى كانت فيها الثقافة الإسلامية ضحلة، ضعيفة، سقيمة الأسلوب، ضيقة الأفق، لا تخرج عالما مدركا لروح عصره ولا منسجما مع البيئة والناس، لأنها تتناول «جزئيات» من العلم على طريقة خاصة، وقد أبعد تطور الحياة وسير الزمن بين هذه الجزئيات وبين واقع الناس حتى أصبحت لا تلبى شيئا من هذا الواقع [1].

والأزهريون، مثلى، الذين كابدوا هذه الحياة ودرسوا كتبها يعرفون جيدا ما فيها من الأسلوب والفكرة على السواء، ولكنى أنقل لغيرهم مثلا واحدا من كتاب درسناه فى الأزهر، وهذا المثل هو «... أو ثوب موصوف بصفات السلم فهو بيع للدعاة من المدعى لغريمه أو إجارة لها بغيرها منه لغريمه أو لغيرها بها من غريمه له» [1].

يقول بعض القوم إن التمرس على هذا الأسلوب ومعالجة هذه المشكلات والمعميات مما يكسب الذهن صقلا وبصرا وحسن تدقيق. ولكن العناء فى فهمها عناء كبير، وهو عناء ينتهى إلى فهم الصياغة والأسلوب والعناية بهما دون العناية بالجوهر والموضوع.

أما أن الزمن والناس قد سبقا الفكر الدينى وثقافة الأزهر التقليدية، فهذا أمر بين لا يحتاج لدليل، وهذا القانون لتطوير الأزهر، الذى نتحدث عنه فى هذا المقال، هو الدليل الأول على السبق من جانب والتخلف من جانب آخر.

٣ — والحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية لكل أمة، ونوع الحكم فيها، بين ذلك كله وبين نواحى الحياة الأخرى، كالحياة العقلية والأدبية والدينية، من الروابط ما يجعل كل واحدة منها مرتبطة بالأخرى أكمل ارتباط ومتأثرة بها أتم التأثر.

والحوادث التى تواجه أمة من الأمم، كالحروب والانتصارات والهزائم، لابد أن

(١) مقالنا فى جريدة الأهرام: ٢٠ يناير ١٩٥٤.

(١) حاشية البجيرمى على شرح المنهج لى فقه الإمام الشافعى، الجزء ٣ ص ٤ باب الصلح - الأميرية ١٣٠٩.

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

يقع منها كلها ظل على الحياة العقلية والإنتاج الفكرى والثقافى - بأنواعه جميعها - لهذه الأمة ، بحيث تكون عاملا كبير الأثر فى ذلك كله [١] ، فكيف « بالثورة » وما يكون لها من أثر حاسم قاطع ... ؟

وقد جرت من قبل محاولات ، بعضها متردد وبعضها كان سابقا لزمنه ، حسكم عليها وزير الأوقاف والأزهر بقوله : « إن المحاولات السابقة لإصلاح الأزهر لم تتجاوز الاحتفاظ بأسلوب معين فى البحث والدراسة والتحصيل وبكتب معينة ذات طابع خاص فى الجدل الفكرى . وكانت الكتب الأزهرية لذلك صوراً مكررة لا فرق بينها إلا من حيث التطويل والاختصار [٢] » .

وهذا الحكم ، كما هو واضح ، يتناول المحاولات السابقة لإصلاح الأزهر كما يتناول وصف الكتب الأزهرية القديمة وصف الحق الذى ذكرنا من قبل .

ولكن هنالك طائفة أخرى من كتبنا هذه - لم يكن يدرسها الأزهر ولا يعرفها من أهله إلا الأقلون - وهى النبع الأصيل لثقافتنا الإسلامية والعربية . والحديث عن هذه الكتب أوثر أن أتركه لمكانه من هذا المقال .

وقد خرجنا - ونحمد الله - من مؤثرات هذه العصور التى وقفت عندها ثقافة الأزهر وجمد بسببها الفكر الدينى ، فكان من الحتم أن يخرج منها أيضا هذا الفكر وهذه الثقافة إلى نور جديد .

خرجنا من نظم الحكم وحدود العقل العثمانى والمملوكى ومن سطوة الحياة فيهما ، فكان من الحتم أن يخرج من هذه النظم وهذه الحدود التفكير الدينى ورجاله وأهله .

وأعتقد أن هذا هو ما قصده المشترعون الذين وضعوا قانون تطوير الأزهر ، حين قالوا فى مذكرته التفسيرية : « . ويعمل - أى الأزهر - على تجديد الثقافة الإسلامية وتجريدها من الفضول والشوائب وتجليتها فى جوهرها الأصيل الخالص وتوسيع نطاق العلم بها لكل مستوى وفى كل بيئة ، وبيان الرأى فيما يجد من مشكلات مذهبية أو اجتماعية تتصل بالعقيدة ، وحمل تبعة الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

٤ — ولئن كنا دعونا ، وندعو على الدوام ، لتجديد الفكر الدينى والخروج به عن القيود والسدود الذى جذبته وتجذبه إلى تفكير القرون الوسطى من عصر المماليك والعثمانيين ، فنحن ندعو إلى إبقاء الصالح الطيب من تقاليد الأزهر القديم ، بل إلى تجديد ما قد يوشك أن يندرس منها .

---

(١) مقالنا فى جريدة الأهرام : ١ مارس ١٩٥٠ .

(٢) حديث السيد الوزير الدكتور محمد البهى : جريدة الأهرام : أول أكتوبر ١٩٦٢ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

كان الأزهر القديم « جامعا » ، ولكنه لا يخلو من معانٍ كثيرة تمثل « الحياة الجامعية » وتوحي بها وتدل عليها . بل هي تمثل خيرما فى هذه الحياة الجامعية الصحيحة : كان الطالب ـ ومن قبله العالم ـ يجلس كل منهما إلى درسه ليس لأحد منهما غاية سوى العلم، والاستزادة منه والإفادة به و « التعبد » بملازمته .

كانت غاية الشرف عندهم أن يضع العالم والمتعلم فوق توقيعه تشريفا وتكريما لاسمه وشخصه لقب : « خادم العلم الشريف » . وكان طالب العلم ، شيخا وتلميذا ، يلازم الأزهر باحثا دارساً الشهور والسنين لا يبرحه ولا يشغله عنه شأن ولا أمر ولا سعى ولا معاش ، فهو له مدرسة ومسكن ومطعم ومراح ومخدع . وكانت الدولة تكفيهم مؤنة الحياة والعيش ، والناس تعطيهم صدارة المجتمع وحق التكريم والسيادة والتعظيم ، وطلاب الآخرة يكفونهم، بما يقفون عليهم، مؤنة التفكير فى الدنيا .

وكانت العلائق بين الشيوخ وطلابهم أصفى ما تكون نقاء وطهارة ومودة ، وأقوى ما تكون الوشائج من المحبة والبر والتعاطف والتوقير .

فهل نطمع فى أن تبقى الأزهر ـ أو تعود ـ تقاليده الصالحة تلك ... ؟ وهل نستطيع أن نفهم ذلك مما قاله قانون « التطوير » الجديد : (... وتعمل على تزويد العالم الإسلامى والوطن العربى بالعلماء العاملين الذين يجمعون إلى الإيمان بالله . والثقة بالنفس وقوة الروح والتفقه فى العقيدة والشريعة ولغة القرآن ، كفاية علمية وعملية ومهنية لتأكيد الصلة بين الدين والحياة ، والربط بين العقيدة والسلوك) .

٥ — جعلت عنوان مقالى هذا : « الأزهر والتطور » لأنى طالما دعوت وأردت للأزهر أن يتطور . ثم جاء قانون « التطوير » وكل جديد لا بد أن يثير شيئاً قليلا أو كثيراً من اختلاف وجهات النظر ، ومن الخير أن يكون ذلك ، وأن يقع فى « تطوير الأزهر » أيضا . فبيننا ـ ولا بأس فى ذلك بل لا بد منه ـ المؤمنون بالقديم والداعون والمؤمنون بالجديد . ولكنا نريد من الذى يعتقد القديم ويؤمن به ، على قدمه ، أن يقف أمام رأيه مدافعاً مناضلاً ، ولا يتهم . ونريد من الذى يعتنق الجديد ويؤمن بالتطور أن يقف أمام رأيه مدافعاً مناضلاً ، ولا يحرض .

نريد الإيمان الثابت الراسخ المطمئن ، ولا نريد المتابعة المسارعة المهرولة المخذولة. نريد اليقين لا التلقين ، ذلك هو الإخلاص الأزهر وتلك هى أمانة الدين ؟

(البقية فى العدد القادم)

محمود الشرقاوى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

من زعماء المسلمين بالهند :

مولانا محمد حفظ الرحمن

للأستاذ عبد المنعم النمر

كان آخر لقاء لى معه فى دار جمعية العلماء بدهلى وهو يحمل معه ملفاً ويتأهب للذهاب إلى البرلمان ، وسألته إلى أين وصلت قضية اللغة الأوردية وتقريرها لغة رسمية ثانية ؟ فقال: إننى ذاهب الآن إلى اجتماع لنكمل البحث فى هذا الموضوع، وودعته وأنا أتمنى له النجاح فى مهمته وفى كل المهام العظيمة التى يحمله المسلمون عبئها .

ودعته ولم تغب عنى صورته بجسمه الذى يغالب المرض وتبدو عليه ملامح الإرهاق من كثرة العمل ، وبشيبته المرسلة وقامته المنصوبة تتحدى المرض والضعف والإرهاق، وكنت كلما تذكرته أشفقت عليه وأشفقت على مصالح المسلمين التى يتحملها وينوء بحملها ولا يرحم نفسه فى سبيل العمل على تحقيقها بعد أن تجمعت عليه آمال المسلمين ، واتجهت أنظارهم إليه بعد وفاة شيخ الإسلام مولانا حسين أحمد مدنى . ومولانا أبى الكلام أزاد وكان ركناً عظيما للمسلمين فى الوزارة الهندية .

ولد مولانا حفظ الرحمن سنة ١٩٠١ م . فى بلدة (سهورا) بشمال الهند وتلقى علومه فى دار العلوم (ديوبند) أكبر مدرسة دينية عربية فى الهند وتخرج فيها . . ونادى الوطن ليشترك مع المجاهدين من أجل تحريره فلبى نداءه وتحمل نصيبه فى عبء الجهاد حتى وصل إلى الصفوف الأولى للمجاهدين حيث صار عضواً لحزب المؤتمر الهندى سنة ١٩٢٦ وسيق إلى السجون عدة مرات كان آخرها أثناء الحرب العالمية الثانية مع مولانا أزاد ونهرو وغيرهما من زعماء الهند الذين زجت بهم حكومة الهند فى السجن من سنة ١٩٤٢ إلى سنة ١٩٤٤ م حيث أطلق سراحهم وبدأ الانجليز يفاوضونهم للجلاء عن الهند .

وكان مولانا حفظ الرحمن يشغل منصب السكرتير العام لجمعية علماء الهند، ويمثل العنصر الحيوى المتحرك فى كل نشاط لها . . عرفه أهل الهند جميعاً — المسلمون والهندوس والسيخ — بجهاده وإخلاصه لقضية حرية الهند ووحدتها فأجله الجميع وهابوه ، حتى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

كان يلقى بنفسه وسط المعارك الدامية التى كان يشنها الهندوس والسيخ على المسلمين عند التقسيم ويعملون فيهم التقتيل والتذبيح فلا يجرؤ هندوسى أو سيخى على أن يمسه بسوء . . ويكون لمواقفه الجريئة هذه أثرها فى تخفيف حدة هـذه الاعتداءات المتوالية على المسلمين .

كان رأيه — كرأى جمعية علماء الهند — ضد التقسيم وضد قيام باكستان كان يرى أن تبقى الهند كلها دولة واحدة تضم المسلمين والهندوس وغيرهما ويعمل مع ذلك على تقرير حقوق المسلمين كاملة فى الوطن الهندى الكبير ، فلما تم التقسيم عمل على أن يبقى المسلمون فى الهنـد فى دورهم ومتاجرهم ومزارعهم ومناصبهم فلا يتركوها إلى باكستان حتى يظل المسلمون عدداً كبيراً وأقلية كبيرة لها صوتها وحتى يظلوا حراسا لمساجدهم ومدارسهم وآثارهم الإسلامية التى تملأ الهند وتعد مثار فخر لها بين العالمين . . وحتى يحولوا دون تحويل هذه المساجد الفخمة إلى معابد هندوسية ، واندثار هذه المدارس الدينية وزوال الثقافة الإسلامية من ربوع الهـند .

انتخب عضواً فى البرلمان المركزى منذ إنشائه عن دائرة « مراد أباد » وكان حزب المؤتمر يترك له دائرته فلا يرشح فيها أحدا تقديرا لخدماته ومواقفه الوطنية ، ومع ذلك كان ينازله بعض الهندوس والمسلمين فى دائرته فيتغلب عليهم بآلاف الأصوات بالرغم من أن أكثرية الدائرة من الهندوس ...

كان يمتاز بعقلية إسلامية متنورة متحررة من التقليد والحرص على القديم لأنه قديم كما يفعل كثير من علماء الهند . . حيثما وصلت إلى دار العلوم - ديوبند . . ووقفت على مناهجها وطرق التدريس فيها أحسست أن فيها نقصا كبيراً وتحتاج إلى تعديل وإدخال بعض المواد الجديدة التى لاغنى عنها لطالب العلم فى هـذا الزمان . . وبدأت أتحسس آراء القائمين على الدار والمدرسين فيها فوجدت فى الكثير منهم جمودا على هذا المنهج الذى ظلت الدار عليه نحو ستين سنة وأكثر ، وتقتدى بها كل المدارس الدينية فى الهند فالجأت إلى مولانا حفظ الرحمن وكان عضوا بارزاً فى المجلس الأعلى للدار وحدثته فى هذا الأمر ، فوجدت عنده تجاوبا كاملا وكان هو والأستاذ أبو الحسن الندوى عضو المجلس كذلك . . يقودان معى حركة التجديد فى البرامج وإن شئت فقل معركة التجديد ؛ لأنها كانت معركة فعلا بين القديم والجديد . حتى قال لى الأستاذ أبو الحسن إذا نجحت فى هذه الحركة فسيكون لها أثرها القوى فى اتجاه التعليم فى المدارس الدينية فى كل أنحاء الهند وسيكون

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

تطورا لم تشهده هـــذه المدارس منذ ستين أو سبعين عاماً واستطعنا بعد جهاد سنتين أن نظفر بالتعديل ، وطلبت الدار الكتب الخاصة بالمواد الجديدة من الأزهر والمؤتمر الإسلامى والأسف لم تصل لها هذه الكتب للآن . . .

كان خطيبا من الطراز الأول باللغة الأوردية ، يشترك فى كل اجتماع أو حفل إسلامى فى أى بلد من بلاد الهند على سعتها ولذلك لم تكن دهلى ـ مقره ـ تحظى بوجوده كثيرا فيها . كان برغم تقدم سنه يطغى عليه الحماس لمصالح المسلمين وقضاياهم داخل الهند وخارجها . . أقامت جمعية العلماء مؤتمرها الإسلامى السنوى فى أكتوبر سنة ١٩٥٦ فى مدينة « سورت » شمالى بومباى وكنت أمثل الأزهر فى هذا الاجتماع وحضره الأستاذ أمين الخولى والدكتور محمد عبد الله العربى مندوبين عن المؤتمر الإسلامى . . وأثناء إلقاء كلمتى أخذ الحماس جموع الحاضرين وأخذوا يهتفون من كل ناحية لمصر والهند وناصر ونهرو فتقدم هو من الميكرفون فى حماس ظاهر وقاد موجة الهتاف وحينما ألقى كلمته كانت تفيض بالحماس لمصر ولتأميم القناة وتنفجر بالنقمة على المستعمرين ، وبعد أن وقع العدوان على مصر تحدثت معه فيما يحسن بمسلمى الهند أن يفعلوه تجاه الضحايا من إخوانهم فى بور سعيد ، فاستجاب سريعا وعمل على أن يصدر مدير الجمعية وشيخ الإسلام مولانا حسين مدنى نداء لأهل الهند مسلمين وغيرهم يهيب بهم أن يناصروا إخوانهم فى مصر ، ويمدوا لهم يد المعونة فى محنتهم . وقامت فروع الجمعية فى كل مكان بجمع التبرعات التى تولى السفير المصرى الدكتور مصطفى كامل فى ذلك الوقت من إرسالها للقاهرة ...

وكنت كلما ذهبت لدار جمعية العلماء ووجدت مولانا حفظ الرحمن وجدت حوله كثيرا من أصحاب المصالح من المسلمين والهندوس يطلبون منه أن يتوسط لقضاء مصالحهم ورعايتها وكان لا يرد أحدا بل يمنح الجميع من بره وعطفه ومساعدته ما يستطيع بل وفوق ما يستطيع جسمه الضعيف

وبالرغم من كل هذه المشاغل التى كانت تحيط به فإنه لم ينس واجبه العلمى الدينى إذ كان يقتطع من وقته ما يفرغ فيه للكتب ويعكف على التأليف فأخرج عدة مؤلفات قيمة باللغة الأوردية منها « قصص القرآن » ، « الأخلاق وفلسفتها » ، « النظام الاقتصادى فى الإسلام » . وكان مع ثقافته الدينية متقنا كذلك للغة الانجليزية على غير عادة العلماء فى الهند .

لقد كان أمة فى جهاده وعلمه وبره بدينه

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ووطنه وإخوانه ، حتى خلع عليه مواطنوه لقب « مجاهد الملة » .

ذلكم هو مولانا محمد حفظ الرحمن الذى كتب إلى صديق الأستاذ محيي الدين الألوائى ينعاه إلى وإلى المسلمين فى كلمة مؤثرة تفيض تقديرا ووفاء للراحل الكريم الذى ظل يغالب المرض سنين ، وسافر إلى أمريكا فى محاولة للقضاء عليه ، وعاد وقلوب الذين عرفوه وقدروه تحيط به وترجو له تمام الشفاء ليظل فى مكانه حارسا أمينا وخادما مخلصا للإسلام والمسلمين ، ولكنه كان على موعد مع قضاء الله الذى وافاه فى الثانى من ربيع الأول سنة ١٣٨٢ هـ - الثانى من أغسطس سنة ١٩٦٢ م ، وبكته الملايين الذين عرفوه وقدروا له إخلاصه وجهاده الطويل فى سبيل دينه ووطنه .

ومشى خلف جنازته أكثر من خمسين ألفا ، فى مقدمتهم نهرو وجميع رجال الدولة جاءوا من جميع أنحاء الهند ليودعوا الرجل الذى ظل طول حياته رمز الإخلاص والجهاد ويوارونه التراب بجانب ضريح المغفور له شيخ الإسلام مولانا شاه ولى الله الدهلوى صاحب الكتب والمؤلفات العديدة التى نعرف منها هنا « حجة الله البالغة » .

ولقد رثاه « نهرو » فى كلمات مؤثرة وكان قد زاره الزيارة الأخيرة له قبيل وفاته بساعات قليلة . . وقال عنه « إنه كان زعيما ممتازا من زعماء الحركة الوطنية الذين أخلصوا لبلادهم ولحريتها إخلاصا لا يرقى إليه شك » وقال رئيس وزراء مقاطعة « أوتربرديش » بالهند : إن الفقيد قدم لوطنه ومواطنيه أعمالا مجيدة ، ولا سيما فى سبيل الوحدة الوطنية ، وسيظل التاريخ والوطن يحفظها له بالفضل والشكر .

إننى هنا أتصور المسلمين هناك يتلفتون حولهم ليجدوا من يملأ فراغ هذا الراحل العظيم فيطول تلفتهم ، وعيونهم تفيض من الدمع حزنا وقلوبهم تنفطر أسى وحسرة .

رحم الله الفقيد وجزاه خير ما يجزى به المجاهدين المخلصين ولطف بإخواننا المسلمين فى الهند ، وهيأ لهم من أمرهم رشدا ؟

عبد المنعم النمر

قال مروان بن أبى حفصة يمدح معن بن زائدة ، ويصف مفاخر قومه ومنعهم لمن استجار بهم :

هم القوم إن قالوا أصابوا ، وإن دعوا ... أجابوا ، وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا

هم يمنعون الجار حتى كأنما ... لجارهم بين السماكين منزلُ

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

نظرية التعسف في استعمال الحق

للأستاذ أحمد فهمي أبو سنة

مقدمة :

الفقه الإسلامي أظلت رايته بلاد المسلمين في أكبر بقعة عرفها التاريخ على وجه الأرض صار فيها حقوق الناس وحفظ مصالحهم فتعموا بعدالة التشريع وعدالة القضاء : ذلك العدل الذي من أجله أرسل الله الرسل وأنزل الكتب « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » .

جهد القضاة والمفتون من الفقهاء في استنباط الأحكام من مصادر الشريعة كلما نزلت بهم قضية أو حزبهم أمر : فكانوا يحدثون للناس أقضية بقدر ما أحدثوا ، ويصونون فيهم المصلحة التي أرادها الله من هذا الدين كما يقول تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » : فقامت بذلك الحجة البالغة على كمال هذا الدين وعلى أنه شريعة الناس كافة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وقامت بذلك الآية البينة على أن الفقه كائن حي ينمو ويؤتي أكله بإذن الله لتلبية حاجات الحياة ومطالبها على اختلاف ألوان المجتمعات في كل عصر ومصر .

ونظرة واحدة إلى تطور الكتب الفقهية من زمن كبار الأئمة المجتهدين ترينا مبلغ الرقي المتزايد والنمو المطرد الذي وصل إليه طالما كان يجلس مع القضاة على كراسي القضاء ويقعد مع المفتين في المجامع والمساجد .

النظرية :

ونظرية التعسف في استعمال الحق تسميتها بهذا الاسم منقولة عن رجال الحقوق الغربيين ولكن هذه النظرية عرفها الإسلام منذ أرسل الله رسوله وأنزل عليه قرآنه واعتنقه الناس دينا وطبقوه في قضاياهم وسائر علاقاتهم شريعة محكمة ، بين الحق كما بين مصادره وأنواع التعدي عليه مباشرة وتسببا وعمدا وخطأ وعن طريق التحايل والذريعة ، فلم يترك قانونه قضية من غير حكم .

ولكن الذين يقرءون لرجال القانون من الغرب ولا يقرءون الفقه الإسلامي دأبوا على أن يعجبوا بكل ما نقلوه عن الغرب على

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

حين يتهمون الفقه بقصر نظرياته وجمود أحكامه .

معنى التعسف فى استعمال الحق :

الحق : قسم علماء الشريعة الحقوق إلى ما هو حق العامة ، وضابطه ما يتعلق به النفع العام للمجتمع من غير اختصاص بأحد ، كالانتفاع بالطريق العام والأنهار العامة والمساجد وهذا يثبت للناس جميعا حق الانتفاع به والدفاع عنه : الثانى الحق الخاص وهو ما تتعلق به مصلحة خاصة للفرد وكحقه فى ملكه أو فى ولايته على ولده ، وميزوا بين الحقين بأن الأول لا يمكن تمليكه ولا إسقاطه والثانى يمكن تمليكه وإسقاطه .

ويمكن إدماجها فى تعريف واحد نستخلصه من الاستعمالات المختلفة ـ للفقهاء وهو ما يثبت للإنسان استيفاؤه . سواء أكان عاما أم خاصا ، وسواء أكان حقا متعلقا بالمال كحق الملك فى الأعيان وحق الانتفاع بالعين المستأجرة أم المستعارة وحق الحبس فى المرهون أم كان حقا غير مالى كحق الولاية للشخص على أولاده وحق الزوجية ومنه حق الطاعة لولى الأمر وحق الشورى للأفراد الذين يتأهلون لذلك وغيرهما من الحقوق السياسية .

ولا يأبى الفقه الإسلامى تقسيم فقهاء القانون له إلى شخصى وعينى . فالأول دين أو عمل أو امتناع عن عمل لشخص على آخر كالثمن المؤجل ومنفعة الأجير والامتناع عن الانتفاع بالمرهون أو الوديعة ، والحق العينى هو علاقة اختصاص لشخص على شىء فى مواجهة الناس جميعا كحق الملك وحل التصرف فى المملوك وحق الارتفاق بالشرب والطريق ووضع الجذوع على حائط الجار .

وأسباب اكتساب هذه الحقوق إما اختيارية وإما جبرية فالأولى العقد والعمل النافع كالفضالة ومنها ما إذا أنفق على اللقيط بغير إذن القاضى عند المالكية ، والعمل الضار كارتكاب الجرائم والامتناع الضار .

والسبب الجبرى أمران : الأول أوامر الشارع كالإنفاق على الأولاد والضرائب من العشر والخراج والزكاة . والثانى هو الإرث .

معنى التعسف : التعسف فى استعمال الحق تعبير وارد إلينا عن الحقوقيين الغربيين فيجمل بنا أن نفرق بما أرادوا منه ثم نتكلم عما يقابله فى الفقه الإسلامى .

فالتعسف فى استعمال الحق عندهم : هو استعمال الحق على وجه غير مشروع — فالمفروض أن الحق أمر مشروع ومباح الاستخدام ولكن الذى استعمله نحا فى ذلك نحوا غير مشروع كما سيتبين هذا فيما بعد .

وفرق بين التعسف وبين الفعل الضار أو الامتناع الضار ، لأن الأخيرين أمر غير مشروع أى ممنوع ومحرم من أول الأمر .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أما التعسف فهو استعمال الحق المشروع على وجه غير مشروع .

أحوال التعسف فى القوانين الحديثة :

ذكرت التقنينات الحديثة ثلاثة أحوال للتعسف فى استعمال الحق :

الأول أن يأتى الإنسان بعمل مشروع ويقصد به الإضرار بالغير من غير أن تكون له مصلحة فيه .

الثانى أن يأتى بعمل مشروع للحصول على مصلحة ضئيلة له لا تتناسب مع الضرر العظيم الذى لحق الغير من جراء هذا العمل .

الثالث أن يأتى بعمل مشروع يقصد به تحقيق مصلحة غير مشروعة وقد نص على هذا القانون المصرى فى المادة ٤ ، ٥ والقانون السورى ٥ ، ٦ .

النظرية والفقه الإسلامى :

هذه النظرية مسطورة فى صميم الفقه الإسلامى وبارزة فى آيات الكتاب وأحاديث السنة بأوسع من معناها فى القانون ، وهى من المبادئ الكبرى التى حفظت بها الحقوق منذ كان الإسلام .

الأدلة عليها إجمالا :

الدليل عليها من القرآن

أولا قول الله تعالى : « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا » .

سبب نزول هذه الآية كما أخرج ابن جرير وابن المنذر أن رجلا من الأنصار يدعى ثابت بن يسار طلق زوجته حتى انقضت عدتها إلا يومين أو ثلاثا راجعها ثم طلقها ففعل ذلك بها حتى مضت لها تسعة أشهر يضارها : فأنزل الله تعالى الآية .

يعنى والله أعلم : إذا طلقتم النساء فقاربن انقضاء عدتهن فأمسكوهن بالرجعة : بما هو متعارف فى الشرع من حسن العشرة أو اتركوهن حتى تنقضى عدتهن ، ولا تراجعوهن مضارين لهن بهذه الرجعة فيتحقق بذلك عدوانكم عليهن .

وجه دلالة الآية : أن الإمساك حق للزوج ، وقد ندب الله تعالى إلى استعماله على نحو مشروع وهو الإمساك مع المعاشرة الحسنة ونهى عن استعماله على نحو غير مشروع وهو استعماله على وجه المضارة على النحو الذى فعله ثابت بن يسار وهذا بعينه هو إساءة استعمال الحق لأنه استعمال حق الإمساك على وجه غير مشروع .

الدليل الثانى : قال الله تعالى بعد بيان نصيب الأخوات لأم من الميراث : « من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله » .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

يعنى والله أعلم لكل من الأخوات لأم نصيبه بعد أداء دين المورث وإخراج وصيته ، على أن يكون المورث قد أقر بالدين وأوصى من غير ضرار بورثته بأن يكون الدين صحيحاً والوصية لا ضرار فيها .

وجه الدلالة : أن الوصية حق للورث وله استعماله على وجه مشروع بأن يكون فيه بر بالورثة ولا يجوز استعماله على وجه غير مشروع بأن يكون إضرارا بالورثة كأن يوصى بأكثر من الثلث أو يوصى لأحد الورثة فالوصية مع الإضرار هى بعينها إساءة استعمال الحق .

الدليل الثالث : ما أخرج أحمد بسنده إلى عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم (لعن الله المحلل والمحلل له) ـ وما روى عن الأوزاعى عنه صلى الله عليه وسلم (يأتى على الناس زمان يستحلون الربا بالبيع) .

وما أخرج البخارى عن النعمان بن بشير أنه صلى الله عليه وسلم قال : (مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا) .

وجه الدلالة من هذه الأحاديث : أن الزواج والبيع عمل مشروع والزواج لأجل التحليل والبيع لأجل الربا عمل غير مشروع فلما قصد بالمشروع غير المشروع نهى عنه الشارع ، وحكم بفساده لأنه تعاون على الإثم وقد قال تعالى : « ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ـ ووجه الدلالة من الحديث الثالث أن الذين فى أسفل السفينة يستعملون نصيبهم وحقهم لكن لما أرادوا أن يستعملوه على وجه غير مشروع ؛ لأنه يضر الجماعة ضررا عظيما لا يتكافأ مع مصلحة شربهم ، وترك إيذاء الفريق الأعلى اعتبره الشارع منكرا يجب أن يمنعوا عنه .

إلى غير ذلك من أدلة يأتى بعضها إن شاء الله [1] .

اشتراكية الحق فى الإسلام :

الحقوق الشخصية والعينية ليست مختصة بأصحابها فى الإسلام اختصاصا مطلقا وليسوا مستبدين فى التمتع بمزاياها استبدادا كما قد يتبادر من وصفها بالحقوق الخاصة .

بل الواقع أن للجماعة حقا عاما مشتركا بينهم وذلك من ناحيتين .

الأولى : أن تصرف الشخص فيها مشروع بشرط سلامة الجماعة من ضرر ينشأ عن

(١) انظر تفسير الألوسى جـ ٢ ، ٤ ـ أحكام الجصاص جـ ١ ـ صحيح البخارى فى كتاب الحدود ـ نيل الأوطار فى كتاب البيع ـ لباب الباب لابن راشد المالكى فى كتاب النكاح ـ المغنى الحنبلى فى نكاح التحليل .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

استعمال هذا الحق كما يشير إلى ذلك حديث الواقع فى حدود الله : ولهذا أذن للجماعة فى منعه عن استعماله للحق استعمالا ضارا بهم : فصاحب الحق يجب أن ينظر إلى النتائج الناجمة عن استعماله إن قصد الضرر أو ترك الاحتراس أو أراد تحقيق مصلحة لا تتكافأ مع ضرر الغير أو مصلحة غير مشروعة .

الناحية الثانية : أن الحق كما جعل الله فيه مصلحة فردية لصاحبه جعل فيه مصلحة اجتماعية لصالح الجماعة ، لأنه من ثروة الأمة التى تعتمد عليها - ولهذا نهى الشخص عن إتلاف ماله : لأنه إن لم يصبه هو بالخسارة أصاب الجماعة ، ولأن الله جعل فيه نصيبا معلوما للجماعة كما فى الزكاة والعشر والخراج ويدل على هذا النهى عن الاحتكار والنهى عن رفع الأسعار وحق الجماعة فى بيع المال المحتاج إليه على صاحبه عند الغلاء الشديد أو المجاعة .

ويشير إلى هذا الأصل العظيم قول الله تعالى : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما » . وبهذا تبين أن الحق الخاص فيه جهة عموم نظرا للوظيفة الاجتماعية التى رتبها الشارع من الناحيتين السابقتين .

ولهذا المبدأ ارتباط وثيق بنظرية التعسف فى استعمال الحق من جهة أن صاحبه يجب أن يشعر بأن لغيره فيه نصيب لا يصح الاعتداء عليه .

تفصيل الكلام على التعسف فى الحق فى الفقه الإسلامى :

تعريف :

تبين من دراساتنا لأحكام التصرفات وما يعتبر منها مخالفة وما لا يعتبر أنه يمكن تعريفه بما يأتى :

هو تصرف الإنسان فى حقه تصرفا غير معتاد شرعا .

ولشرح هذا نقول :

الأصل الفقهى العام فى المسئولية إذا تصرف الإنسان فى حقه :

قرر الفقهاء كما فى الفقه الحنفى وغيره أن للإنسان أن يتصرف فى ملكه تصرفا معتاداً ولا يسأل عما يترتب عليه من ضرر حينئذ ، وإنما يسأل عن الضرر إذا كان التصرف فى ملكه غير معتاد .

ويقصدون بالملك ههنا : الحق بدليل أنهم ذكروا من فروع هذا الأصل ما لو سقى أرضه من الأنهار العظام التى ليست مملوكة للأفراد كالنيل والفرات أو ساق منها نهيراً إلى أرضه - قالوا يجوز ذلك إلا إذ أضر بالعامة .

تفريع :

وفرعوا على هذا الأصل أموراً منها ما إذا سقى زرعه فنزت أرض جاره ، وتلف بذلك

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

زرع أو بناء إن سقاها سقيا معتاداً بأن سقاها قدر ما تحتمله عادة لم يضمن وإن سقاها قدراً لا تحتمله ضمن .

ومنها ما إذا أحرق حصائده فى أرض مملوكة أو مستأجرة فاحترق بذلك شىء لجاره لم يضمن لأنه تصرف فى حقه تصرفا معتاداً وإن كانت الرياح مضطربة عند الإحراق فأحرقت شيئا لغيره ضمن ؛ لأنه يعلم أن النار لا تستقر فكان مستعملا لحقه استعمالا غير معتاد أى فكان متعديا .

ومن هذا يتبين حكم الفقه فيما لو حفر بئرا فى ملكه فغاص الماء من بئر جاره أو أدار آلة إدارة معتادة، فتأذى السكان بضوضائها وهو ألا يضمن الضرر لأنه تصرف معتاد .

وحكم هذا الأصل يسرى على من قام بعمل لغيره بناء على عقد أو إذن كالطبيب والقاضى ومنفذ الأحكام إذا سلك الطريق المعتاد فى عمله فتخلف عن ذلك ضرر لا يضمن. وإن جاوزه ضمن ، ولهذا قالوا إن الختان والفصاد إذا هلك الغلام والمريض بجرحهما المعتاد لا يضمنان وإن جاوزاه ضمنا[1] وكذلك القاضى إذا ظهر أنه حكم بغير الحق والمنفذ للعقوبة كالسجان والجلاد إذا تخلف عن قيامه بعمله المعتاد ضرر ، ويشير إلى هذا قول النبى صلى الله عليه وسلم : « إنما أنا بشر مثلكم وإنكم تختصمون إلى ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو مما أسمع فمن قضيت له بشىء من حق أخيه فلا يأخذه » الحديث .. حيث لم يعتبر خطأ القاضى تعديا بعد ما تحرى فى عمله وجه الصواب وتصرف الإنسان فى حقه تصرفا غير معتاد هو جماع مسائل التعسف فى استعمال الحق .

(للبحث بقية)

أحمد فهمى أبو سنة

(١) الدر وابن عابدين ـ الزيلعى جـ ٦ صفحة ٤٣ الزيلعى جـ ٥ صـ ١٣٧ وابن عابدين جـ ٥ صـ ٥٨ .

من شعر الحكمة قول أبى ذؤيب :

والنفس راغبة إذا رغبتها
وإذا ترد إلى قليل تقنع

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

رواد التجديد في الشعر العربي :

المازني شاعرًا

للأستاذ العوضي الوكيل

— ٢ —

سلك الشعر العربي في أوائل هذا القرن مرحلة من مراحل تطوره ، وأثمرت حركة الاتصال الأدبي بين الشرق والغرب ثمراتها ، وكان تطور الشعر ، إحدى تلك الثمرات .

وكانت دعوة الصدق ، والتعبير عن الشعور الصحيح ، مما أخذ الشعراء به أنفسهم ، فنزعوا إلى « الاستقلال ، ورفع غشاوة الرياء ، والتحرر من القيود الصناعية » .

ومن ثم انقرض أو كاد ، شعر الزخرفة البديعية ، وشعر التهاني بالمناسبات والتعزية المتكلفة ، التي لا تتصل بشعور القائل ولا بعاطفته .

وانفتحت نفوس الشعراء لمؤثرات الكون ، التي يعرض عنها غير الشعراء وامتزجت طواياهم بطواياها ، فعمقوا بأشعارهم معنى الحياة في نفوس الأحياء .

واتسعت بواعث الشعر ، وانفرجت نوافذ الحياة أمام أعين الشعراء عن موضوعات له لا تفنى ، إلا إذا فنيت الحياة ، وصح بذلك ما قاله العقاد في مقدمة ديوانه : « وحي الأربعين » الذي صدر في نهاية الثلث الأول من هذا القرن : « إن من أراد أن يحصر الشعر في تعريف محدود لكن يريد أن يحصر الحياة نفسها في تعريف محدود » .

وصح كذلك ما قاله في مقدمة ديوانه « عابر سبيل » — وقد أصدره قبل نحو ربع قرن — : « كل ما نخلع عليه من إحساسنا ونفيض عليه من خيالنا ، ونتخلله بوعينا ، ونبث فيه هواجسنا وأحلامنا ومخاوفنا هو شعر ، وموضوع للشعر ، لأنه حياة ، وموضوع للحياة » .

وأحست الأوزان والقوافي أنها أضيق — كما يقول العقاد في مقدمة ديوان المازني — من أن تنفسح لأغراض شاعر « تفتحت مغالق نفسه ، وقرأ الشعر الغربي فرأى كيف ترحب أوزانهم بالأقاصيص المطولة ، والمقاصد المختلفة ، وكيف تلين في أيديهم القوالب الشعرية ، فيودعونها مالا قدرة لشاعر عربي على وضعه في غير النثر » .

ومن ثم ظهرت القوافي المرسلة والمزدوجة ، والمتقابلة ، في ديوان عبد الرحمن شكري الأول ، ثم جاء المازني فضمن ديوانه نماذج من تلك القوافي .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

في هذا الجو الأدبي الشعري الجديد نشأ المازني وعاش ، وصدر ديوان شعره ، كما صدرت قبله دواوين زميليه في الجهاد الأدبي العقاد وشكري ، وجاء ديوان المازني كما ينبغي أن يجيء ، معبراً أصدق التعبير عن صاحبه وعن زمنه جميعاً ، وجاء شعر المازني وصاحبيه ، نمطاً جديداً لا يجافي القديم ولا ينكره ولا يدابره ، وإذا كان ثمت نضال بين مذهب قديم ، ومذهب جديد فهو نضال انتهى الأمر فيه إلى أن « نزع الظافر أسلاب المخذول ، ولكنه لبسها ، فكان ظافرهم ومخذولهم أقرب الناس زياً ، وأشبههم بزة » .

وأنت حين تقرأ للمازني قوله في مقطوعة الإهداء بالجزء الأول من ديوانه :

إلى الذي نام عن ليلي وأسهرني
ومن إليه على الأيام تحناني
ومن أكاتمه وجدي ، وأوهمه
أن اقترابي وبعدي عنه سيان
ومن غذائي ذكراه ، وإن بعدت
أوطانه ونأت بي عنه أوطاني
أذكيت في الصدر ناراً لا خمود لها
فاقبس ثوائر أنفاسي وأشجاني
هدية لك فيها الفضل أجمعه
وليس لي غير إنصافي وعرفاني

تجد صياغة عربية مشرقة ، يتصل نسبها بالمتنبي والشريف والأخطل وجرير ، تتألق في ثناياها روح مشرقة :

وفي قصيدة ـ أو موشحة ـ الدار المهجورة ـ يقف المازني بها ، كما وقف قبله آلاف من شعراء العرب ، على رأسهم نابغة بني كندة امرؤ القيس ، ولكنه يسلك في وقوفه بها مسلكاً يغاير مسالكهم جميعاً ، فإنه يتمثل الدار وقد علاها المشيب ، وأدركها البلى ، فبقيت متهدمة قائمة كالمرء بين الحياة والموت ، أما حديث الواقف بها فأمره عجيب . فإنه لا يجد لديها قراراً ، ولا تستطيب أو هو لا يستطيب لها حواراً ، ولا تلبث أصداء الحديث أن ترتد إلى المتحدث .

يقول المازني :

لم يدع منها البلى ، إلا كما
تترك التسعون من غض الشباب

* * *

وهي في سكونها كأنما
فارقتها روحها إلا ذما

* * *

ليس يلقى عندها الصوت قراراً
كلما أرسلته مل الجوارا
واسترد المرء منها ما أعارا
تئب الأصداء عنها مثلما
طارت العقبان طيراً عن عقاب

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

والعقاب الأخيرة جمع عقبة وهى المكان المرتفع فى جبل أو نحوه ، ويقول فى الإخوان ص ٣٢ ، الجزء الأول ، وتأمل إشراق الديباجة ، وصفاءها :

سل الخلصاء ما صنعوا بعهدى
أضاعوه ، وكم هزلوا بجدى
ركبت إليهم ظهر الأمانى
على ثقة فعدت أذم وحدى
وصلت بحبلهم حبلى فلما
نأوا عنى قطعت حبال ودى
وكانوا حليتى فعطلت منها
وغمدى ، فالحسام بغير غمد

وفى الجزء الأول من الديوان سمتان ظاهرتان ، أولاهما أن شعر الحب به فيه حرارة ، والثانية الجموح فى هجاء بعض من كانوا أصدقاءه .

أما الأولى فنحن نعلم أن المازنى نظم هذا الديوان وهو بعيد العشرين بقليل ، وفى الثانية والعشرين على التحديد ، يقول فى قصيدته ثورة النفس - ص ٤٢ - رداً على أبيات كان قد بعث إليه بها صديقه الشاعر عبد الرحمن شكرى :

لبست رداء الدهر عشرين حجة
وثنتين ، ياشوقى إلى خلع ذا البرد
عزوفا عن الدنيا ، ومن لم يجد بها
مراداً لآمال ، تعلل بالزهد

فالشاعر إذن فى فترة مراهقة فنية وإنسانية ، فلا جرم يجىء شعره فى الحب ذا حرارة ، يقول :

إن وجها رأيته ليلة السبـ
ـت زمانى بحبه وتولى
عجب كيف يرتضى البعد عنا
من عبدنا فى حسنه الله جلا
هل حباك الإله بالحسن إلا
لنرى فيك آية تتجلى
أنت أفسدتنى وعلمتنى الحـ
ـب ، فهلا أصلحت منى هلا !

ويقول المازنى :

ودعته والليل يخفرنا
والليل يرمقنى ويرمقه
ولرب خد بت ألثمه
والدمع يطفئ ما أحرقه

ويقول من قصيدته لحظ الحبيب :

يا قرة العين أنت حسبى
لولاك ما أثمرت غصونى
لولاك لم أحتمل حياتى
ولم أطق صفقة الغبين
وددت لو تنفع الأمانى
لو كنت لدنا من الغصون
وليتنى صيدح يغنى
فى ظلك الوارف الأمين

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ونلاحظ أنه كرر كلمة الغصون ولم يمض عليها فى القافية غير بيت واحد .

واقرأ كذلك مقدمة قصيدته « السلو » :

أبليت فيك العمر وهو جديد
وعرفت فيك الصبر كيف يبيد
وغدوت ـ أجلك ـ فى الحياة محسداً
تغـــلى على ضغائن وحقود
وتركتنى مثلا شروداً فى الهوى
يومى إلى الإصبع الممدود
لى كل يوم منك موقف ذلة
صعب على الطبع الحمى شديد

وأما السمة الثانية فتمثلها قصيدة همزية طويلة يعارض بها ابن الرومى فى قصيدته التى مطلعها :

يا أخى أين ربع ذاك الإخاء
أين ما كان بيننا من صفاء

وطالت قصيدة المازنى حتى بلغت مائة وستة من الأبيات ، لتتم معارضة بن الرومى فى كافة النواحى ، فإنه كان طويل النفس جداً ، بدأها المازنى بقوله :

بعض بغضائكم أولى البغضاء
إنما الشتم شيمة السفهاء
ليس يشفى السباب غل حسود
قد طوى صدره على الشحناء

وتمتلئ القصيدة بالسباب ، وتقل فيها الصور ، ويقسو السباب أحياناً حتى يصل إلى درجة غير مقبولة ، كأن يصف خصمه بالبغى التى نشأت بين بيئة شنعاء ، وبأنه ذنيء الإسفاف والكبرياء ، وفاسق يظهر العفاف ، وحمار أوهمه الشيطان أمراً فصاح .

وفى القصيدة بعض الصور الفكهة ـ التى تلائم طبع المازنى ـ ولكنها كما قلنا قليلة ، ومن أمثلتها صورة القرد السكران ، وصورة الحمار المتكبر ، والمهجو هنا ـ كما يظهر من الأبيات ، وكما يحدثنا من عاصر هذه الحقبة من حياة المازنى ـ شاعر كان صديقا للمازنى ثم تخاصما ، يقول المازنى :

يا قطيع اللسان مالك والشعـ
ـر وصوغ الكلام جم العناء

وثمة قصيدة أخرى تجرى هذا المجرى فى ديوان المازنى ، وهى قصيدة الإخوان ـ ص ٣٢ ـ وفيها يقول :

وغر ماضغ بالغيب لحمى
خلاء الذم إذ جـــدنا بحمد
صفوت له على العلات دهرا
فمرنق بالسفاهة ماء وردى

* * *

مضى زمن التسامح والتغاضى
وذا زمن الترامى والتحدى
لئن أعلى خسيستهم سكونى
فسوف يحطها بدئى وعودى
وإن أثمـــر لهم ذما كثيراً
فهم غرسوا بذور الذم عندى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وتعاور المازنى طبيعة الهجاء فى الجزء الثالث - الذى نشر بعد موته - يقول فى قصيدة عنوانها اللص :

لحاك الله من لص رقيع
يفاخر بالمعيشة والفجور
أتذكر حين كان أبوك يمشى
وما فى كفه شروى نقير
يدلل يومه فى السوق طورا
وطورا فى الأزقة والكفور
ويوقد ظهره مولاه حتى
كأن أباك كان من الحمير

وله كذلك فى هذا الجزء الثالث قصيدة من الهجاء عنوانها الحمار المستأسد اضطر ناشر الديوان ومراجعه إلى حذف تسعة أبيات منها فيها نبو خادش وإن خالف بذلك أمانة النقل ، ولعله كان أمام كلام شديد البذاءة ، والملاحظ أن ابن الرومى يسيطر على الشاعر حتى فى قوالب صياغته يقول ابن الرومى .

ويمينا لألهون بأشلا
ئك بين الإشواء والإصماء
ما دحا هاجيا ومتخذا إيا
ك ملهى وعرضة استهزاء

ويقول المازنى :

ويمينا لأجعلنك أحدو
ثة كل الركبان والأملاء
ناشراً كل سوءة لك تطو
يها دوياً وفعلة نكراء

فتى القافية الهمزية لم تسلم من المازنى حين عارض ابن الرومى .

وإلى مقال آخر نعالج فيه فن المازنى الشعرى وأسلوب صوره وتفكيره ؟

العوضى الوكيل

عهد أبى بكر لعمر بن الخطاب

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، فى الحال التى يؤمن فيها الكافر ، ويتقى فيها الفاجر .

إنى استعملت عليكم عمر بن الخطاب ، فإن برّ وعدل فذلك علمى به ورأيى فيه ، وإن جار وبدل فلا علم لى بالغيب ، والخير أردت ، ولكل امرئ ما اكتسب ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ثورة التوحيد الفلسفي على التعدد الوثني

للدكتور محمد غلاب

مما لا سبيل إلى الريب فيه أن الأدب الهيليني قد ترك في تكوين العالم الحديث أثرا روحيا وخلقيا وفنيا لا يجحده اليوم أحد من المثقفين في الغرب والشرق وأن هذا الأدب قد اقتبس أروع موضوعاته من تلك الأساطير الشيقة التي لا تزال إلى اليوم منبعا فياضا من منابع الشعر الساحر، والفن الفاتن.

هذه الأساطير هي أساس الدين الهيليني، بل لقد بقيت زمنا طويلا ينظر إليها على أنها هي التاريخ المعتمد لذلك الدين الذي هو نموذج للتعدد وتحديد الاختصاص، والذي كان الشعب يؤمن به إيمانا عميقا. وعلى رأسه شعراؤه وكتابه ومؤلفوه منذ أبعد عصورهم ضربا في القدم، ومن أوضح الآيات على ذلك الإلياذة والأوديسا اللتان أبدع فيهما هو ميروس في تصوير آلهة الإغريق أيما إبداع.

بيد أن الزمن قد عمل عمله في تطور هذه العقيدة. وقد ظهر فيها ذلك التطور قويا بارزا حين تألأ نجم الشاعر الرسمي العظيم باندارووس وأعلن في أول القرن الخامس أنه يقبل التقاليد الدينية الإغريقية، ولكنه يرفض في حزم أن يقر ذلك الضعف البشري الشائن الذي عزاه هو ميروس إلى الآلهة، وبعد أن أضفى باندارووس باللائمة على الصور الأدبية والمادية الشائنة التي رسمها هوميروس للآلهة، صرح بأنهم يمتلكون القوة والجمال والخلود، وعلى الأخص الخيرية والعلم المنزه عن الخطأ والانخداع في أي شيء. وأنهم متصفون بأسمى الفضائل التي تأسست عليها ديانتهم عنصريا، ثم انتزعت من هذه الديانة تطبيقيا.

وعلى هذا النحو نفسه كان الشاعران المأساويان: اسكيلوس، وسوفوكليس، وقد امتازا باحترامهما النقي الفائق للتقاليد الدينية، فالآلهة عندهما قوى غامضة رهيبة لا يقيدهم سوى قانون القدر الذي يستحيل الفرار منه أو التمرد عليه، وهم متصفون بالقدرة والعدالة، بل هم حماة الفضائل العالية. ومعنى هذا أن ذينك المأساويين قد خلعا على الآلهة من الأوصاف العالية والنعوت الرفيعة ما لم يظفروا بعشر معشاره في ملحمتي هوميروس.

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

غير أن هذا الطابع الإجلالى لم يلبث أيضا أن لحقه التطور الذى لايدع كبيرة ولا صغيرة فى الكون إلا أخضعها لقاموسه القاهر الجارف ، ومأتى ذلك التطور هو الأورفية ثم الفيثاغورية اللتان تأثرتا بالمبادئ الشرقية عامة ، والهندية خاصة ، ومن الأسس الجوهرية لهذه المبادئ : التوحيد أو دين الفطرة ، ولكن لما كانت هذه التعاليم الأورفية والفيثاغورية تدرس سرا بين الصفوة والعلية من المفكرين ، وكانت من (المضنون به على غير أهله) ولهذا بقيت بعيدة عن الشعب ، مصونة عن الدهماء ، مقصورة على الخاصة الممتازين .

توحيد إكسينوفانيس

على أنه من الأمور الطبيعية أيضا أن الخفى يصير علنياً فى يوم ما ، وقد كان ذلك بالفعل ، إذ لم تلبث أن ظهرت تلك الحملة الهائلة التى سدد الفيلسوف الإلهى إكسينوفانيس سهامها إلى عقيدة التعدد والمشابهة فى إغريقا فأصابها فى الصميم ، وإليك البيان :

كان أول ما شغل إكسينوفانيس فى حياته الفكرية هو النظر فى التراث الإغريقى القديم المؤلف من الأساطير الدينية الممثلة فى قصائد الشعراء وتماثيل الفنانين ، فبسطها أمامه ثم تأمل فيها على ضوء النضوج الذى أحدثته النهضة العلمية الإيونية . وكانت نتيجة هذا التأمل أن الديانة الإغريقية باطلة من أساسها لأن الآلهة الحقيقيين لا يمكن أن يكونوا كما صورتهم الأساطير من الناحية المادية ولا من الناحية الأدبية ، فأما منشأ سخف التصوير المادى للآلهة وبطلانه ، فهو أننا نلاحظ أن تماثيل آلهة الإغريق زرق العيون ، بيض الوجوه ، صفر الشعور ، وتماثيل الإثيوبيين سود الوجوه ، فطس الأنوف ، جعد الشعور إلى غير ذلك مما يحملنا على الاعتقاد بأنه لو أتيح الأسود أن تصنع تماثيل آلهتها لصنعتها ذات مخالب وأنياب ، ولو قدر للثيران أن تفعل ، لرأينا تماثيل آلهتها ذات قرون طويلة وأذيال متدلية ، وأما مأتى فساد التصوير الأدبى الذى ورد فى الشعر الإغريقى القديم للآلهة ، فهو أننا نشاهد أن آلهة (هوميروس) و (هيزيودوس) يتناسلون وينامون ويشتهون ويعشقون ويخدعون ويخونون ، وبالإجمال يقترفون أكبر الموبقات الإنسانية ، وهذا كله يحملنا على اليقين بأن جميع هذه الآلهة من صنع البشر وكما شاءت لهم أهواؤهم وبيئاتهم ، ولا ريب أن كل ذى عقل سليم يحتقر هذا ويسخر منه سخرية تامة .

ثم إن (إكسينوفانيس) بعد أن هدم الديانة الأرسطورية التى كان يعتقد بطلانها ، شرع يؤسس على أنقاضها عقيدته الفلسفية

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الصحيحة المؤسسة على النظر المنطقي السليم ، فأخذ يسائل نفسه قائلا : ولكن مع ذلك ، هل كان الكون من غير إله ؟ كلا ، بل إن هناك إلهاً واحداً بعيداً كل البعد عن جميع نعوت البشرية من غير استثناء ، وهو يرى بكليته كل مرئي ويسمع بكليته كل مسموع ، ويدرك بكليته كل مدرك ، وأنه ثابت كل الثبات ، منزه عن الحركة بأنواعها ، وأنه يدبر كل شيء في الكون بقدرته الإدراكية التي لا نظير لها .

وعنده أن إثبات وحدانية الإله ليس مفتقرا إلى أدلة حسية ، أو براهين تجريبية ، بل هو ظاهر بالدليل النظري لدى كل عقل مستقيم ، وهذا الدليل هو أن القوة غير المحدودة هي أولى خصائص الإله ، فلو كان له شريك لما استطاع أن يفعل كل ما يريد . وهذا العجز حد للقوة التي لا تتحقق الألوهية إلا بتخطيها كل حد وبلوغها أعلى درجات الكمال . وقد برهن على أزلية الإله وأبديته بمثل هذه البراهين النظرية .

توحيد أناكساغوراس :

كان كسينوفانيس ينادي بهذه الآراء في إيطاليا الجنوبية في القرن السادس قبل المسيح ، ولكن التوحيد الواضح قد ظهر في أثينا على يدي أناكساغوراس في النصف الأخير من القرن الخامس وهو أزهر عصور هذه العاصمة على الإطلاق ، إذ كانت أثناءه على رأس إغريقيا كلها لا سيما بعد أن أنقذتها من الغزو الفارسي بفضل شجاعتها واستعدادها ، ومن أسباب ذلك التفوق أيضاً أنه كان على رأسها ذلك الحاكم العظيم بيريكليس . ولهذا لا نستطيع أن نمر هنا بتلك الحقبة التاريخية الخالدة دون أن نقف عندها هنيهة . ولما لم يكن من الميسور أن نقف هذه الوقفة دون الإلماع إلى حياة بطل الساعة في ذلك الحين ورافع لواء المجد فيه ، وهو بيريكليس ، فإليك هذه الإلماعة :

انحدر بيريكليس من أسرة عريقة ماجدة ، ولكنه لم يكد يشب حتى وضع نفسه على رأس حزب الشعب ، وقد أدهش هذا المسلك المؤرخين ؛ لأنه غير طبيعي ، ففرض فريق منهم أنه لا بد أن يكون في هذا التصرف قد خضع لدافع الميل الشديد إلى الخطابة ، ولبى في نفسه نداء الفصاحة والبلاغة اللتين بلغتا لديه أقصى حدود الإعجاب . ولم يكن يستطيع إرضاء الرغبة التي ملكت عليه أحاسيسه إلا إذا كان زعيما سياسياً وقائداً شعبياً من أولئك القادة النادرين الذين تفتقر إليهم الشعوب في محنها أو في حركاتها التحريرية التي تقوم بها لتتخلص من البؤس أو من المظالم الاجتماعية .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ومما هو جدير بالملاحظة أن هذه الشخصية النبيهة النظيفة كان لها كثير من الخصوم المغرضين المهاجمين ظلماً وعدواناً ، لا لشيء إلا لأنه لم يسايرهم فى أهوائهم ومطامعهم . ولا غرو فإن الشاعر العربى يقول :

إن نصف الناس أعداء لمن
ولى الأحكام هذا إن عدل

ولكن بيريكليس لم يكن يستشيط غضبا من الهجوم ، ولا يهتز طربا للثناء ، لأنه كان يعيش فى ذاته . وقد خلق لنفسه حياة شخصية مستقلة عن حياته السياسية التى كانت مع ذلك مثالية. وكان يفضل مرافقة الفلاسفة على مرافقة المتملقين من رجال الحكم وذوى المطامع والأهواء. وكان منزله أشبه بمنزل فيلسوف ظريف فكان مفتوحاً على مصراعيه للصفوة المختارين .

وكان سقراط الشاب وأنا كساغوراس الشيخ من بين رفاقه المفضلين ، وإذا كان اختيار المرء قطعة من عقله كما يقولون ، فإن اصطفاء بيريكليس هذين الحكيمين دليل على سداد الرأى ونفاذ البصيرة ؛ لأن أنا كساغوراس كان يمثل جانبين عظيمين من جوانب المعرفة البشرية ، أولهما أنه كان دارسا ممتازا للمعارف الطبيعية اليونية التى كانت تحاول أن تشرح الكون بوساطة النظريات المادية وثانيهما أنه قد حمل إلى أثينا بقايا مبادئ الديانات الفطرية الآسيوية فكان الأول من جرؤ على أن يتحدث فى أثينا الوثنية عن إله واحد مجرد حكيم مدبر للكون ولا يشبه من عداه ، وقد وجه إليه سؤال كان بمثابة حد فاصل بين المدارس الإيونية والإليائية والذرية أو بعبارة أدق كان حدا فاصلا بين مدارس الإلحاد التى تعلن أن الحركة الكونية لا محرك لها البتة وإنما هى سائرة بالمصادفة أو مدفوعة بقانون الثقل ومدارس التأليه التى تقرر أن لكل حركة محركا إلى أن ينتهى الأمر إلى المحرك الأزلى الذى يحرك ولا يتحرك ، ويحمل هذا السؤال هو : من نشأت هذه الحركة الدائمة التى لا تكاد تجمع شيئا حتى تفرقه ، ولا تفرقه حتى تجمعه ولم كانت ؟ ، ولم يتردد أنا كساغوراس فى أن يجيب سائليه بقوله : إن هذه الحركة ميكانيكية متأثرة بقوة منصبة عليها من الخارج ، وهى لازمة لزوماً لامناص منه لنظام الكون ، إذ لو لم توجد لانعدم كل شيء فى العالم ، ولهوى الكون كله إلى جمود سحيق . فبالحركة يحدث الكون والفساد أو ما يسمى بالحياة والموت وبها يوجد النهار والليل ، ويهوى الرطب والثقيل نحو المركز ، ويصعد اليابس والخفيف نحو الخارج ، وبها يحصل التعقل والإدراك . وبالإجمال : هى أولى الضرورات وأقواها من غير استثناء . أما فاعلها فهو

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

« النواميس » أو تلك القوة الحكيمة التي لا يقبل العقل السليم أن تكون مثناة كما رأى أمبيذوكليس ، وإنما هي واحدة من جميع الوجوه ، وهذه القوة العاقلة مستقلة تمتزج بالأشياء ، وهي بكليتها في نفسها . إنها ألطف وأنقى الموجودات جميعها . وقد نقل عنه سامبليسيوس في كتابه « عن السماء » ما يأتي: إن النوس أو القوة العاقلة لها قدرة قاهرة على كل شيء ، ولها علم غير محدود . وعنده أن كل كائن حي حتى النبات ، مشتمل على جزء يتناسب معه من ذلك الإدراك الكلي الأعلى . وبهذا الجزء يدبر كل كائن حي حياته تدبيراً خاصا مستقلا وهو يرى أنه لولا وجود تلك القوة الحكيمة المدبرة لما سلمت تلك الأجرام الكثيرة العدد من الاصطدام أثناء هذه الحركة الفائقة في السرعة ، والتي لا تفتر لحظة واحدة . ولا ريب أن هذا يشف عن أنه كان عالما طبيعيا مبدعا ، وفيلسوفا مؤلها جليلا . وأن نتائج نظرياته إن لم تكن قد ظهرت في حياته ، فإنها كانت بارزة الأثر بعد موته حتى لقد شهد له سقراط بأنه كان مثله في البيئة التي يعيش فيها مثل : « الصاحي بين السكارى » على حد تعبيره ، وليس هذا فحسب ، بل إنه قد اعترف له بأنه مؤله موحد حيث قال : إني آخذ على أناكساغوراس اتخاذه حكمة الإله الممثلة في نظام الكون برهانا على وجوده ، إذ لو أنه اتخذ خيريته التي نشعر بجذبها إيانا نحو الخير في داخل نفوسنا برهانا على ذلك الوجود ، لكان أقرب إلى الصواب ، لأن ما ندركه في داخل نفوسنا أثبت وجوداً وأقوى يقينا مما نحسه بحواسنا .

ولا شك أن في هذا التصريح من سقراط دليلا قويا على عظمة أناكساغوراس وضربة في الفلسفة العالية بسهم نفاذة .

ولقد هزت تلك التصريحات من جانب أناكساغوراس كل العقليات الممتازة في أثينا وعلى رأسها بيريكليس وسقراط وزلزلت عقيدتها في التعدد الأسطوري ، ولا ريب أن هذا الجانب من أناكساغوراس كان له أعمق الأثر في تكوين سقراط أولا ثم أفلاطون وأرسطو من بعده ولم لا ؟ أليس سقراط هو الذي يقول عنه إنه : « الصاحي بين السكارى » كما أسلفنا ، وإن كان ذلك لم يمنعه من أن يخالفه في الجانب المادي من شرح الكون وأن يعارضه في عبارته المشهورة وهي قوله : « ليس في هذه المظاهر ثابت إلا الفكرة » ومما لا يخفى أن هذه العبارة هي أساس المثل الأفلاطونية .

إلى جانب هذا التأثير القوي الذي تركه أناكساغوراس في سلسلة عظماء فلاسفة الإغريق الروحيين والعقليين في التوحيد

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الراقى الذى بدأ بسقراط وجعل يسمو حتى بلغ الأوج عند الأفلاطونية الحديثة فى الإسكندرية ، إلى جانب هذا التأثير الفلسفى نشاهد لأناكساغوراس تأثيرا آخر أدنى إلى الشعب وألصق بالجمهور ، فقد كان من بين تلاميذه الممتازين ذلك المأساوى الموهوب أو ريبيديس ، ومما لا يخفى على أحد أن المأساة كانت قد أنشئت أول أمرها لتشريف الآلهة وتمجيدهم ، وقد ظلت تؤدى مهمتها على أكمل الوجوه منذ نشأتها حتى تلك الحقبة التى بدا فيها التمرد على الآلهة ، وتنامى الشعور بنقائصهم ورذائلهم وتناقضهم وعدائهم للمبادئ السامية واستهتارهم بالقيم الروحية إلى غير ذلك مما لا ينطبق على الألوهية الصحيحة . وقد تمثل ذلك النقد اللاذع فى مسرحيات أوريبديس التى جعلت تصور آلهة الإغريق منغمسين فى الكذب والنفاق والغرور وحب الانتقام والخداع والخيانة والغدر والتوحش وعدم الاتساق حتى فى توحشهم . وبالإجمال كانت منتجاته كأنها عرائض اتهام مفعمة بالهجوم والسخرية ، ولكنها لم تكن سخرية من العقيدة الدينية من حيث ذاتها ، وإنما كانت متجهة إلى الديانة الإغريقية بالذات وعلى صورتها الراهنة . ولم يكن ذلك الهجوم هداما فحسب ، بل كان مطهراً يزيل أنقاض التحريف ليشيد فى مواضعها للألوهية صورة سامية انتزعها من مبادئ أستاذه أناكساغوراس . ولكن حظ هذا الداعى للتأليه العقلى الجديد كان فى أثينا أحسن من حظ زميله سقراط ، إذ شاءت له الأقدار أن يغادر تلك المدينة إلى مقدونيا وأن يبقى بها حتى يتوفى فى بلاط الملك أركيلاءوس .

وأيا ما كان فعلى أثر اشتهار أناكساغوراس بهذه المبادئ ، وذيوع أستاذيته لبيريكليس ، انتهز خصومه المغرضون هذه الفرصة فأطلقوا ألسنتهم فى المدينة أن بيريكليس قد أصبح ملحداً . وهاك عبارة الكاتب الإغريقى القديم أنتيلوس فى هذا إذ يقول : (لقد اعتبر الرأى العام بيريكليس ملحداً منذ اللحظة الأولى التى تلقى فيها دروس أناكساغوراس) بينما سجل أفلاطون وشيشيرون على العكس من ذلك أن بيريكليس مدين لهذا الفيلسوف بكل ما كان لديه من الحكمة .

على أن هذه الحملة الآثمة التى وجهها خصوم أناكساغراس إلى مبادئه ، لم تلبث أن أنتجت نتائجها المشئومة التى كان من ضحاياها ذلك الفيلسوف الجليل الذى انتهى الأمر بأولئك الخصوم إلى اتهامه بجحود الآلهة وإقامة قضية ضد مذهبه ، ولم لا ؟ أليس هو الذى تجرأ على التصريح بوجود إله واحد مجرد عن المادة ، أو ليس هو الذى كان ينقب بعقله فى السماء ليسقط منها الألوهية الوثنية

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

القديمة ، أو ليس هو الذى بذل جهده فى إحداث انقلاب عام فى العلوم الطبيعية المقررة التى كانت بمثابة عقيدة ثابتة ، فأعلن فى دروسه أن الشمس هى كتلة من النار ، وأن القمر كوكب آهل بالسكان ، وأن الرعد ليس سوى نتيجة اصطكاك السحب ، وإذا كان الأمر كما يقرر أناكساغوراس فماذا عسى أن يصير زوس قاذف الصواعق ، وأبولون إله الشمس وأرتيميس آلهة القمر ذات الوجه الأبيض ؟ بل ماذا عسى أن يصير جميع آلهة الأولامبوس بإزاء تعاليم هذا الفيلسوف الذى تجرأ - بإعلان هذه المبادئ الجديدة - على اكتساح آلهة الإغريق وعقيدتهم التى توارثوها من قديم الزمن جيلا بعد جيل ، وإحلاله محلها ذلك الإله الواحد المجرد الذى لا يشبه أى موجود ممن عداه ، والذى ليس كمثله شىء ولا يحصره مكان ولا زمان ، ولقد كان من نتائج هذه التعاليم الآناكساغورية أن اقترح دروفيلاس الخطيب التصويت على قانون يعاقب كل الذين يساهمون فى زلزلة عقيدة الدولة . أو يحاولون أن يشرحوا الظواهر السماوية عن طريق العلم ، فتم له ما أراد . وفى نفس تلك السنة وهى سنة ٤٣٣ ق . م حكم على أناكساغوراس بالنفى ، ولما لم يكن بيريكليس يستطيع دفع الضرعن أستاذه وصديقه فقد تألم لما نزل به تألما شديداً واكتفى على مضض بأن يرافقه إلى أبعد مدى يمكن فى طريق منفاه بمدينة لامبساكيه التى بقى بها حتى توفى فى سنة ٤٢٨ ق . م ، وهى نفس السنة التى ولد فيها أفلاطون .

الدكتور محمد غلاب

من رسالة عمر فى القضاء

إلى أبى موسى الأشعرى

المسلمون عدول بعضهم على بعض ، إلا مجلودا فى حد ، أو مجربا عليه شهادة زور ، أو ظنينا فى ولاء أو نسب ، فإن الله تولى منكم السرائر . ودرأ بالبينات والأيمان .

إياك والغلق والضجر والتأذى بالخصوم ، والتنكر عند الخصومات ، فإن الحق فى مواطن الحق يعظم الله به الأجر ، ويحسن به الذخر ، فمن صحت نيته ، وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله . فما ظنك بثواب عند الله عز وجل فى عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

من تاريخ الأدب العربي الحديث :

بكرية عبد الحليم المصري

للدكتور سعد الدين الجيزاوي

« بكرية » الشاعر عبد الحليم المصري [1] هي إحدى قصائد طوال ظهرت في أخريات الحرب العالمية الأولى ، عندما تأجج الشعور العربي العام ، وثارت النفوس في مصر ، وسئم الناس رؤية الجند الأغراب من الانجليز وحلفاء الانجليز يطوفون البلاد بسلاحهم في صور من الرعب والتهديد ، ويملئون الجو بأزيز طائراتهم ، ويدكون الأرض بضخام مدافعهم ودباباتهم ، وقد ضاق الناس في مصر أشد الضيق ؛ لأنهم لم يروا في تلك الآونة بين قادة الحرب أو المسيطرين على زمام الأمور أبطالا من بني جنسهم ، وبرموا لذلك أشد البرم ، ولم يجدوا ما يسري عنهم ما قد آلمهم من الضيق والبرم إلا تذكرهم لأبطال هذه الأمة في ماضيها الغابر المجيد ، أولئك الأبطال الذين كانوا قد حولوا مجرى التاريخ ، ولم تقف أمامهم أفيال كسرى ولا حصون قيصر .

ولقد كان موقف الشعراء - الذين عاصروا تلك الفترة - من تأجج الشعور العام موقف الحائر المضطرب !! إنهم أرادوا أن يمجدوا البطولة كما مجدها أسلافهم من أمثال أبي تمام حين خلد بطولة الجيوش العربية في معارك عمورية والمتنبي حين خلد بطولة سيف الدولة الذي أذل كبرياء الروم وحطم عالي حصونهم ... غير أن هؤلاء الشعراء لم يجدوا من بني جنسهم من يستحق التمجيد ، فقد كانت الانتصارات في الحرب ، لأسماء أجنبية بغيضة إلى نفوس الشعراء كما هي بغيضة إلى نفوس الأمة جميعا .

وكان لابد للشعراء أن يعبروا عن أحاسيسهم ، ويصوروا الشعور العام ، ويسجلوا الأحداث ، ويوجهوا النفوس إلى ما فيه رفع الروح المعنوية في الأمة بعامة ، وفي الشباب بخاصة . ولكن ماذا يقولون ؟

إننا نجد أبياتا في شعر حافظ ابراهيم وأحمد محرم وغيرهما في وصف أهوال

(١) هو من الشعراء الضباط ، وأصله من مديرية البحيرة قرية فيشا . بعد أن تخرج في المدرسة الحربية التحق بخدمة الجيش بالسودان . وله ديوان من ثلاثة أجزاء ، والبكرية التي نحن بصددها منشورة بجريدة الأفكار - العدد ٢٥٢٠ في ١٩١٨/٥/٢٤ - تول سنة ١٩٢١ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الحرب ، ولم يكن من الأسماء الإسلامية بين قادة الحرب إلا أسماء بعض الضباط الأتراك ، إذ كانت تركيا التى تمثل الخلافة الإسلامية قد حالفت الألمان فى تلك الحرب التى انتهت بانتصار الانجليز وحلفائهم .

وفى إبان اشتعال تلك الحرب الضروس رجحت كفة الألمان وحلفائهم الأتراك فترة من الوقت ، واستبشرت حينذاك الأمم الإسلامية ، وظنت أن أبطال الخلافة سيحرزون النصر فيحفظون بذلك للخلافة هيبتها ، وهنا تنفس الشاعر الكبير ـ المرحوم أحمد محرم ـ الصعداء فأنشأ قصيدة كبرى من من تسعة وعشرين ومائتى بيت يمجد فيها بطولة الجيش الإسلامى جيش الخلافة ، ويشيد بموقف الخلافة من حماية الدين وأوطان المسلمين ...

ومما جاء فى هذه القصيدة (١) :

طرب الحطيم ، وكبر الحرمان
واعتز دين الله بعد هوان
قامت سيوف الفاتحين بأمره
والنصر بين مهند وسنان
ظمئت جوانحه إلى حر الوغى
فسقته شئبوب النجيع الغالى

ثم يأخذ فى وصف الجيش التركى الإسلامى:

منع الخلافة أن تضام ، وصانها
حامى الحجيج وناصر القرآن
جيش يسير به النبى ، وحوله
جند الملائك ، بينه العمران
يهتز « عمرو » فى اللواء و « خالد »
ويمور « حيدرة » بكل عنان

ولقد سجل محرم فى هذه القصيدة أسفه على ما كان بين الشريف حسين العربى الذى كان يملأ الدنيا بدعوته إلى سيادة العرب ، إذ انخدع بوعود الإنجليز ، واستسلم لمطالبهم ضاربا بالعرب ومصالحهم عرض الحائط

قال محرم :

نبئت ما زعم الشريف وقومه
فسمعت ما لم تسمع الأذنان
خدعوه إذ ضاق السبيل بمكرهم
ورموا بآمال إليه حسان
فأباح ما منعت فوارس هاشم
وحمت ولاة البيت من عدنان
ياذا الجلالة : لا سعدت بتاجه
ملكا ، سواك به السعيد الهانى

ومن خلال حيرة الشعراء ، وشدة رغبتهم فى إبراز البطولة العربية الإسلامية التى لم يجدوها ماثلة فى زمانهم ، لاح لهم خاطر أخرجهم من حيرتهم ، وفتح لهم بابا واسعا يشبعون فيه رغباتهم فى تمجيد تلك البطولة

(١) مخطوطة من بين مخطوطات محرم العديدة ، وله قصيدة أخرى من ٦٠٠ بيت فى وصف حرب الترك واليونان بين ١٩٢١ و ١٩٢٣ فيها صور بارعة .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

المحببة إلى نفوسهم ، ذلك أنهم اتجهوا إلى تاريخ هذه الأمة المجيد ، واتخذوا من بطولات السالفين صورا يشيدون بها ويعرضونها على شباب الأمة ، لتكون لهم فيها قدوة ، وتخلق فى نفوسهم معانى العزة والكرامة ، وتدفع عنهم اليأس ، وتبعث عندهم الأمل فى مستقبل كريم . وكان هذا الاتجاه من شعراء تلك الفترة محموداً مشكوراً ، وقد برزت فيه رسالة الشعر جلية واضحة ، وأدى فيه أولئك الشعراء رسالتهم لأمتهم خير الأداء .

وكانت أولى هذه القصائد الطوال هى عمرية حافظ ابراهيم (١) التى ألقاها فى حفل عام ، وقد أبرز فيها صوراً ناضرة من حياة عمر بن الخطاب كحاكم عادل ، وسياسى بارع ، ومصلح اجتماعى ، وقد بين فى ختامها هدفه من إنشادها . قال :

هذى مناقبه فى عهد دولته
للشاهدين وللأعقاب أحكيها (٢)

فى كل واحدة منهن نابلة
من الطبائع تغذو نفس واعيها

لعل فى أمة الإسلام نابتة
تجلو لحاضرها مرآة ماضيها

حتى ترى بعض ما شادت أوائلها
من الصروح ، وما عاناه بانيها

وحسبها أن ترى ما كان من عمر
حتى ينبه منها عين غافيها

وبعد حوالى ثلاثة شهور (١) من إذاعة قصيدة حافظ ، نشر المرحوم عبد الحليم المصرى بكريته يعرض فيها صورة كاملة لرجل آخر من الرعيل الأول من المسلمين ، كان أول الخلفاء الراشدين ، وله فى إرساء دعائم قواعد الإسلام والدولة الإسلامية فضل بارز ، وقد أخذت تخضع للعرب فى عهد دولته دولتا الظلم والطغيان : فارس والروم ، وارتفعت الراية الإسلامية العربية تعلن العدل ، والمساواة ، وزوال عهود العبودية والاستبداد .

وإذن فقد ظهرت هذه القصيدة الكبرى - مع سابقتها ثم ما تلاهما (٢) - فى وقت كانت

(١) ألقاها فى ٨ فبراير ١٩١٨ بمدرج وزارة المعارف (ص ١ من الديوان ص ٧٢ - وأبياتها ١٨٧) مطبعة دار الكتب .

(٢) الديوان ص ٩٧ ص ١ - نابتة : سجية شريفة . نابتة : يقصد الناشئين . للحاضر : الناشئ .

(١) ألقى حافظ قصيدته فى ٨ فبراير ١٩١٨ ونشرت البكرية فى ٢٤ مايو سنة ١٩١٨ وهى من أحد عشر ومائتى بيت .

(٢) ظهرت العلوية الكبرى من ٣٠٧ (سبعمائة وثلثمائة بيت) فى عام ١٩١٩ ترسم صورة الخليفة الرابع على بن أبى طالب ، وحوالى تلك الفترة كان شوقى قد نظم « أرجوزة العرب الكبرى » وهو منفى بالأندلس - من ١٧٢٦ (ستة وعشرين وسبعمائة وألف بيت) بعنوان : « دول العرب وعظماء الإسلام » وصف فيها الأمم الاسلامية وعظماء الأبطال المسلمين من أول ظهور الإسلام إلى نهاية دولة الفاطميين بمصر .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

نفوس الناس فى مصر وسائر البلاد العربية أشد ما تكون قلقا واضطرابا بسبب ما وصلت إليه الأحوال العامة فى هذه البلاد الإسلامية من النكسة والضعف وسيطرة المستعمر . فجاءت كشعاع ضوء فى وسط ظلام دامس تطمئن النفوس ، وتفتح أبواب الأمل

تضمنت البكرية سبعة عشر غرضا وهى : مقدمة إجمالية ـ تصديقه بالإسراء ـ شراء الموالى فى الغار ـ شجاعته يوم بدر ـ رأيه فى صلح الحديبية ـ رأى النبى فى أبى بكر ـ بعد وفاة النبى تسيير جيش أسامة ـ حرب أهل الردة ـ غزو الروم والفرس ـ أبو بكر وذو الكلاع ـ اتجاره فى الخلافة ـ هو وعمر ـ وفاة ابنه عبد الله ـ يوم وفاته ـ الخاتمة .

ونرى من هذا التقسيم أن الشاعر قد جعل أكبر اهتمامه فى إبراز شخصية أبى بكر ، وقوة إيمانه ، وعدالته ، وهو يهدف من خلال ذلك إلى رسم الصورة المثالية للحاكم المؤمن الساهر على صالح رعيته . . دون أن يتعرض للحسب والنسب وكرم المحتد ...

والمقدمة فى أربعة عشر بيتاً ، وقد بدأها بلفتة مهذبة اعتذر فيها إلى مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لم يبدأه بمدحه وعلل ذلك تعليلا طريفاً إذ اعتبر أن شعره لا يسمو إلى مقام الرسول ، ومن ثم فهو عاجز عن بلوغ ذلك المقام السامى لا مقصر :

أفضنى أبا بكر عليهم قوافيا
وأمطر لسانى حكمة ومعانيا
وقل لرسول الله : لا يجز زلتى
إذا لم أكن فيه بقولى باديا
مقام رسول الله فوق قصائدى
وهل شرر النبراس يجدى الدراريا؟

وبعد أبيات يأخذ فى بيان الهدف الذى جعله يتجه إلى اختيار أبى بكر :

فآمنت بالإلهام فيك ، وإن أقل :
تعهدنى وحى ، فلست مغاليا
بأول صديق ، وأول مؤمن
وأول شورى أشد رجائيا
وأضرب أمثالا لقوى تجيئهم
بصورة شيخ المسلمين كما هيا
عسى أن يعيدوا ما أضاعوا من الهدى
وأن يتلافوا منه ما كان باقيا
وحتى يروا أن الخلافة لم تكن
مظاهر فى إبانها ومرائيا
وأنك لم ترق الخلافة بالغنى
ولا السن . لكن بالنهى كنت راقيا

* * *

أولئك قوم لا يحابون سيدا
ولا عرفوا فى جانب الحق عاليا

بهذه المقدمة التى رسم فيها صورة الحاكم

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وطريقة اختياره بدأ قصيدته ، ونلمس هنا تعريضا بما كان عليه اختيار الحاكم فى مصر حينذاك عن طريق الوراثة وإشارة المستعمر.

ثم انتقل الشاعر بعد ذلك إلى وصف نكران قريش لما سمعوه من الرسول الأمين عن الإسراء ثم ما كان من تصديق أبى بكر لكل ما سمع وأكثر مما سمع فى ستة عشر بيتا انتقل بعدها إلى الحديث عن رقة قلب أبى بكر حين رأى بلالا يعذب بالسياط فى حر الظهيرة فأسرع إلى شرائه وعتقه :

فلما أفاض النفس إلا صبابة
إذا ما رآها الموت لم يدر ما هيا
أطلت عليه رحمة الله من يد
ترى البرق فى ديباجة الغيث وانيا
رأى نور عيش فى ظلام منية
يلوح أبو بكر به متهاديا
تعرض ما بين الحمام وبينه
وكان له فى الله بالمال فاديا
كريم يرى ما فى يد الناس فانيا
وليس يرى ما فى يد الله فانيا

وأخذ بعد ذلك يصور موقف أبى بكر فى غار ثور وكيف اقتدى النبى عليه الصلاة والسلام :

إذا لدغتك الجن ألفتك صابرا
على السم ، تخشى أن تروع غافيا
ولم يبق منك الوهن إلا أصابعا
فألفتها دون النبى الأفاعيا

وبعد أن صور شجاعة أبى بكر فى غزوة بدر ، وقيامه حارسا ساهرا على عريش النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم أشار إلى بعد نظر أبى بكر فى صلح الحديبية ، وما كان من رأى النبى فى أبى بكر حين استخلفه فى إمامة الناس قبيل وفاته ، وما كان من موقف أبى بكر حين انتقل الرسول الكريم إلى الرفيق الأعلى وارتج معسكر المسلمين ، وأظهر أبو بكر من الشجاعة والثبات وتذكير الناس بآيات من الكتاب الكريم ما أعاد إلى الناس صوابهم ... انتقل بعد ذلك إلى ذكر تسيير جيش أسامة ، وما كان من تواضع أبى بكر حين مشى إلى جانب فرس أسامة . وهنا انتهز فرصة وصف الجيش وأدب الحرب ، وكأنى به يعرض بقادة الحرب التى كانت دائرة .

وقفت أمام الجيش ترفد أسه
وتضرم من تلك العواطف خابيا
يكاد يشق النار إن صحت آمرا
ويرتدخوف الظل إن صحت ناهيا
تقول لهم : لا تحملوا غير زادكم
ولا تفسدوا عذبا من الماء جاريا
ولاتهلكوا زرعا ولا تهتكوا حمى
ولا تستبيحوا نسوة وزراريا
ولا تحرقوا باللائذين كنائسا
ولا تهدموا باللاجئين مغانيا

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ولا ترهقوا الأسرى، فرب محارب
إلى الحرب يسعى مكرها لامعاديا

ثم أخذ يصور موقف أبى بكر من مانعى الزكاة واعتبارهم مرتدين عن الإسلام ثم قتالهم وتثبيت ركن من أركان الإسلام ... وانتقل بعد ذلك تسيير الجيوش تلو الجيوش لغزو الروم وفارس، وكيف ألف أبو بكر بين قلوب العرب ليقفوا صفا واحدا ضد الطغاة الظالمين :

لأنتم هداة الناس ، والأمة التى
إذا افترقت فى الأرض عادت كما هيا

فيا عرب : اشتدوا ، فإنى لرافع
عليكم إلى يوم الحساب لوائيا

ثم انتقل إلى الحديث عن عفة الحاكم ونزاهته بما رسمه لأبى بكر من صورة الخليفة الذى يأكل من كسب يده بالاتجار ، فلما خوطب فى ذلك لم يطمع فيما فى بيت المال بل اكتفى بما يكفيه :

فقيل له : ألهتك عنا تجارة
إذا عدت بزازا فلا تك راعيا

فقال : أيرجى رعيكم فى خلافتى
إذا كنت فيها ليس أرعى عياليا ؟

فقالوا له : نعطيك « فرض مهاجر »
ونأخذ من ثوبيك ما كان باليا

فقال : لقد أغنيتمونى بفرضكم
وحسبى ما سد الطوى وكسانيا

كفيتم أبا بكر ، فردوا تجارتى
إلى بيت مال المسلمين وماليا

كما صور هيبة أبى بكر حين قدم عليه « ذو الكلاع » بموكبه الفخم وخدمه وحشمه، وذهبه وجواهره ، وكبره وعجبه ، فرأى خليفة المسلمين العظيم فى ثياب متواضعة : لا خدم ولا حشم ، ولا عبيد ولا إماء ، ولا زينة ولا جوهر ...

فلما رأى من نسج تيم مجاسدا
يكاد يرى فيها الخليفة عاريا

تولته من أمر الخلافة دهشة
فألقى الحلى والخز ، وارتد حافيا

وقال : كذا دين المساواة ، فلتكن
خلافته حرية وتآخيا

ومن ضمن الإجلال فى كل بردة
رأى ما وقاه الحر والبرد كافيا

وقد عرض قصة طريفة عن سبقه لعمر بن الخطاب فى غشيانه بيوت العجائز سحرا لإصلاح شئونهم ، وتقصيه فى حاجاتهم ... ثم تحدث بعد ذلك عن موقفه من تركة ابن عبد الله على ضآلتها وردها إلى بيت المال ثم وصيته أبى بكر قبيل وفاته برد ما يملك لبيت المال :

وقال - وقد حان الفراق - لبنته :
إذا مت ردى عبدهم ورداثيا

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ولا تدفنونى فى الجديد ، فإنما
أحق به من كان فى الناس عاريا
وردى عليهم حائطى فى دراهم
تقاضيتها منهم ، وردوا صحافيا
خرجت من الدنيا بنفسى ، وليتنى
خرجت معافى ، لا على ولا ليا
ومات ، ولم يترك تليداً لوارث
يقوم به فى الوارثين مباهيا
وما نال أبناء الخليفة ضيعة
ولا قام منهم من يقول : تراثيا

هذا هو أبو بكر خليفة المسلمين الأول ، والحاكم الساهر على مصالح رعيته ، يخرج من الدنيا لا مال ولا نشب ، ولا قصور ولا ضياع كتلك التى كان يتمتع بها سلاطين مصر وحكامها .

أما الخاتمة ، فقد أفرغ الشاعر فيها كل مشاعره ، وركز فيها ما تكنه نفسه من آلام على الماضى الزاهر ، وسخط على الحاضر القاسى المظلم ، وتمنى لو أن المسلمين تفقهوا سيرة أبى بكر وساروا على نهجها :

فذكرك فى الأحياء سال مدامعاً
وذكرك فى الأموات حال مراثيا
فمن لى بدمع المسلمين الذى جرى
وما سوف يغدو للأجنة جاريا
سنبذل من تلك العيون كرائما
ونرخص من تلك الدموع غواليا
وفاء وتحنانا إلى الزمن الذى
تضوع من عطر الخلافة ذاكيا
ليالى كان الناس : لا المال ذخرهم
وما هو إلا مال من جاء عافيا
وما فضل مولود على مال والد
وما ذنب مولود من المال خاليا
ولا فرق فيهم بين مولى وعبده
إذا جاءهم عبد لمولاه شاكيا
وما الحق إلا حائط بين قوة
وضعف ، وأس العدل إلا تقاضيا
أرب أبى بكر : ستخلق مثله
فيدرك من بنيانه مترامياً
ذكرت أبا بكر لقومى ، وليتنى
بلغت به فى القول ما كنت راجيا
لعل سراة الدهر تدرك فجره
فإنى أرى الأصباح تتلو الدياجيا

ورحم الله شاعرنا الكبير ، فقد حقق الله أمنيته وخلق من يحيى سياسة أبى بكر ، فقد رأينا الدياجى تنقشع ، وتحل مكانها الأصباح ، ورأينا رائد العروبة جمال عبد الناصر فى زماننا هذا لا يألو جهداً فى تقصى سيرة أبى بكر ورفع راية العروبة والإسلام ، وجمع العرب فى صف واحد حتى تعود لهذه الأمة المجيدة مكانتها اللائقة بها .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وبعـــد :

فتلك هى بكرية الشاعر عبد الحليم المصرى عرضناها فى إيجاز يتناسب وصفحات المقال. وقد رأينا أن هذه القصيدة الكبرى كانت قد ظهرت فى وقتها المناسب، متضمنة صفحة ناضرة من التاريخ الإسلامى فى أزهى فتراته، رجاء أن تنعكس ما فيها من صور على أهل الزمن الذى أنشدت فيه، فتنير لهم الطريق إلى المعالى، وتأخذ بيدهم إلى مراقى العزة والكرامة.

وقد سار الشاعر على الأسلوب المألوف فى الشعر العربى من حيث الوزن والقافية والعناية بذكر الحقائق... وقد سرد الأحداث مسلسلة، ولم يعمد إلى غريب الألفاظ بل إنه توخى السهل الميسور ولعله أراد بذلك أن يعم نفع القصيدة فى يسر.

وبحكم طبيعة الموضوع، والدقة فى تلخيص الإشارات التاريخية، لم يطلق الشاعر العنان للخيال، بل كان السرد يغلب عليه أحيانا فى بعض الأبيات مثل قوله عند الحديث عن الإسراء:

أتى المسجد الأقصى، ورد براقه
إلى الطبقات السبع لم يخش عاديا
فصلى بمن فيها، وكلم ربه
وأصبح فى بطحاء مكة داعياً

وجاءت بعض الأبيات كأنها حكم مرسلة:

ومن ضن الإجلال فى كل بردة
رأى ما وقاه الحر والبرد كافياً

وما فضل مولود على مال والد
وما ذنب مولود من المال خالياً

وما الحق إلا حائط بين قوة
وضعف، وليس العدل إلا تقاضيا

وقبل أن أختم حديثى عن بكرية هذا الشاعر العظيم عبد الحليم المصرى أقول:

إن هذا الشاعر من أولئك الشعراء الذين عاصروا فترة طويلة من زمن الخلافة العثمانية وفترة الاحتلال البغيض. وله فى ديوانه، وفى طيات الصحف كثير من الشعر الإسلامى والوطنى، ولم يلق بعد ما يستحقه من عناية بالدراسة والعرض. وإنى أعتبر شعراء تلك الفترة من أمثال عبد الحليم ونسيم وصبرى ومحرم وحافظ وشوقى وغيرهم من المصورين البارعين الذين سجلوا أحداث ذلك الزمن، وما كان فيها من صراع دائم. وأرجو أن يلقى عبد الحليم المصرى مثل ما لقى بعض زملائه من دراسة وتكريم

وفقنا الله جميعاً إلى ما فيه الصواب.

دكتور

سعد الدين الجيزاوى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

نظرات في فقه عمر

لفضيلة الأستاذ محمد محمد المدني

— ٩ —

(١) روى مالك بسنده في «الموطأ» عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام ، حتى إذا كان بسرغ (٢) ؛ لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه ، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام قال ابن عباس : فقال عمر بن الخطاب : ادع لي المهاجرين الأولين بالشام ، فاختلفوا فقال بعضهم قد خرجت لأمر ولا نرى أن ترجع عنه ، وقال بعضهم : معك بقية الناس وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء ، فقال : ارتفعوا عني ، ثم قال : ادع لي الأنصار ، فدعاهم فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم ، فقال : ارتفعوا عني ، ثم قال : ادع لي من كان ههنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح ، فدعاهم فلم يختلف عليه منهم رجلان ، فقالوا : نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء ، فنادى عمر في الناس : إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه فقال أبو عبيدة : أفراراً من قدر الله ؟ فقال عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ؟ نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله ! أرأيت لو كان لك إبل فهبطت واديا له عدوتان إحداهما مخصبة ، والأخرى جدبة ، أليس إن رعيت المخصبة رعيتها بقدر الله ، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله ؟ فجاء عبد الرحمن بن عوف ـ وكان غائبا في بعض حاجته ـ فقال : إن عندي من هذا علما : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه . قال : فحمد الله عمر ، ثم انصرف » .

* * *

وفي هذا الحديث أمور تصور لنا بعض الجوانب من فقه عمر .

---

(١) تأخر هذا المقال عن موضعه لأنه تأخر عن موعده .

(٢) قرية بوادي تبوك في طريق الشام .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

١ — فمن ذلك أن عمر رضى الله عنه كان قادما إلى الشام ، ليطالع أحوالها ، ويتعرف شئون أهلها ، وتلك سنة كان عمر أول من سنها فى الإسلام، وسار عليها من بعده الحذاق من الولاة والحكام : أن يزورا البلاد والأقاليم النائية كلما دعت إلى ذلك حاجة ، بل يزورها ليتفقد شئونها ، ويتعرف على أهلها ، ويتعهدها عن كثب ، ولو لم تدع حاجة خاصة إلى ذلك ، فإن من شأن هذه الزيارات أن توثق الصلات بين الحاكمين والمحكومين ، ولذلك يقول الفقهاء : إن على الإمام إذا بعد عهده بالثغور أن يتطلعها بالمشاهدة ، وألا يكتفى بما يرد إليه عنها من خبر ، فإن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، وقد عرفت لعمر رحلات منها هذه الرحلة ، ومنها رحلته إلى بيت المقدس ، ومنها رحلته التى أنجد فيها أبا عبيدة حين حصره الروم بحمص ، إذ خرج عمر بنفسه لينصر أبا عبيدة فبلغ (الجابية) فلما سمعت الروم بقدومه أصابهم رعب شديد وضعفوا جدا فى حصارهم ، فأشار خالد على أبى عبيدة بأن يبرز إليهم ليقاتلهم ، ففعل ذلك أبو عبيدة ، ففتح الله عليه ونصره ، وهزمت الروم هزيمة فظيعة، وذلك قبل ورود عمر عليهم ، وقبل وصول الإمداد إليهم بثلاث ليال، فكتب أبو عبيدة إلى عمر وهو بالجابية يخبره بالفتح وأن المدد وصل إليهم بعد ثلاث ليال ، وسأله : هل يدخلهم فى القسم معهم مما أفاء الله عليهم ، فكان من فقه عمر أن أمره بأن يدخلهم معهم فى الغنيمة ، فإن العدو إنما ضعف ، وإنما انشمر عنه المدد من خوفهم منهم .

وذكروا أن عمر كان قد عزم على أن يطوف البلدان ، ويزور الأمراء ، وينظر فيما اعتمدوه وما أثروا من الخير ، فاختلف عليه الصحابة ، فمن قائل يقول : ابدأ بالعراق ومن قائل يقول بالشام ، فعزم عمر على قدوم الشام لأجل قسم مواريث من مات من المسلمين فى طاعون عمواس ، فإنه أشكل قسمها على المسلمين بالشام ، فعزم على ذلك ، وهذا يقتضى أن عمر عزم على قدوم الشام بعد طاعون عمواس ، وقد كان الطاعون فى سنة ثمانى عشرة من الهجرة .

وذكروا أن عمر أتى الشام أربع مرات مرتين فى سنة ست عشرة ، ومرتين فى سنة سبع عشرة ، ولم يدخلها فى الأولى من الأخريين .

٢ — ومن ذلك أن عمر رضى الله عنه كان على قوته وكمال ثقته بنفسه ، وعلو كعبه فى الحكم والسياسة ، يحب الشورى ولا يكاد يبرم أمرا إلا بعد أن يجمع له أهل الرأى ، ويظل يراجعهم فيه ويراجعونه ، مستمعا إلى مختلف الحجج ووجوه النظر ، حتى يحيط

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بأطرافه ثم يحكم حكمه فيه عن بينة ، وذلك كله تحقيقا لقوله تعالى «وأمرهم شورى بينهم» وانتفاعا بالنهج القويم الذى سنه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم حيث يقول : « وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله » .

ويبدو هذا النهج القويم فى الأمر الذى ذكره هذا الحديث ، فإن عمر رضى الله عنه فوجىء بنبأ الوباء ، فأدرك بفطرته الصافية أن من واجبه التريث والتوقف عن إتمام الرحلة فليس من الرأى أن يزج بنفسه وهو أمير المؤمنين الذى يجب عليه أن يحتفظ بحياته الغالية لأمته ، أو أن يزج بمن معه من وجوه الصحابة رضوان الله عليهم ، فى هذا الخطر ، فإن الله تعالى يقول: « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » ويقول : « ولا تقتلوا أنفسكم » فينهى عن بذل النفس فى غير جهاد أو قصد لإعلاء كلمة الله تعالى ، أو تحقيق لمصلحة من مصالح المسلمين .

ولقد كان هذا الأمر واضحا لدى عمر ، وليس من شأنه أن يلتبس على مثله ، ولكنه مع ذلك رأى أن يشرك منه أهل الشورى فلا يعزم على الرجوع حتى يستبين الأمر لهم كما هو بين أمامه ، ومن ثم دعا المهاجرين ثم دعا الأنصار ، ثم دعا شيوخ قريش من مهاجرة الفتح ، واستشارهم فريقا بعد فريق وإنما لم يجمعهم دفعة واحدة لأنه أراد أن يترك الفرصة للناظرين ، حتى يترسب الرأى فى أعماقهم . فلا يكون رأيا فطيرا ، وحتى يكون لديه هو أيضا فرصة التأمل فى مختلف الآراء ، والتعمق فى فحصها والموازنة بينها .

وهناك عامل نفسى لا بد أن يكون عمر قد لاحظه ، وهو مما تجرى به عادة الجماعات دائما ، فالناس إذا كانوا سائرين فى اتجاه معين ، كهؤلاء القادمين إلى الشام مع أمير المؤمنين ، لا يسهل عليهم أن يردوا عنه دفعة واحدة ، فإنهم يذهبون فى تفسير هذا الرد مذاهب شتى ، وربما أدركت كثيراً منهم بلبلة الشك أو حيرة الوهم ، لذلك كان من حكمة عمر أن توقف ، ثم استشار فريقا من الناس بعد فريق ، فترك الأمر يختمر بينهم ، وترك الرأى يشتجر ، ثم اعتزم الرجوع عن هذه الرحلة متوكلا على الله فى هذه العزمة ، غير خائف أن تدرك أحداً من رجاله حيرة أو بلبلة ، فنادى فى الناس : إنى مصبح على ظهر فأصبحوا عليه يريد السفر ووصفه بذلك ، لأن المسافر ومتاعه يصير على ظهر الخيل والإبل والدواب وكان السفر هو سفر الأوبة والرجوع .

ومن مواقف عمر فى الشورى موقفه يوم أراد الخروج إلى العراق ليشهد الفتوح مع جند المسلمين ، فقد كان عمر رضى الله عنه بين أمرين : إما أن يخرج كما يخرج سائر

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

المجاهدين ، فهو رجل منهم ، ولا يحق له أن يأمرهم بالجهاد ويقعد عنه ، وإما أن يبقى فلا يخرج حتى يكون هو مرجع الجيش ومستنده الذى يستند إليه ، يمده إذا أراد المدد ويبعث إليه بالقائد إذا احتاج إلى غير قائده .

وكان عمر لا يخفى عليه أن الخطة الأخيرة هى الرأى السديد ، الذى لا رأى سواه ، فإنه رئيس الدولة ، ولا بد له من أن يكون هو الموجه لها ، والمدبر لأمورها ، فلا يصلح أن يذهب بنفسه لقتال الأعداء ، وقيادة الجيوش ، ولكنه مع ذلك طرح الأمر على الناس طالباً المشورة ، فجمعهم فى المسجد وأخبرهم الخبر ، فقال العامة : سر وسر بنا معك ، فدخل معهم فى رأيهم وكره أن يكون هو الذى يبين لهم فساد هذا الرأى ، حرصاً على صلاح نفوسهم وألا تراود أحداً منهم الظنون ، وقال لهم : استعدوا وأعدوا فإنى سائر إلا أن يجىء رأى هو أمثل من ذلك ، ثم بعث إلى أهل الرأى ، فاجتمع إليه وجوه أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : أحضرونى الرأى ، فأجمعوا على أن يبعث رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويؤيده بالجنود ، ويقيمه أمام العدو ، ويمده بالمدد فإن كان الذى يرجى من الفتح على المسلمين فذاك ، وإلا أعاد رجلا وبعث رجلا آخر ، وفى ذلك ما يغيظ العدو .

وقام عبد الرحمن بن عوف فأيد هذا الرأى ، وتسابق إليه الناس واجتمعوا عليه ، فنزل عمر على رأيهم ، وقال : أيها الناس . إنى كنت كرجل منكم حتى صرفنى ذوو الرأى منكم عن الخروج ، فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلا .

وهكذا تتجلى حكمة عمر وحسن سياسته ، فإنه لم يحمل الناس على ما اعتقد أنه الرأى قسراً ، ولو شاء لفعل فهو أمير المؤمنين المطاع فيهم ، ولكنه شاورهم وبدأ بعامتهم وسائر هؤلاء العامة فيما رأوا ، ثم شاور الخاصة فأشاروا بالرأى فنزل عليه .

ولعمرى إن هذا فى السياسة وفن الحكم لفقه عظيم .

وقد يبدو أن عمر رضى الله عنه كان فى حرصه على الشورى متأسياً بصاحبه الصديق رضى الله عنه :

فقد أخرج البغوى عن ميمون بن مهران قال : (كان أبو بكر إذا ورد عليه الخصوم نظر فى كتاب الله ، فإن وجد فيه ما يقضى بينهم قضى به ، وإن لم يكن فى الكتاب وعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك الأمر سنة قضى بها ، فإن أعياه خرج فسأل المسلمين وقال : أتانى كذا

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وكذا ، فهل علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى فى ذلك بقضاء ، فربما اجتمع عليه النفر كلهم يذكر فيه عن رسول الله قضاء ، فإن أعياه أن يجد فيه سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع رءوس الناس وخيارهم فاستشارهم ، فإن أجمع رأيهم على شىء قضى به ، وكان عمر رضى الله عنه يفعل ذلك ، فإن أعياه أن يجد فى القرآن والسنة نظر هل كان فيه لأبى بكر قضاء ، فإن وجد أبا بكر قضى فيه بقضاء قضى به ، وإلا دعا رءوس الناس فإذا اجتمعوا على أمر قضى به) .

لكن لا ينبغى أن يفوتنا أن هذا منهج قضائى جزئى ، لا منهج حكمى سياسى ، فالقضاء مجال يجب فيه التأسى والتماس ما هو مشروع بالفعل مسطورا كان أو مستنبطا ، إذ الفرض أن الخصوم مرتبطون فى قضاياهم بقانون معين ، وأن تصرفهم محكوم بمواده التشريعية ولو لم يعلموها ، فمن واجب القاضى أن يبحث عن مواد هذا القانون ويطبقها على الخصوم فى قضاياهم الجزئية ، ولا يعتبر سؤال الناس من أبى بكر أو من عمر رضى الله عنهما فى هذا المجال إلا استطلاعا للحكم المتقرر إن كان فى الأمر حكم متقرر من الشرع ، فإن لم يعلم فى ذلك حكم متقرر كانت الاستنارة فيما يحكم به فى هذه الجزئية بمثابة استنباط المجتهد للحكم ليقضى به .

وينبغى أن يلاحظ أيضاً أن هذه الرواية تقرر أن كلا من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ما كانا يحكمان ، إذا استشارا رءوس الناس ، إلا بما يجمعون عليه .

ويؤيد ذلك ما رواه السرخسى فى المبسوط إذ يقول : (كان عمر يستشير الصحابة مع فقههم ، حتى كان إذا رفعت إليه حادثة قال : ادعوا لى علياً ، وادعوا لى زيداً . . فكان يستشيرهم ثم يفصل بما اتفقوا عليه) .

وهذا كله إنما هو فى مجال القضاء ، واستقصاء الوسائل التى تعرف بالحكم المشروع ، أو تستنبطه ليكون قانوناً يحكم به .

وكلامنا حين أثبتنا لعمر رضى الله عنه خاصية الشورى إنما هو فى حكمه السياسى العام ، فإنه طابع انفرد به ، ولم يكن يلتزم فيه أن يقع الإجماع على أمر فيأخذ به ، أو يختلف الناس فيقف من خلافهم موقفاً سلبياً ، بل كان ربما رأى الكثرة فى جانب ، والقلة فى جانب ، فأخذ برأى القلة لأنه انقدح فى نفسه صوابه وصلاحيته ، وأكثر ما كانت استشاراته التى من هذا القبيل فى المبادئ العامة ، لا فى الأحكام الجزئية .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وأمر آخر يختلف فيه المجالان : هو أن مجال التشريع القضائى فيما روى عن أبى بكر وعمر ، كان يستشار فيه رءوس الناس ، أما مجال الشورى فى الحكم العام والمبادئ فلم يكن قاصرا على رءوس الناس، إنما كان شاملا للعامة والخاصة كليهما ،ولعل ذلك المنهج العمرى هو الأصل فيما نعرفه الآن من أن الشورى ليست حكراً على الخاصة دون سواهم من عامة الشعب ، بل هى حق للجميع .

ويهمنا قبل أن نترك الحديث عن المنهج العمرى فى الشورى أن نقرر أمرين :

أحدهما : أن الشورى فى المبادئ العامة وفى سياسة الحكم قد تكون وقعت على عهد أبى بكر ، ولكننا لم ننسبها إلى عهده رضى الله عنه ، لقلة حوادثها ، ولاشتراك عمر نفسه فيها ، فقد كان من أبى بكر بمثابة الوزير والمشير ، ولم يكن أبو بكر يستقل من دونه بشىء .

الأمر الثانى : أن الإسلام أمر بالشورى ، وامتدح المؤمنين بقوله : « وأمرهم شورى بينهم » ، ولكنه لم يحدد للشورى نظاما معيناً ، ولم يبين من الذين يستشارون ، وهل يؤخذ رأى الكثرة كائناً ما كان ، إلى غير ذلك مما اقتضته النظم الحكمية والسياسية فيما بعد .

والسر فى ذلك أن الإسلام لا يريد تقييد المسلمين بأوضاع معينة ، بل يريد لهم أن يكونوا مرنين فى اختيار ما تقضى به المصلحة والتطور الزمنى والسياسى مع الاحتفاظ بجوهر الشورى .

وإذن فالصورة التى اختارها عمر ابن الخطاب إنما هى وجه من وجوه الشورى ، لنا أن نحتفظ به ، ولنا أن نعدل فيه ، وقد عرف التاريخ للأندلسيين أنهم كونوا مجلساً للشورى يعين أعضاؤه من قبل الخليفة ويمثل فيه مختلف أهل الرأى والتفكير ؟ .

محمد محمد المدنى
عميد كلية الشريعة

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بين العلم والعمل

للأستاذ محمود النواوى

إذا كان للفظ (العلم) معان مختلفة باختلاف الأوضاع والمصطلحات . فإنما يعنينى هنا ما يعنى المنتسب إلى الدين والذى يتخاطب باصطلاحاته فيما يورده من ألفاظ .

فالعلم إذا هو تلك المجموعة من المعادن التى أساسها ما تنزلت به الأديان السماوية لهداية البشر فى عقائدهم وعباداتهم لخالقهم وتعاملهم فيما بينهم وفى صفاتهم وأخلاقهم التى يحق عليهم أن يكونوا عليها حتى تتم عمارة الأرض على وجه يرضى الرب ، وينشر السلام والحب ، وحتى يتحقق المعنى الذى من أجلهم خلقوا . وهو عبادته وشكره على خير وجه يقوم نفوسهم ويطهر قلوبهم مما يشير إليه القرآن الكريم بيانا لأرسال الرسل ، وما يحققه ذلك الإرسال ، فى مثل قوله سبحانه (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز . ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ، ورهبانية ابتدعوها) الآية .

والميزان كما نقل ابن كثير عن مجاهد وقتادة وغيرهما هو الحق الذى تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة ومساق على ذلك عدة أدلة وشواهد من القرآن الكريم .

فالعلم هنا هو معادن تلك الأديان المصلحة للبشر وهو الذى أردت أن أبين الصلة بين إدراكه وتحصيله . وبين العمل به ، أهناك لزوم بين الأمرين . أم هناك انفكاك يحول دون ذلك الزوم ؟ وهذه المسألة فى ذاتها مما تناوله الناس قديما بالنظر فوقع الخلاف بينهم فى صلة العلم فى ذاته بالعمل به . وقال قائلون إن العلم الصحيح يلزمه العمل فإذا تخلف العمل بالعلم عنه لم يكن علما وكان صاحبه غير عالم . وإلا كان عبثاً وفعل العاقل يصان عنه ومحال أن ترى أفعى تحاول أن تهلكك ، أو عدوا يريد أن يفتك بك ، ثم تعرض عن مقاومة ذلك ، إلا إذا لم تكن على علم بما يراد بك وإلا لم تكن من أهل العقل ! ويستدل لذلك بعض الإسلاميين

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بما يدل على أن من وقع فى الخطيئة فهو جاهل وأن من يقارفها فهو مجرد عن العلم كقوله سبحانه (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) الآية فمن عمل السوء فهو جاهل غير عالم وإن كان اسمه عالما غير جاهل . وقد نقل هذا المعنى عن مجاهد وغيره من أئمة الصحابة والتابعين قالوا كل من عصى الله خطأ أو عمدا فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته ويستدل بعضهم بما ثبت عن أبى الدرداء وهو مرفوع فى بعض الروايات إلى النبي صلى الله عليه وسلم « لا يكون المرء عالما حتى يكون بعلمه عاملا » .

فإنه يدل على أن من لا يعمل بالعلم لا يكون متصفا به .

ويقول بعض الناس : إن العلم إنما يرفع نقيضه وهو الجهل وهو لا يستلزم العمل بمقتضاه ولا ينافى عدم العمل به فهو لا يرفع ضلالا ولا مأثما ، وكم من عالم غزير المادة واسع الإطلاع والأخذ ، وهو متورط فى الموبقات دائب الانقياد للشهوات ومنهم دون ذلك ، فالعلماء متفاوتون بين عامل صادق وعامل خالط ، وغير عامل ولا موفق ، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ، ويؤيد ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم مثل ما بعثه الله به من الهدى والعلم بالغيث الكثير أصاب أرضا فكانت منها بقعة نقية قبلت الماء فأنبتت العشب والكلأ وكان منها أجادب أمسكت الماء للناس فشربوا وسقوا وملئوا أسقيتهم وأصاب منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ... فهذا وأمثاله يدل دلالة واضحة على أن العلماء متفاوتون بتفاوت استعدادهم وتوفيق الله لهم ، وأن الهدى يختلف الانتفاع به باختلاف من يوجه إليه ، وتدل الأخبار على أن العلم تارة يكون حجة على صاحبه (والقرآن حجة لك أو عليك) كما أن هناك آيات كثيرة وأحاديث صحيحة تدل على شقاء من لا يعمل بالعلم وعظم جرمه فكيف يقال إن العلم يلزمه العمل به لو كان كذلك لم ينع القرآن والسنة والحكماء على العالم المخذول غير العامل ، واللازم باطل قال الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه » الآية .

وقال سبحانه : « وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا » ولست هذه الآية الكريمة على أن أم العلم وأصله والذى تصدع الجبال من خشية الله لو وجه إليها ، وهو القرآن الكريم

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

قد لا ينتفع به من يوجه إليه فكيف بغيره من المعارف ؟ . وفى السنة الكريمة من ذلك الشيء الكثير مثل حديث العالم الذى تتداق أقتابه فى جهنم لأنه كان يأمر الناس بالخير ولا يأتيه . وحديث خوف النبي صلى الله عليه وسلم من المضلين أكثر من خوفه من الرجال وحديث : العلم علمان علم على اللسان فذلك حجة الله على عباده وعلم فى القلب فذلك النافع

وما أكثر ما جاء فى كلام الصحابة والتابعين والحكماء من ذم من لا يعمل بعلمه ، والتنديد به ، مما يدل على دلالة واضحة على أنه لا تلازم بين الأمرين . وهو أمر مشاهد ملموس وقد كنت ناصرت هذا المذهب فى بعض دراساتى قديما [1] ولكن ما ورد من مدح العلماء مطلقا والثناء عليهم غير مقيد بالعمل ، يؤيد المذهب الأول وينصره فإن العالم لا يمدح لمجرد علمه مالم يكن لهذا العلم ثمرة هى استتباعه للعمل وأداؤه إليه ومقتضى ذلك أن العالم لا يكون عالما حتى يعمل بعلمه . أما مدح العلماء مطلقا والتنويه بشأنهم فقد دلت عليه دلائل بينات من القرآن الكريم والسنة النبوية والحكم والآداب . ومن ذلك قول الله سبحانه : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » وقوله سبحانه : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب » ومن ذلك الاعتداد بشهادتهم على ما يختلف فيه بعض الناس كوحدانية الله سبحانه فى قوله : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم » الآية : وكرسالة النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله : « قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب » وكنزول القرآن عليه فى قوله : « أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل » .

وأما السنة النبوية فما أكثر ما مجدت العلماء وحفلت بأمرهم كما فى قوله صلى الله عليه وسلم « من يرد الله به خيراً يفقه فى الدين [2] » وقوله « العلماء ورثة الأنبياء [2] » وحديث « فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى [3] » وما إلى ذلك وما أكثره وهو كله يفيد أن العلم لا بد أن يصحبه العمل وإلا لم يكن هناك معنى لكل هذا التنويه وذلك الإطراء وإذا فلا بد من كشف الغطاء عن اللبس فى هذا الموضع وبيان حقيقة أمره

والواقع أن العلم على مراتب بعضها يستوجب العمل فى الجملة ويأبى على صاحبه أن يرتكب المخالفة إلا فلته لا بد منها للبشر

(١) راجع كتاب جولات السلامية لكاتب المقال ص ٨ فما بعدها .

(١) رواه الشيخان :

(٢) أبو داود والترمذى وابن صاحبه وابن حبان فى صحيحه .

(٣) الترمذى وقال حسن صحيح .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

غير المعصوم وبعضها لا يستوجب العمل ولا يصون صاحبه من التورط فى الزلل.

وهذه المراتب ترجع فى جملتها إلى ثلاث لا رابع لها لأن كل ما تفرق من الجزئيات مندمج تحت كلياتها، وإليك بيانها على التدرج من الضعيف إلى القوى بحسب تدرجها فى الوجود.

المرتبة الأولى مرتبة العلم التقليدى الذى لم ترتفع همة أصحابه إلى تعرف أسسه وأدلته، لأن لديهم ما يشغلهم من تكاليف الحياة ومطالب العيش وغير ذلك، وهؤلاء يعملون بالعلم بمقتضى الحمل التكليفى والحث الدينى بالترغيب تارة والترهيب أخرى.

وهذه المرتبة والدرجة مطردة فى العامة الذين يأخذون من العلماء أو بالوراثة عن الآباء وفى طلبة العلم الدينى الذين لم يطل أمدهم فيتوسعوا إلى درجة البحث والنظر وتتبع المسائل بالاجتهاد وربما خبط بعضهم أو خلط لقلة إحاطتهم وعدم درايتهم وقد يضلون أو يضللون. على أن بعضهم قد تقوى فطرته فيكون أكثر انبعاثا للعمل من العلماء الباحثين وتسلم عقيدته من تشكيكات البحث والجدل. وقد يفتح الله لبعض هؤلاء أبوابا من الفقه فى الدين ثمرة لتقوى الله والاشتغال بالرياضة والجهاد فربما بلغ فى التمسك بما يعلم والاستماتة فى تنفيذ مطالب الدين ورغائبه المرتبة الثالثة التى هى أرقى هذه المراتب. إلا أن مرتبته الأصيلة هى مرتبة التقليد التى لا تستلزم الرسوخ فى العلم والتزام العمل به.

المرتبة الثانية، مرتبة العلم الاستدلالى الذى يرتفع صاحبه من حضيض التقليد المجرد بالاعتماد وعلى شاهد العقل الذى يؤيده النقل كما فى علم الكلام البرهانى المعروف أو النقل الذى يؤيده شاهد العقل كما فى علم الفقه الاجتهادى المبنى على تعرف الدليل من أجل الاعتماد عليه فى الحكم الشرعى وكما فى علم التوحيد لدى السلفيين من العلماء الذين يجعلون كل مطالبهم من عقائد وغيرها فى الأدلة الشرعية فيؤثرونها على كل ما سواها

وهذه المرتبة يتفاوت أصحابها كذلك تفاوتا كبيراً بعد اشتراكهم فى أن إدراكهم للعلم إنما سبيله العقل لا القلب فليس العلم فيهم كالوصف الثابت وإنما هو كالأشياء المكتسبة والمدونات المحفوظة التى يحكم عليها العقل وحده وتكون فى جملة مودعاته.

وأصحاب هذه المرتبة فى منتصف الطريق التى من أجلها يطلب العلم، وهم علماء اللسان والعقل غير المجرد عن الهوى والشهوات وهم على خطر ما لم يجوزوا هذه المرحلة

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

إلى مرحلة الرسوخ فى العلم وهم إذا زاولوا العمل بالعلم كانوا أقوى من أصحاب المرتبة الأولى وأكثر فى الحملة انبعاثا إلى العمل لأنهم تجاوزوا مرحلتهم إلى تعقل العلم بدليله الذى يحمل على العمل ، وصارت المفاهيم معقولة المعانى عندهم فلا جرم تحملهم الأدلة التى عقلوها على العمل ، وتحول بينهم وبين المخالفة فإن المخالفة بين العلم والعمل فى حقيقتها تكذيب خفى إلا أنهم قد تغلبهم الأوصاف الأصيلة الراسخة فى الإنسان كالهوى والشهوة والأصيل أقوى من المكتسب ولابد لهم من أسر زائد يساعد الوصف المكتسب كحكم التقاليد والياقات والفرار من التبعات والمسئوليات ، على أن هذه فى الحقيقة ليست أوضاع العلماء الذين كرمهم الله ورضى عنهم . فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه ومن هنا كان الخطر على هؤلاء ؛ فهم الصنف الذين لا يلزم فيهم العمل بالعلم والذين وردت فيهم أخبار التشنيع والذم كقوله صلى الله عليه وسلم « ويل لجماع القول ويل للمصرين » ومنهم الأئمة المضللون الذين يقولون ما لا يفعلون فتندلق أقتابهم (أمعاؤهم) فى جهنم ويشبههم فى ذلك أصحاب العلم التقليدى فإن كل ما عليه المرء من شئون الدين فهو حجة عليه حتى يعمل به . وجدير بهذا الصنف أن يجاهد نفسه حتى يصون علمه ويصحح وضعه ، وأن يقوام هواه حتى يكون العلم له وصفا ثابتا ، وأن يطهر قلبه حتى يستقر فيه العلم فلا يجد الشيطان سبيلا إلى إضلاله وإفساده وإلا كان من الخاسرين الذين يقول الله سبحانه فيهم (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله) الآية « أرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره عشاوة فمن يهديه من بعد الله ، أفلا تذكرون » ونسأل الله العافية .

وأما المرتبة الثالثة فهى مرتبة أولئك الراسخين الذين صار علم الدين وصفا ثابتا لهم بعوامل اقتضت ذلك كحسن الاستعداد وقوة التهيؤ وخلو القلب من الأمراض المفسدة كالحسد والحقد والنفاق وحب الدنيا وإيثارها مع مقاومة الهوى ، وإخضاعه للحق وهم الذين وقعت الاشارة إليهم فى القسم الأول من الحديث الصحيح « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم . .) منهم الصنف الذى نفعه الله بما بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم من ذلك والمشبهون بالبقعة النقية التى قبلت الماء فأنبتت العشب والكلأ وهذا هو العلم المعتبر فى الدين ، والممدوح على ألسنة النبيين والموصوف أصحابه بأن الله رفعهم درجات وبأنهم شهداء لله على الوحدانية

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

مع الملائكة فى (شهد الله أنه لا إله إلا هو) الآيه كما أنهم الموصوفون بأنهم هم الذين يخشون الله فى قوله: « إنما يخشى الله من عباده العلماء . . » وبأنهم لا يستوون مع غيرهم من الآخرين فى قوله: « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون . . . ».

وهذا هو العلم النافع المستقر فى القلوب والذى لم يقف عند حد العقل والنظر كما مين النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين ما سواه بقوله العلم علمان علم على اللسان فذلك حجة الله على عباده وعلم فى القلب فذلك العلم النافع فالذى على اللسان هو الذى ذكر فى المرتبتين المذكورتين من قبل (العلم التقليدي ، العلم النظرى) مالم يرتفع واحد منها إلى المرتبة الثالثة .

حقاً إن أصحاب هذه المرتبة هم العلماء حقاً والعقلاء الحكماء الذين قدروا الدنيا قدرها ووضعوها فى وضعها فلا يميل بهم الهوى ولا يستهويهم الشيطان إلى ما دون المباح منها بل إنهم ليتركون أبواباً من الحلال خشية الوقوع فى الحرام حفاظاً على حق الله وإشفاقا من مواقعة الحمى ألا وإن حمى الله محارمه وهم الذين حققوا خلافة الله وعصمهم العلم عن العبث بشيء من حقوق الله أو حقوق عباده .

ولكون العلم وصفاً ثابتاً لهم . استطاع أن يقاوم الهوى والشهوات فيتغلب عليها ويكون الظفر للحق والانتصار للعلم مصداقا لقول الله سبحانه « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

ولكون العلم وصفاً ثابتا لهم مسيطراً على جميع مظاهرهم استطاعوا أن يكونوا خير أمة للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويصبرون على ما أصابهم فى الله فلا يخافون فيه لومة لائم . وما أكثر ما تنكرت الدنيا لكثير منهم واضطهدهم البغى محاولة لصرف الواحدمنهم عن مواقفه الكريمة لله فيأبى إلا ثباتاً على الحق وانتصاراً له « ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » .

وحقاً إن أصحاب هذه المرتبة هم الذين لا يخالف قولهم فعلهم ولا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم .

إلا أن هناك ناحية ينبغى الالتفات إليها فى هذا الوضع وهى أنه لا عصمة لغير الأنبياء من هؤلاء العلماء وإن الزلة قد تقع منهم كما تقع من غيرهم ولكن هناك فارقا كبيرا بين هؤلاء وغيرهم إذا ارتكبوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فإن غيرهم تقع منه المعصية مع الإصرار ويرتكب الذنب مستهينا بأمره . ويعمل السوء ثم لا يعود إلى ربه ، فهم الذين ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، وظلوا فى طغيانهم يعمهون ؛ كأنهم لا يرجون رحمة الله ولا يخافون عذابه ؛ ولهذا فإن طاعاتهم إذا عملوها صورية من قلب مريض أوهنته سيئاته أو أوبقته متابعة المظالم واستمراء الشهوات .

فأما هؤلاء العلماء العاملون فإن المعصية تقع من أحدهم - إذا وقعت - فلتة لا يسلم منها إلا المعصوم . وغفلة هى من لوازم البشر وفى هذه اللحظة التى يقارف فيها قد يكون غير عالم وينطبق عليه أنه عمل السوء بجهالة ثم يعود إليه العلم وتدركه اليقظة . وقد وصف الله سبحانه هؤلاء بالتقوى لأنهم من التوابين الذين يغسلون قلوبهم فلا يجعلونها مأوى للشياطين إذ يقول سبحانه : « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » .

ولما ذكر أوصاف المتقين لم يقل إنهم معصومون لا يقارفون ، ولكن ذكر سبحانه أنهم يذكرون الله على إثر الذنب فيستغفرون ثم لا يصرون ، إذ يقول جل شأنه: « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » . الآيات قبلها وبعدها .

ومثل هذا الوجه لا يعترض أصل المسألة فهو معنى جاء فى كل الأوصاف الجبلية فقد لا تبصر العين وقد لا تسمع الأذن لعروض ما يمنع ذلك كفكر أو غفلة أو نحوهما ولا يقتضى ذلك أن يكون صاحب الحرمان وقت غفلته أو فكره غير مجبول على السمع أو الإبصار فكذلك العالم الراسخ المتصف بالعلم وصفا ثابتا كما بينا ، فأما المعتاد للذنب الواقع فيه الذى لا يبالى به فلا يمكن أن يكون من أهل هذه الرتبة .

هذا هو ما أمكن لى به الفصل بين تلك المراتب والتوفيق بين ذلك التضارب ، وأسأل الله سبحانه أن يجعلنى وإخوانى وأساتذتى وأبنائى فى مراتب العلماء الراسخين الذين هم خير وسلام وبركات على الأرض وهم إشراق ورضوان فى السماء . وأولئك عند الله هم الفائزون . ؟

محمود الدواوى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الضرائب فى الإسلام

للأستاذ أحمد الشرباصى

أصبحت الضرائب تحتل مركزاً جليلا خطيرا فى النظام الاقتصادى المعاصر ، ولا تستطيع أمة اليوم أن تدير شئونها ، وتنفذ مشروعاتها ، وتضمن المستوى اللائق من المعيشة لأفرادها ، دون ضرائب تفرضها وتجبيها وتنفق منها ، ولذلك كان من حقنا — إن لم يكن من واجبنا — أن نعرف شأن هذه الضرائب فى نظر الإسلام ، لنتبين حكم العقيدة التى ندين الله عليها فى هذا النظام الاقتصادى الذى يتغلغل بطرقه المباشرة وغير المباشرة فى أعماق الأوضاع المادية للأفراد والجماعات .

ولو رجعنا إلى كتب اللغة لوجدناها تحدثنا بأن السجية والطبيعة يقال لها ضريبة ، كأن الإنسان قد ضرب عليها ضربا ، وصيغ صياغة ، والضريبة ما يضرب على الإنسان من جزية وغيرها [١] .

وفى « القاموس » أن الضريبة واحدة الضرائب التى تؤخذ فى الجزية ونحوها ، وغلة العبد ، وجاء فى « لسان العرب » هذا النص : « الضريبة واحدة الضرائب التى تؤخذ فى الأرصاد والجزية ونحوها ، ومنه ضريبة العبد وهى غلته ، وفى حديث الحجام : كم ضريبتك ؟ . الضريبة ما يؤدى العبد إلى سيده من الخراج المقرر عليه ، وهى فعيلة بمعنى مفعولة ، وتجمع على ضرائب ، ومنه حديث الإماء اللائى كان عليهن لمواليهن ضرائب . يقال : كم ضريبة عبدك فى كل شهر ؟ والضرائب ضرائب الأرضين ، وهى وظائف الخراج عليها » [٢] .

وفى كلمة « الضريبة » من الناحية اللغوية معنى الإلزام وعدم الفكاك ، ولذلك تقول المعجمات : أضرب فلان فى بيته — وما زال مضربا فيه — إذا لم يبرح . وضرب فلان على الكرم ، أى طبع عليه فصار ملازما له ، وأضرب فلان جأشا لأمر كذا ، إذا وطن عليه نفسه . وضرب فلان الوتد فى مكان كذا : أقام فيه [٣] ، وهذا كله فيه معنى اللزوم والالتزام ، وهو معنى ملحوظ فى الضريبة المالية ؛ لأنها تلزم صاحبها فلا تبرأ ذمته إلا بأدائها .

والضرب هو إيقاع شىء على شىء ، وهذا

(١) معجم مقاييس اللغة ، ج ٣ ص ٣٩٨ .

(١) لسان العرب ، ج ١ ص ٥٥٠ طبعة بيروت .

(٢) أساس البلاغة ، ج ٢ ص ٤٥ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

معنى ملحوظ أيضا فى الضريبة ، إذ كأننا أوقعنا الضريبة على رقبة المطالب بها [١] .

وفى مادة « الضريبة » معنى تبادل النفع والتعاون ، ومن هنا جاءت « المضاربة » ، وهى أن تعطى إنسانا من مالك ما يتجر فيه ، على أن يكون الربح بينكما ، أو يكون له سهم معلوم من الربح ، وكأنه مأخوذ من الضرب فى الأرض لطلب الرزق ، قال الله تعالى : « وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله » [٢] .

وفى حديث الزهرى : لا تصلح مضاربة من طعمته حرام . قال : المضاربة أن تعطى مالا لغيرك يتجر فيه ، فيكون له سهم معلوم من الربح ، وهى مفاعلة من الضرب فى الأرض والسير فيها للتجارة [٣] .

وهذا المعنى ـ وهو تبادل النفع والتعاون ـ ملحوظ فى الضريبة المادية ، بل هو عمادها وأساسها عند استقامة الأمور واعتدال الأوضاع ؛ لأن الضريبة تجبى من جهة ، لتردها إلى دافعيها منافع وخدمات مباشرة أو غير مباشرة من جهة أخرى .

وما دمنا نفهم معنى الضريبة على هذا النحو ، فهل يجيز الإسلام فرض الضرائب على الأفراد ؟ وقد يقول قائل : إنه لا محل لهذا السؤال ولا موجب له لأنه ما دام المال المأخوذ سيرد على أصحابه فى صورة خدمات ومنافع فالعقل السليم لا يمنع ذلك .

ولكننا نطرح هذا السؤال لأن هناك من يقول : إن الإسلام لا يبيح فرض ضريبة ، لأن فيه نظم الزكاة والجزية والخراج.

ونحب أن نجعل الجواب صادراً عن رجل معروف بتشدده فى الأمور الدينية ، وهو الباحث الإسلامى الباكستانى أبو الأعلى المودودى ، فقد سئل نحواً من هذا السؤال السابق ، فقيل له :

« ما هى وسائل الدخل للحكومة الإسلامية والمعروف عامة أن لا ضريبة فى الإسلام إلا الزكاة والجزية والخراج ، فإن صح ذلك فكيف لحكومة من حكومات هذا الزمان أن تستوفى نفقاتها فى ضمن الحدود الإسلامية »؟

وأجاب الباحث على هذا السؤال بقوله :

« من الخطأ القول : إنه لا يجوز فى الإسلام أن تفرض ضريبة لسد نفقات الحكومة ، وكذلك لا يصح أن يقال إن الزكاة هى ضريبة توضع على الناس لتسديها نفقات الحكومة ، إنما الزكاة هى مال من أموال التأمين الاجتماعى يؤخذ من الأغنياء ليرد إلى من يستحقه من الفقراء .

أما حاجات الحكومة فما هى إلا حاجات

(١) مفردات القرآن ، ص ٢٩٦ .
(٢) لسان العرب ، ج ١ ص ٥٤٤ .
(٣) لسان العرب ، ج ١ ص ٥٤٥ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الجمهور أنفسهم ، فكل ما يطالبون به الحكومة من واجبهم أن يكتتبوا لها من الأموال ما تحقق به مطالبهم ؛ فكما أنه يكتتب بالمال لمختلف الشئون الاجتماعية ، فكذلك يجب على الناس أن يكتتبوا بالمال ويمكنوا الحكومة من القيام بكل ما هم فى حاجة إليه ؛ وما الضريبة فى الواقع إلا مال يكتتبه الناس لمصالحهم .

أما الضرائب التى قد ذمت ذما شديدا فى كتبنا الفقهية القديمة فما كانت من نوع ضرائب اليوم ، وبينهما فرق أساسى مهم ، فما كانت الضريبة فى ذلك الزمان بمثابة مال الاكتتاب يجمعه الناس لمصلحة أنفسهم ، وإنما كانت مال الغرامة تأخذه الحكومات الملكية من الناس وتصرفه على حسب مرضاة الملوك ، وما كان على هذه الحكومات الملكية شيء من التبعة إذا لم تنفق هذا المال على الجمهور ، ولمصلحة الناس أنفسهم ، ولا كانت مسئولة عنه أمام أحد ، ومن أجل ذلك قد شدد الإسلام فى تحريم هذه الضرائب ، أما الآن وقد تغيرت حقيقة الضريبة ، فقد تغير حكمها أيضا » . (١)

وهذا باحث آخر هو الدكتور مصطفى السباعى يقول : « ومع احترام الإسلام للملكية الشخصية ، فقد جعل فى الثروات الخاصة حقوقا للشعب تأخذها الدولة من تلك الثروات ، لتحقيق التكافل الاجتماعى وغيره مما تحتاجه الدولة » (١) .

والضرائب إنما تفرض عند الحاجة إليها ، وهى تزيد إذا زادت هذه الحاجة ، وتقل إذا قلت الحاجة ، وقد تقبل على الأمة حالات طوارئ تحتاج فيها إلى مضاعفة الضرائب أو الزيادة فيها ، وهذا حين يتم لوجود مقتضيه ، وحين يجمع بيد ولى الأمر الشرعى ، وحين ينفق فى الوجوه المشروعة اللازمة التى اقتضته يكون عملا مشروعا لا غبار عليه ، وقد يكون واجبا وليس جائزا فقط .

ولذلك ذكر القرطبى أنه إذا أصابت المسلمين حاجة بعد أداء الزكاة فإنه يجب صرف المال إليها ، وقال الإمام مالك : يجب على الناس فداء أسراهم وإن استغرق ذلك أموالهم ، وهذا إجماع (٢) .

وقال الشاطبى : « إننا إذا قررنا إماما مطاعا مفتقراً إلى تكثير الجنود لسد حاجة الثغور ، وحماية الملك المتسع الأقطار ، وخلا بيت المال ، وارتفعت حاجات الجند إلى مالا يكفيهم ، فللإمام إذا كان عدلا أن يوظف على الأغنياء ما يراه كافيا لهم (أى للجنود) فى الحال ، إلى أن يظهر مال بيت المال ، ثم إليه النظر فى توظيف ذلك على الغلات والثمار وغير ذلك .

(١) كتاب نحو الدستور الإسلامى ، ص ١١٠ و ١١١ .

(١) اشتراكية الإسلام ، ص ١٣٦ الطبعة الثانية .
(٢) تفسير القرطبى ، ج ٢ ص ٢٢٢ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وإنما لم ينقل مثل هذا عن الأولين لاتساع بيت المال فى زمانهم ، بخلاف زماننا ، فإن القضية فيه أحرى . ووجه المصلحة هنا ظاهر ، فإنه لو لم يفعل الإمام ذلك بطلت شوكة الإمام ، وصارت ديارنا عرضة لاستيلاء الكفار ، وإنما نظام ذلك كله شوكة الإمام ، فالذين يحذرون من الدواهى لو ننقطع عنهم الشوكة يستحقرون بالإضافة إليها أموالهم كلها ، فضلا عن اليسير منها ، فإذا عورض هذا الضرر العظيم بالضرر اللاحق بهم يأخذ البعض من أموالهم ، فلا يتمارى فى ترجيح الثانى عن الأول ؛ وهو مما يعلم من مقصود الشرع قبل النظر من الشواهد » (١) .

ويلزمنا أن نلاحظ هنا أن المستند القوى الذى يستند إليه تشريع الضرائب هو المصلحة العامة التى يعطيها الإسلام أهمية كبرى ، حتى يقول الشاطبى فى شأنها : « إنا وجدنا الشارع قاصداً لمصالح العباد . والأحكام العادية تدور معه حيث دار ، فترى الشىء الواحد يمنع فى حال لا تكون فيه مصلحة ، فإذا كان فيه مصلحة جاز » (٢) .

ولذلك يقول الغزالى عن الجنود : « إذا خلت الأيدى من الأموال ، ولم يكن من مال المصالح (مال بيت المال) ما يفى بخراجات العسكر ، وخيف من ذلك دخول العدو بلاد الإسلام ، أو ثوران الفتنة من قبل أهل الشر جاز للإمام أن يوظف (أى يفرض) على الأغنياء مقدار كفاية الجند ، لأنا نعلم أنه إذا تعارض شران أو ضرران قصد الشارع دفع أشد الضررين وأعظم الشرين ، وما يؤديه كل واحد منهم (أى من الأغنياء) قليل بالإضافة إلى ما يخاطر به من نفسه وماله لو خلت خطة الإسلام (أى بلاد الإسلام) من ذى شوكة (قوة) يحفظ نظام الأمور ، ويقطع مادة الشرور » (١) .

ثم نسأل سؤالا آخر فنقول : هل يصح إطلاق كلمة « الضريبة » على الحقوق الشرعية المحددة اللازمة فى المال شرعا ؟ وبعبارة أخرى نقول : هل يمكن مثلا أن نسمى الزكاة ضريبة ؟ .

ولا شك أن إطلاق كلمة « الزكاة » على مسماها هو الأصل وهو الأفضل ، ولكن هل يجوز هذا الإطلاق الآخر فى مجال النقاش والتوضيح والمقارنة بين ما تلقيناه من تراث فقهى وما استحدثه الناس من أوضاع و نظم اقتصادية ؟ ...

إذا نظرنا إلى معنى الضريبة العام ـ لا إلى معناها العرفى ـ فتذكرنا أن هذا المعنى العام يتضمن الإلزام بحق يؤدى إلى جهة مختصة ، استطعنا ولو بشىء من التجوز أو المجاز أن نسمى الزكاة ضريبة إلهية دينية ، لأنها حق

(١) الاعتصام ج ٢ ص ١٠٤ .
(٢) الموافقات ج ٣ ص ٣٠٦ .

(١) المستصفى ج ١ ص ٣٠٣ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

شرعى لازم ثابت يطالب الإنسان بأدائه لحكمة ومصلحة أرادهما الشارع .

ومثل هذا أو قريب منه يمكن أن يقال فى بقية الحقوق اللازمة شرعا فى الأموال ، وسنتحدث عنها .

وحينما نتحدث عن الضرائب بصفة عامة تكون أمامنا نقط رئيسية فى البحث ، هى أولا : أوعية الضريبة ، ويراد بالأوعية هنا المصادر التى تؤخذ منها الضريبة ، أو المنابع التى تنبع منها ، ثانيا : أغراض الضريبة ، وهى الأهداف التى نريد تحقيقها ، وهذه تشمل المصارف التى تصرف فيها الضريبة وثالثاً : مبادئ الضريبة ويراد بها القواعد والأصول التى تستند إليها وتعتمد عليها فى التسويغ والتشريع ، ورابعا : ضمانات الضريبة ، ويراد بها الحوائط التى تحيط بها لتجعلها مصلحة غير ضارة ، ولتحقق الغاية التى تنشد منها . ومن الممكن لنا أن نتعرف إلى هذه النقط الأساسية المتعلقة بالضرائب فى ضوء الإسلام .

أما وعاء الضريبة فى الإسلام ـ ونقصد به المحل الذى تتعلق به الضريبة فهو « الأموال » غالبا ، ونلحظ فى هذا الوعاء صفة العموم والشمول ، لأنه يشمل الأرض والحصاد والتجارة والماشية والذهب والفضة ، ويشمل بالقياس العمارات والمصانع الإنتاجية ، فلا يقتصر وعاء الضريبة هنا على المعنى المألوف للمال وهو النقد ، بل يراد بالمال هنا كل متقوم فيه معنى التنمية والكسب والربح .

وإذا اتفقنا على أن الحقوق المالية المحددة شرعا الواجبة فى الأموال يمكن إطلاق اسم « الضرائب » عليها ، أمكننا بعد ذلك أن نستعرض هذه الحقوق ، فنجد أنها هى :

الزكاة : وهى نصيب معلوم يؤخذ من الأغنياء ليرد على الفقراء : « والذين فى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم » . وخمس الغنائم ، وهى كل مال وصل إلى المسلمين من أعدائهم المحاربين لهم ، ويكون وصوله بطريق القهر والغلبة . والجزية ، أى ضريبة الرءوس ، وهى مقدار مالى يعطيه الرجل القادر غير المسلم للدولة المسلمة فى مقابل الحماية وتحقيق الأمن . والخراج ، وهو ضريبة موضوعة على رقبة الأرض المفتوحة . والعشور ، وهى مقدار مفروض على أموال التجارة المتنقلة التى تدخل بلاد الإسلام أو تخرج منها ، وهذه العشور أشبه الأشياء بالضرائب الجمركية المعروفة الآن .

هذه خمسة أنواع من الحقوق الشرعية اللازمة المتعلقة بالمال ، وفى كل نوع منها أكثر من مظهر لحكمة التشريع ، وعدالة التوزيع ، وروعة الإصلاح ، ومن مجموعها يتكون نظام ضرائبى إسلامى محكم ، تتحقق به روح التضامن والتكافل بين أبناء الإسلام ؟

« للبحث صلة »

أحمد الشرباصى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الإسلام فى زنجبار

للأستاذ عطيه صقر

فى المحيط الهندى وعلى بعد نحو ٢٠ ميلا من الساحل الإفريقى ، وبين خطى العرض ٦ جنوبا والطول ٣٩ شرقا ، تقع جزيرة زنجبار التى تعتبر الثانية فى المحيط الهندى بعد جزيرة مدغشقر .

وتبلغ مساحتها نحو ٦٤٠ ميلا مربعا ، وتتبعها جزيرة « بمبا » التى تبلغ مساحتها ٣٨٠ ميلا مربعا ، كما يتبعها شريط على ساحل كينيا يمتد نحو ٥٢ ميلا طولا و ١٠ أميال عرضا ، بما فى ذلك جزيرة « مباسا » أو الجزيرة الخضراء .

يبلغ سكان زنجبار نحو مليون وربع على أقصى تقدير وجدناه فى عدة مصادر ، وذلك مراعى فيه مجموعة الجزر والساحل الإفريقى .

والسكان الأصليون خليط من القبائل أهمها : واها ديمو ، وأتومباتو . وابمبا . وهى تنحدر من قبائل البانتو التى تعيش على سواحل إفريقيا الشرقية وبلادها الداخلية . وإلى جانب هؤلاء يوجد نحو ٤٠ ألف عربى وهم السواحليون الذين هاجروا إلى إفريقيا من جنوبى الجزيرة العربية ، وعاشوا على السواحل وأصبحت لهم لغتهم الخاصة ، كما يوجد بعض الإيرانيين وأكثرهم من شيراز . وكذلك يعيش هناك بعض الهنود والأوربيين

وعاصمة الدولة هى مدينة زنجبار ، التى وضع أساسها البرتغاليون فى القرن السادس عشر ببناء كنيسة ذات أهداف سياسية كما هى عادة المستعمرين الذين يستغلون رجال الدين فى التمهيد لمآربهم الاستعمارية . ويسكن هذه المدينة نحو ٣٠ ألفا ، وهى ميناء دائم الحركة بالتجارة مع الموانئ الإفريقية والآسيوية ، حيث تروج تجارة القرنفل والبن والأناناس والقطن والعاج وغيرها .

عرف العرب هذه الجزيرة كما عرفوا غيرها من مدن إفريقية وبلادها منذ ألف سنة وهاجر إليها كثيرون أيام التنازع على الخلافة فى القرن العاشر الميلادى . ولم يعرفها الغربيون إلا عندما مر عليها « فاسكودى جاما » الرحالة البرتغالى المعروف عند عودته من الهند سنة ١٤٩٩ م . ووقعت تحت حكم البرتغال سنة ١٥٠٣ م وبعد ٢٠٠ سنة دخلها جيش من العرب من قبل سلطان عمان ومسقط ، فطرد البرتغاليين ، وأصبحت

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

قسما من سلطنة عمان ومسقط . ولما تولى الحكم سعيد بن سلطان سنة ١٨٠٤ م نقل البلاط من مسقط إلى زنجبار سنة ١٨٣٢ م ، وتم انفصالها عن سلطنة عمان . وبعد وفاة السلطان سعيد سنة ١٨٥٦ م انقسمت السلطة إلى قسمين ، وأصبح القسم الإفريقى محمية بريطانية سنة ١٨٩٠ م . وآخر خليفة حكم البلاد هو السيد / خليفة بن حاروب من سنة ١٩١١ م حين توفى فى أكتوبر سنة ١٩٦٠ وخلفه على الحكم الأمير عبد الله الذى يزيد عمره الآن على الخمسين . وبعد وضع البلاد تحت الوصاية البريطانية أجر السلطان سنة ١٨٩٥ المنطقة إفريقيا إلى حكومة كينيا نظير إيجار اسمى قدره ١١ ألف جنيه سنويا

السلطان فى زنجبار يلقب برئيس الدولة ، والمقيم البريطانى يلقب برئيس الحكومة ، التى تتكون من مجلسين ، تشريعى وتنفيذى ، ورئيس المجلس التشريعى هو المقيم البريطانى ، أما المجلس التنفيذى فيرأسه السلطان وينوب عنه المقيم البريطانى ، وأعضاء المجلس كلهم من الانجليز بحكم وظائفهم الرسمية ، أما المجلس التشريعى فكان عدد أعضائه ١٧ فى سنة ١٩٥٧ منهم ٩ انجليز بحكم وظائفهم الرسمية ، والباقون يعينهم السلطان بمشاورة المقيم .

الإسلام هو الدين السائد فى الدولة ويتبعه ٩٠ ٪ من السكان ، وهم طوائف ، فمنهم أهل السنة ، ومنهم الشيعة الإسماعيليون والإماميون والداوديون ، ومنهم الأباضية وهم فرقة من الخوارج جلبوا معهم هذا المذهب من موطن هجرتهم فى عمان ومسقط . والسنيون من المسلمين يتعبدون على مذهب الإمام الشافعى ، وهناك بعض من الأصناف ، وفى كل من زنجبار وبمبا محكمة شرعية ، لكل منهما قاضيان ، أحدهما سنى والآخر أباضى ، ومن المؤسف أن حكمهما ليس نهائيا الا اذا [illegible] إلى [illegible] حق النقض والإبرام . ويقول المراقبون للأمور هناك : يبدو أن الحكومة ترمى إلى التخلص من القضاء الشرعى فى زنجبار كما تخلصت منه فى بمباسا وكينيا ودار السلام وأوغندة ، أما الطوائف الأخرى فترجع فى قضاياها إلى شيوخها .

والمساجد هناك كثيرة ، ولكل طائفة من الطوائف مساجدها الخاصة بها ، وجمعياتها التى ترعى شئونها ، ويلاحظ أن الجمعيات الشيعية تهتم بذكرى أئمتها خصوصا ذكرى الإمام الحسين على الصورة المعهودة فى هذا الاحتفال ، والملاحظ أيضا أن الجمعيات

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

العربية دائما منقسمة ويكيد بعضها لبعض ، ولا تضم بين أعضائها أحداً من الإفريقيين ، ذلك في الوقت الذي نرى فيه تكاتف الجمعيات الأخرى ، وقد أثر تفرق العرب على المساجد فأغلق أكثرها لعدم وجود المصلين والمهتمين بعمارتها .

ومن الصحف العربية هناك جريدة « الفلق » ، التي يشرف عليها الحزب الوطني ، وله أيضا نشرة تسمى « الطليعة » لخدمة أغراضه ، وهي تصدر بالانجليزية والسواحلية مرتين في كل شهر وتوزع بالمجان وتتحدث باسم سياسة الشعب التحررية .

[illegible] . وهناك أربع مدارس للبنات في زنجبار واثنتان في بمبا ، بها ١٠٣٩ تلميذة ، كما توجد ثلاث مدارس ثانوية منها اثنتان للبنين يدرس بها ٦١٠ من التلاميذ ، إحداهما في مستوى التعليم في الجمهورية العربية المتحدة ، وتوجد مدرسة للبنات بها ١٢٥ فتاة ، كما يوجد معهدان : أحدهما لإعداد المعلمين وبه ٥٤ طالبا والثاني لإعداد المعلمات وبه ١٤ طالبة ، كما توجد مدارس طائفية ابتدائية ، ومكاتب لتحفيظ القرآن الكريم ، وكل طائفة لها مدارسها التي تقوم هي بإدارتها والإنفاق عليها ، أما مدارس العرب والإفريقيين فتنفقاتها على الحكومة .

والدراسة في المدارس الابتدائية مدتها ست سنوات وهي باللغة السواحلية ، أما التعليم في المدارس الثانوية فهو بالانجليزية وليس هناك تعليم عال ، وأغلب الراغبين فيه يلحقون بكلية ماكريري في أوغندة أو إحدى جامعات لندن .

وتعليم الدين لا يتبع طريقة منهجية يرجى منها الخير ، فهو لا يعدو سرد أحكام الإسلام وقراءة بعض سور القرآن في المصحف مرة كل أسبوع . وذلك كله في المراحل الابتدائية أما المرحلة الثانوية فلا يدرس الدين فيها مطلقا . لا تلقى دروس في المساجد إلا في رمضان [illegible] مستجدون ، ومؤهلات العالم عندهم إجادته لقراءة مولد النبي الذي ألفه « البرزنجي » وخطبة الجمعة من ديوان ابن نباته ، ومولد البرزنجي مقدس عند الجميع ويشيدون به كالقرآن .

والمعهد الديني هناك مدة الدراسة فيه خمس سنوات تؤهل لنيل الشهادة الثانوية ثم يسافر الطالب بعدها ليكمل دراسته في معاهد الجمهورية العربية ، والمعهد لا يتلقى إعانات خارجية من الدول الإسلامية أو العربية ، فكل نفقاته على الحكومة .

واللغة الشائعة في البلاد هي السواحلية ، وهي تكتب بحروف لاتينية وبحروف عربية ، وبعض العرب يتكلم العربية ولكن

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فى نطاق ضيق ، وهم يحاولون تعلم اللغة العربية . ولكن تنقصهم الكفايات من المعلمين العرب ، فمستوى العربية هابط جدا بالرغم من أنها تدرس بالمدارس ، إلا أن حظها من الحصص قليل ، فلها حصتان وثلاثة فى السنتين الخامسة والسادسة الابتدائيتين ، وتدرس فى المدارس الثانوية اختياريا وطلابها نحو ١٠ فقط .

وإلى جانب نقص الكفاية العلمية تنقصهم الكتب والمراجع ، والانجليز يحاربون المدرسين الوافدين من البلاد العربية ومن « مصر » على الخصوص . ولهذا أنشأ الحزب الوطنى مدارس خاصة به تركز اهتمامها على اللغة العربية . وقد جاهد الحزب حتى قررت الحكومة إنشاء مدرسة تسمى « المدرسة العربية » لهذا الغرض حتى تحل اللغة العربية محل اللغة السواحيلية . ولضعف اللغة العربية يقرأ المسلمون هناك القرآن ولا يفهمون معناه ، والنساء يحرصن على قراءة بعضه عقب القيام من النوم .

وقد حرص سلاطين عمان أثناء حكمهم لزنجبار على تعليم اللغة العربية والدين وجلبوا من أجل ذلك مدرسين من عمان وحضرموت وجزائر القمر وغيرها . وكان لذلك أثره إلى حد ما فى حفظ اللغة وحفظ الدين ، ووجدت المؤلفات فى المكتبة العربية فى الفقه الأباضى وعلوم الدين واللغة ، ولكن المستعمر يحارب ذلك بكل قوته . وعندما زار الدكتور محمود حب الله هذه البلاد سنة ١٩٤٧ طالب زعماء الجمعية العربية الحكومة بإنشاء معهد للدين واللغة ليمد البلد برجال القضاء والفتوى والتدريس ، فشرعت الخلافة فى إصلاح بيت قديم ليكون مقراً للمعهد ، وأنشأ المعهد مدرسة إعدادية تهيء له الطلبة ، ولكن المعهد ودور التعليم عامة فى أشد الحاجة إلى المدرسين الأكفاء والكتب الدراسية ، والمشاهد أن نصف طلاب المعهد يدينون بالمذهب الأباضى ، ولكن ليس هناك من يحسن دراسة الفقه لهم .

وفى زنجبار مؤسستان للتبشير تعلمان الطبقة الراقية بالمصاريف وتعلمان الفقراء مجانا ، وتشجعهما الحكومة على مواصلة رسالتهما .

ومعظم الأهالى يشتغلون بالزراعة ، وأهم محصول عندهم هو القرنفل الذى يصدر منه ٧٠ ٪ من محصول العالم كله . والتجارة هناك تكاد تكون محتكرة للهنود والشيعة الإسماعيليين ، الذين هم أغنى الطوائف وأعظمها جاها ونشاطا .

والطائفية تلعب دوراً هاما فى تفريق الصفوف ، وهى سياسة الاستعمار التى يعيش فى ظلها ، والتى وضع مخططها « ديزرائيلى » القائل : إن بريطانيا لا تستطيع أن يكون

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

لها أصدقاء دائمون ولا أعداء دائمون ، بل لها فقط مصالح دائمة .

والناس هناك يحرصون على الزواج من الأقارب ، ويندر فيهم من يتزوج غير قريبته ، وتعدد الزوجات منتشر بين العرب وبين الوطنيين بصفة خاصة ، كما توجد تقاليد عند الزواج لا يقرها الدين كالعادات المنتشرة فى البيئات الإسلامية . وهم لا يعرفون شم النسيم ولكنهم يحتفلون بيوم « عيد النيروز » فى بقعة خاصة جنوبى الجزيرة ، معظم سكانها من الشيعة الإيرانيين المستوطنين هناك ، وهم يظلون فى مرح طول اليوم الذى يسمونه يوم الحرية ، حيث يستمر الرقص واللهو حتى مطلع الفجر ، ثم يستحم الجميع فى البحر قبل طلوع الشمس ، والنساء هناك لا يزرن المقابر فى المناسبات كالعيد ، ولا يلبس السواد للحداد ، فلابسه عندهم بيضاء . والحجاب الشرعى ما زال متمسكا به بين المسلمين إلى حد كبير ، وإن كان التطور بدأ يأخذ مجراه فى هذه الناحية وبخاصة فى الأوساط المتعلمة.

من الشخصيات البارزة فى الكفاح السياسى والوطنى السيد / على بن محسن البروانى زعيم الحزب الوطنى ، وقد ولد سنة ١٩١٦ وبعد إتمام دراسته الابتدائية والثانوية أراد والده أن يلحقه بالأزهر ، غير أن الحكومة أرسلته مع طالب آخر إلى كلية (ماكريرى) فى أوغندة للتعليم الزراعى . وبعد عودته مهندسا ترك العمل وتفرغ للسياسة ، وعين سنة ١٩٥١ ممثلا للعرب فى المجلس التشريعى ، وألف الحزب الوطنى سنة ١٩٥٦ ، والانجليز يخشون نفوذ هذه الشخصية ، وقد حاولوا دون حضوره المؤتمر الآسيوى الإفريقى فى القاهرة.

ومن الشخصيات البارزة فى ميدان الأدب كاتب القصة الشيخ محمد بن على بن خميس ، والشاعر الشيخ برهان بن محمد مكلا ، ومن الكتاب أيضا الشيخ عبد الله صالح ، والسيد أحمد ناصر الكملى الذى تعلم بمصر وسجن فيها سنتين ، ومن النساء المجاهدات : عالية محسن أخت الزعيم على محسن .

وفى سنة ١٩٥١ أرسل الأزهر مبعوثا إلى زنجبار قام بنشاط ملحوظ فى ميدان التعليم الدينى ونشر الدعوة الإسلامية الصحيحة ، وفى عهده نشط المعهد الدينى الذى ما يزال أثرا بارزا يرفع صوت الأزهر والجمهورية العربية هناك ، ويوجد بمعهد البعوث فى الأزهر طلاب من زنجبار تبلغ عدتهم ١٦ كما هو وارد فى إحصاء ١٩٦٢/٦١ ، كما توجد بعثات من الفتيات جئن لتعلم اللغة العربية والعلوم الحديثة فى الجمهورية العربية ، حضر منهن ١٧ سنة ١٩٥٨ ، وقد طلب الحاج زكى بليا عمرو القمرى رئيس الجالية القمرية

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بزنجبار ، من الأزهر مدرسين للشريعة واللغة العربية .

هذا والصبغة الانجليزية واضحة فى البلد إلى حد كبير . فالحاكم العام انجليزى ، والسكرتير للعام للحكومة انجليزى أيضا ، ونظام القضاء انجليزى ، والعملة هى الشلن الانجليزى المستند إلى لجنة شرق إفريقيا المالية الانجليزية . وأحكام السلطان لا تكون نافذة إلا إذا وافق عليها المقيم الانجليزى ، وهذا النفوذ الانجليزى يلقى معارضة تتمثل فى الحركات الثورية والتنظيمات السياسية التى تعمل للتخلص من هذا الحكم وإنهاء عقد إيجار الساحل الإفريقى ، ومن أقوى الأحزاب السياسية هناك الحزب الوطنى وزعيمه السيد على بن محسن البروانى ، وثلثا أعضائه إفريقيون ، ولكن المسيطر عليه عقول عربية ، وهذا الحزب هو حزب الأغلبية ، وإن كانت الصحافة البريطانية تصر على تسميته حزب الأقلية ، وهو أكثر الأحزاب تقدما ولا يعتمد على اللون والجنس كبقية الأحزاب بل يدعو إلى تحرير الفرد والعدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص ، ويتميز عن غيره بأنه يؤمن بمبدأ الجهاد ، وله الآن ١٢ فرعا ، ١٢٠ مدرسة تضم ٨ آلاف طالب ، ١٢٠ مركزا اجتماعيا ، وله ١٠ مقاعد فى البرلمان ويؤيد هذا الحزب حزب سياسى آخر يسمى حزب شعوب بمبا ، وله ٣ مقاعد فى البرلمان وتوجد اتحادات للعمال أقواها اتحاد عمال السفن والبحر ، وبريطانيا تضرب الحزب الوطنى بهذه الاتحادات ، وفى اتحادات العمال ٩٩ ٪ من الإفريقيين ، وزعيمهم عبيد كروم ، وهو موال للانجليز ويحبذ بقاءهم وسيطرتهم على الساحل بحجة أن الأهالى لم ينضجوا بعد سياسيا أو دستوريا ، ويشاركه هذا الرأى الشريف شاطرى رئيس الاتحاد العربى فى بمباسا ، وهناك اتحاد إفريقيا الشيرازى وهو يحظى بعطف الانجليز .

والبلاد فى أمس الحاجة إلى أساتذة أكفاء فى اللغة والدين ، وإلى مبعوثين على درجة كافية من اللياقة والنفوذ المنظم ، لينقذوا الأهالى من التيار الاستعمارى الجارف ، ويبصروهم بواجبهم من الوحدة والعمل الخالص للمصلحة العامة ، ولوقاية المناطق المجاورة من السموم التى ينفثها المستعمرون هناك ، فقد اتخذوا من بمباسا والساحل وزنجبار نقطة تمركز لهم ، وهم يخشون الإشعاع العربى الذى ينبعث من النهضة الثائرة فى الجمهورية العربية المتحدة ، سواء فى ذلك الإشعاع الوطنى والثقافى والاجتماعى .

ولقد أفصحت الديلى تلغراف عن مخاوف الانجليز من هذا الإشعاع حين كتبت معلقة على هزيمة الحزب الوطنى فى انتخاب سنة

(البقية على الصفحة التالية)

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

من أعلام اليمن :

طاووس بن كيسان

للأستاذ يوسف القرضاوي

اسمه طاووس بن كيسان ، وكنيته أبو عبد الرحمن .

ولد باليمن السعيد ونشأ به ، ونشر به علم الإسلام ، فلا غرو أن ينسب إليه ويعرف « بطاووس اليماني » ، ويسجل تاريخ الرجال أنه فقيه اليمن غير منازع .

أدرك نحو خمسين من الصحابة ، وتلقى عنهم ما وسعه من العلم والهدى الذي بعث الله به رسوله ؛ فروى عن أبي هريرة وعائشة وزيد بن ثابت ، وجابر بن عبد الله ، وابن عمر ، وأكثر الرواية والصحبة لابن عباس ، وكان من أجل تلامذته وخاصة أصحابه ، وقال فيه : « إني لأظن طاووسا من أهل الجنة » ، وقال سفيان بن عيينه : قلت لعبدالله ابن أبي يزيد : مع من كنت تدخل على ابن عباس ؟ قال : مع عطاء والعامة وكان طاووس يدخل مع الخاصة .

(بقية المنشور على صفحة ٤٧٧)

١٩٥٧ تقول : إن انهزامه انهزام لمصر ، لأن سياسته تقوم على تقوية العلاقة معها .

وإذا كان السيد الرئيس جمال عبد الناصر قد قرر أنه لا يمكن لمصر أن تتخلى عن إفريقيا أو تنعزل عنها بحكم الصلات الكثيرة فالواجب علينا أن نتعقب الاستعمار في كل بقعة وطئتها قدمه في هذه القارة وغيرها وأن نلبي رغبات هذه الدول التي تتطلع إلى يوم الخلاص من نير الاستعمار ، خصوصا في الميدان الثقافي الذي توجه به الأفكار وترسم الخطوط الموصلة إلى الغاية .

وإذا كانت اللغة العربية والدين الإسلامي هما العاملان القويان في التوجيه الثقافي ، وفي دعم صلاتنا بهذه البلاد فالأزهر بما يضطلع به من مهام جسيمة في هذا الميدان هو أولى الهيئات برعاية هذه القضية خصوصا في عهده الجديد الذي ألقى الزمام فيه إلى من يقدرون هذا الأمر قدره ، ونحن منتظرون خطواته الإيجابية في هذا المقام ، وأملنا فيه كبير ، والله ولي التوفيق ؟

عطيه صقر

مفتش الوعظ بالأزهر

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وتلقى عنه العلم جم غفير من التابعين وأتباعهم (منهم ابنه عبد الله) رأوا فيه ثبتا أمينا فيما يروى ، فقيها مسدداً فيما يرى قال عمرو بن دينار : ما رأيت مثله ، وقال الزهرى : لو رأيت طاووسا علمت أنه لا يكذب . وقال هو لأحد تلاميذه : إذا حدثتك حديثاً قد أثبته فلا تسأل عنه غيرى ومثل هذا لا يقول إلا واثق من نفسه ، مطمئن إلى علمه وأمانته .

وذكر فى تاريخ صنعاء أنه ولى قضاء صنعاء والجند ... إلى جانب ما يقوم به من رواية وإفتاء وتعليم وتذكير .

علم وعمل :

ولكن شخصية هذا الإمام لم يبرزها العلم وحده — وإن له لفضلا — وإنما أبرزها الإيمان الصادق والعمل الصالح ، والخلق العظيم .

كان وثيق الصلة بالله ، قانتا آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه يجد فى قيام ليله قرة لعينه وزادا لقلبه ، وأنساً بمولاه ، لا يشغله عنه عذاب السفر ولا نصب البدن .

كان فى قافلة الحجاج مرة ، فعرض للناس أسد حبسهم فى الطريق ليلة مروعين ، وقد بعضهم بعضا من الفزع ، فلما كان السحر ذهب عنهم الأسد فنزل الناس يمينا وشمالا يبتغون النوم والراحة ، وقام طاووس من بينهم يصلى ، فقال له ابنه : ألا تنام فإنك قد سهرت ونصبت الليلة ؟ فقال : ما كنت أظن أحدا ينام فى السحر ، وكان رقيق القلب مرهف الوجدان دقيق الحس ، حتى رووا عنه أنه إذا مر برؤاس (بائع الرءوس) فرأى الرءوس المشوية لم ينم تلك الليلة .

وكان كثير الحج إلى بيت الله الحرام ، فى عصر ما كان الحج فيه من اليمن إلى مكة سفراً قاصداً ، ولا نزهة تستروح فيها النفس ، كان يسير شهرا ذاهبا ، وشهراً راجعاً ، لكن هذا العناء كان يسيرا عليه حبيبا إليه ما دام من ورائه شرف الغاية وحسن الثواب فهو يقول لابنه : إن الرجل إذا خرج فى طاعة ، لا يزال فى سبيل الله حتى يرجع إلى أهله .

والحق أن الحج لم يكن لطاووس ونظرائه عبادة روحية فحسب ، بل كان — فوق ذلك — مجمعاً لعلماء الإسلام من كل الأقاليم ، فى ساحته يلتقون ، ويتساءلون ويتذاكرون ويتعاونون ، فيأخذ بعضهم عن بعض ، ويراجع بعضهم بعضا قبل أن تعرف الدنيا معنى التعاون العلمى على هذا النطاق الفسيح .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الإسلام الإيجابي

وكان الإسلام في رأسه وقلبه واضحا مستقيما ، بعيداً عن الضعف والسلبية ، دافعا إلى البناء والإيجابية ، متسما بروح القوة وقوة الروح .

لم يكن كإسلام المتكلمين - فيما بعد - بما غلب عليه من جدل ونظريات ، ولا كإسلام المتصوفة بما فيه من سلبية وانعزالية ، ولا كإسلام أتباع المذاهب الفقهية بما طغى عليه من جفاف وتفريع وتعقيد .

فليس كل صمت خيراً ، ولا كل كلام شراً كما يدعي بعض الورعين المتزمتين ، بل كما قال طاووس لأبي نجيح . (من قال : واتق الله خير ممن صمت واتق) .

والدعاء خير ، ولكن لا يكن همك تسول الدعاء من غيرك ، وباب الله مفتوح لك على مصراعيه ، فلا عجب أن يرد الذين يعتقدون فيه الزلفى إلى الله ، ويسألون الدعاء لهم - وقد عرف بين الناس أنه مستجاب الدعوة - قال له رجل : ادع الله فقال : ادع لنفسك فإنه يجيب المضطر إذا دعاه .

وقال لآخر : لا أجد بقلبي حسبة فأدعو لك .

والمؤمن يرضى بالقضاء ، ويصبر على البأساء والضراء ، ولكن الفقر والبأساء شيء ، وإهمال النظافة والزينة شيء آخر ، وقد رأى رجلا مسكينا في عينه عمش ، وفي ثوبه وساخة فقال له : يا هذا إن كان الفقر من الله فأين أنت من الماء ؟ ! .

والتزين وحسن الهندام مندوب إليه ولكن الترف والنعومة والطراوة - وبخاصة في الشباب - مفسدة للرجولة ، وقتل لروح الجهاد . رأى فتيانا من قريش يرفلون في مشيتهم فقال : إنكم لتلبسون لبسة ما كانت آباؤكم تلبسها ، وتمشون مشية ما يحسن الزفانون (١) أن يمشوها .

كان قوي الفكر مؤمنا بسنن الله في الأسباب والمسببات ، ينفر من الخرافات ويكفر بالأوهام ، وكان رجل يسير معه فسمع غرابا ينعب فقال : خيراً ! فقال طاووس أي خير في هذا أو شر ؟ لا تصحبني ولا تمشي معي .

ولم يكن كأولئك الذين سموا فيما بعد بالصوفية ، الذين دعوا إلى الرهبنة وخوفوا مريديهم من الزواج ، بل كان يقول : لا يتم نسك الشاب حتى يتزوج ، وقال لإبراهيم ابن ميسرة أحد تلامذته : لتتزوجن أو لأقولن لك ما قال عمر لأبي الزوائد ما يمنعك عن النكاح إلا عجز أو فجور .

عجز أو فجور ذلك هو المانع من الزواج وكلاهما مما يستعاذ بالله منه ، فالإنسان بطبيعته ضعيف أمام الغريزة ، فإذا لم يغلبها

(١) الزفن : هو الرقص .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بالحلال غلبته بالحرام . وكان طاووس يفسر قوله تعالى : « وخلق الإنسان ضعيفا » فيقول فى أمور النساء ، ليس يكون فى شىء أضعف منه فى النساء .

مدرسة أخلاقية :

وكان مجلس طاووس - إذا جلس للتدريس - مدرسة تربوية عملية ، يتلقى الناس فيها معارف الإسلام وأخلاق الإسلام معا . فالناس عنده سواسية ، الأمراء إذا حضروا حلقته كالعوام أو أدنى ، لا يوجه إليهم فضل عناية ولا مزيد اهتمام ، كان يعلم الناس بسلوكه أن العلم أرفع قدراً من المال والجاه ، وأن العالم العامل أعز من الأمير والخليفة المطـــاع ، وأن العلماء أمراء الأمراء .

قال سفيان بن عيينة : حلف لنا ابراهيم بن ميسرة - وهو مستقبل الكعبة - : ورب هذا البيت ، ما رأيت أحدا ، الشريف والوضيع عنده بمنزلة واحدة إلا طاووسا .

وجاء ابن لسليمان بن عبد الملك - وهو خليفة - فجلس إلى جنب طاووس فلم يلتفت إليه ، فقيل له : جلس إليك ابن أمير المؤمنين فلم تلتفت إليه قال : أردت أن يعلم هو وأبوه أن لله عبادا يزهدون فيهم وفيما فى أيديهم !

وقال الصلت بن راشد : كنا عند طاووس فجاءه مسلم بن قتيبة بن مسلم صاحب خراسان ، فسأله عن شىء فانتهره طاووس ، فقلت : هذا مسلم بن قتيبة بن مسلم صاحب خراسان ! فقال : ذاك أهون له على !

وروى الزهرى أن سليمان بن عبد الملك فى حجه رأى رجلا يطوف بالبيت له جمال وكمال ، فقال : من هـذا يا زهرى ؟ قال : هذا طاووس ، وقد أدرك عدة من الصحابة ، فأرسل إليه سليمان فأتاه ، فدخل عليه فى قوة المؤمن ، وإيمان القوى ، لم ينخلع قلبه فزعا ، ولم يسل لعابه طمعا .

فقال له : لو ما حدثتنا ؟ وقال طاووس فى نفسه : هذا مقام يسألنى الله عنه ، فلم يكن حديثه إلى الخليفة حديث الخائف أو المادح ، إن المدح والإطراء بضاعة الشعراء ، لا بضاعة العلماء ، ومهمة العالم أن يوجه وينذر لا أن يحرق البخور ، فماذا قال طاووس ؟ قال : حدثنى أبو موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن أهون الخلق على الله عز وجل من ولى من أمور المسلمين شيئا فلم يعدل فيهم) والحديث ناطق ناصع لا يحتاج إلى تعليق .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فتغير وجه سليمان وأطرق طويلا ثم رفع رأسه إليه فقال : لوما حدثتنا ؟ .

قال : حدثني رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال : دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى طعام في مجلس من مجالس قريش ، ثم قال : إن لكم على قريش حقا ، ولهم على الناس حق ، ما إذا استرحموا رحموا ، وإذا حكموا عدلوا ، وإذا ائتمنوا أدوا ، فمن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا » .

وتغير وجه سليمان للمرة الثانية وأطرق طويلا ثم رفع رأسه إليه وقال : لوما حدثتنا ؟ .

فقال : حدثني ابن عباس أن آخر آية نزلت من كتاب الله : « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » .

وكذلك يكبر العالم بعلمه وإيمانه ويرتفع حتى يصير كالجبل ، ويتضاءل أمامه الأمراء والخلفاء حتى يصيروا كالذباب .

وإنما جرأه على هؤلاء أنه لم يكن يطمع في شيء عندهم ، ولا يخافهم على شيء عنده ، وفيم يطمع ؟ وعلام يخاف ؟ الناس يطمعون في دنيا الأمراء وهو استدبرها وراء ظهره ، ويخافونهم على الرزق والأجل ، وهو يعلم أن ليس في أيديهم من أمرهما شيء ، حتى يأمل منهم الزيادة ، أو يخشى منهم النقصان .

التحرر من الخوف والطمع ، والرغبة في وجه الله وحده هما مفتاح تلك الشخصية الفارعة ، وقد قيل : إن العالم إذا أراد بعلمه الناس والدنيا خاف من كل شيء ، وإذا أراد بعلمه وجه الله خوف الله منه كل شيء .

قدم طاووس بمكة ، وقدم إليها أمير المؤمنين فقيل لطاووس : إن من فضله ومن . . ومن . . فلو أتيته ؟ قال مالي إليه من حاجه ، فقالوا : إنا نخافه عليك ! قال : فما هو إذن كما تقولون ! وصدق طاووس . فأي فضل لحاكم يخشى الناس بطشه وأذاه أن يمتد إلى العلماء والهداة ! !

وكان يقول لعطاء بن أبي رباح فقيه مكة : يا عطاء ، إياك أن ترفع حوائجك إلى من أغلق دونك بابه ، وجعل دونه حجابه ، وعليك بطلب من بابه لك مفتوح إلى يوم القيامة ، طلب منك أن تدعو ، ووعدك الإجابة ! .

إلى الآخرة :

عمر طاووس طويلا حتى وهن العظم منه ، واشتعل الرأس شيبا ، بيد أن قلبه لم يهن وعقله لم يشخ ، بل ظل متألق الفكر ، حاضر

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الذهن ، قائما بشعائر العبادة لربه ، حتى آخر عمره .

روى ابن سعد عن ليث قال : رأيت طاووسا فى مرضه الذى مات فيه يصلى قائما على فراشه ويسجد عليه .

وقال أبو عبد الله الشامى : أتيت طاووسا فاستأذنت عليه ، فخرج إلى شيخ كبير ، فقلت أنت طاووس ؟ قال : لا ، أنا ابنه . قلت: إن كنت أنت ابنه فإن الشيخ قد خرف ! فقال : إن العالم لا يخرف . فدخلت عليه . فقال طاووس : سل فأوجز ، فقلت : إن أوجزت أثقلت ـ فقال : تريد أن أجمع لك فى مجلسى هذا التوراة والإنجيل والفرقان فقلت : نعم . قال خف الله مخافة لا يكون عندك شىء أخوف منه ، وأرجه رجاء أشد من خوفك إياه ، وأحب للناس ما تحب لنفسك » .

وما أصدقها وصية جامعة فى معاملة الله والناس !

وفى إحدى حجاته إلى مكة المكرمة ، آن لهذا السراج الوهاج أن ينطفىء ، فأدركه الموت على خير ما يدرك عليه المسلم : أدركه محرما ملبيا طائفا قانتا لله . . فى البلد الحرام والشهر الحرام ، فى السابع من ذى الحجة ، من سنة ست ومائه من الهجرة بعد بضع وتسعين سنة مباركة حافلة بالعلم والعمل والدعوة إلى سبيل الله .

وكان هشام بن عبد الملك قد حج تلك السنة ـ وهو خليفة ـ فصلى على طاووس ، وسار فى جنازته خلق كثير حرصوا على تشييعه إلى مثواه الأخير ، منهم عبد الله بن الحسن ابن على ، الذى أخذ بقائمة سريره فما زايله حتى بلغ القبر ، وقد سقطت قلنسوة كانت عليه ومزق رداءه من خلفه ، من كثرة الزحام ، والناس يسترحمون ويقولون : رحم الله أبا عبدالرحمن ؛ حج أربعين حجة . أجل ، ورحم الله أبا عبد الرحمن فى الأولين ونفع بعلمه فى الآخرين ؟

يوسف القرضاوى

يروى فى الاستدلال على جود حاتم قوله لغلامه يسار :

أوقد فإن الليل ليل قر ... والريح يا موقد ريح صر

عسى يرى نارك من يمر ... إن جلبت ضيفا فأنت حر

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بمناسبة افتتاح كلية البنات الإسلامية :

طاقة جديدة في مجالات العمل للإسلام

للأستاذ فتحي عثمان

« إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما » ...

« فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض ... » .

هذه مجالات العمل في الإسلام ، يوجه فيها تعاليمه إلى الرجال والنساء على حد سواء ...

وقد كان من أسباب القوة في المجتمع المؤمن في عهد النبوة ، أنه سار برجاله ونسائه في سبيل تحقيق رسالته ، فكانت جهود خديجة وعائشة وأسماء تظاهر جهود أبي بكر وعمر وعلي ، وغير هؤلاء وأولئك من صواحب الرسول وأصحابه على السواء !.

لقد جاء القرآن يسوق المثل للمؤمنين في امرأة فرعون ... ويفرد للنساء سورة وأحكاما .. ويخصص لهم الرسول مجالس .

(فإن قالوا : أواجب عليهن النفار للتفقه في الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ قلنا : نعم ، هذا واجب عليهن كوجوبه على الرجال . وفرض على كل امرأة التفقه في كل ما يخصها ، كما أن ذلك فرض على الرجال ، ففرض على ذات المال منهن معرفة أحكام الزكاة ، وفرض عليهن كلهن معرفة أحكام الطهارة والصلاة والصوم وما يحرم من المآكل والمشارب والملابس وغير ذلك كالرجال ولا فرق ...

ولو تفقهت امرأة في علوم الديانة للزمنا الأخذ عنها ، وقد كان ذلك . فهؤلاء أزواج النبي وصواحبه قد نقل عنهن أحكام الدين وقامت الحجة بنقلهن ، ولا خلاف بين أصحابنا وجميع أهل نحلتنا في ذلك) .

وهكذا أبرز ابن حزم مكانة المرأة ودورها في مجتمع الإسلام ... في صورة صريحة جلية قوية .

* * *

وجاء تطوير الأزهر ... فامتدت الآفاق وانطلقت الطاقات .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

* فالدراسة الجديدة قد امتدت طولا فشملت مختلف ألوان المعرفة : من طب وهندسة وزراعة ، بجانب المعاملات والإدارة ، وبجانب العقيدة والشريعة واللغة والحضارة والتاريخ .

* والدراسة الجديدة قد امتدت عمقا فشملت دراسة مقارنة فى العقائد والشرائع والآداب والحضارات .

* ثم امتدت الدراسة الجديدة عرضا فشملت الطلاب والطالبات . على حد سواء !

وهكذا صحح هذا التطوير وضع المرأة فى فلسفة الإسلام وواقع مجتمعه ، إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ...

وأطلق هذا التطوير طاقة كانت معطلة فى مجتمع الإسلام ، وكانت لاتوجه إلى الانطلاق إلا بدعاوى ونزعات غير إسلامية ...

واستعاد هذا التطوير أمجاد المجتمع الإسلامى الأول ، كما استكمل كيان الأزهر كجامعة .

* * *

وشده هذا التطوير صحيفة « التيمس » اللندنية ...

لقد قالت صراحة : إن إنشاء كلية للبنات فى نطاق جامعة الأزهر ، شىء لا يمكن تصديقه ! تراه لماذا لا يصدق ؟ ؟

إن المرأة فى ديننا ، وتاريخنا ، ومجتمعنا ... قد أعطيت حقوقها من قرون !

والمرأة إنما استبعدت من واقعنا أو اعتبارنا أخيراً — يوم تأرجحت أمامنا الموازين ، ووفد علينا الدخيل من التقاليد والآراء !

على أن دهشة « التيمس » لها دلالتها على أية حال ... دلالتها على أهمية هذا الحدث الكبير ! ولقد زارنى صحفى بريطانى هو مستر پول ويستر مندوب الديلى تلجراف اللندنية ، وسألنى عن معالم التطوير الجديد للأزهر ... وتتبع أبناء كلية البنات الإسلامية بجامعة الأزهر باهتمام ، أى اهتمام !

* * *

ولقد جاء إنشاء هذه الكلية موفقا فى كثير ..

فهى تشمل شعباً أربعة للدراسة العلمية ، الشعب : الإسلامية ، والعربية ، والاجتماعية ، بجانب شعبة المعاملات والإدارة . وسوف تشمل فى المستقبل بالطبع شعباً للطب والهندسة والزراعة ، فهى جامعة إسلامية شاملة للفتيات .

ولم تكتف كلية البنات الإسلامية برسالتها العلمية البحتة ، ورأت أن تذهب مذهب بعض جامعات الغرب فى الاضطلاع ببعض الأعباء فى الثقافة والخدمة العامة .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فتضمنت شعبة خامسة عامة : للثقافة الأسرية والإسلامية ، تعد الفتاة لتكون زوجا وأما وربة بيت صالحة ، بصرف النظر عن التخصص العلمي الدقيق والإعداد المهني .

وجاء قرار السيد / الدكتور وزير شئون الأزهر بقبول الطالبات الحاصلات على الشهادة الثانوية النسوية ضمن هذه الشعبة تأكيداً لطابع هذه الشعبة العامة ، ودورها ورسالتها كما جاء خطوة جريئة فى فتح المجال فى كلية جامعية لأصحاب الدراسة الفنية ، ولو فى مثل هذه الشعبة العامة .

ويعين على أن تؤدى مثل هذه الشعبة العامة دورها على أوسع مدى ، أن يفتح باب « الاستماع » المقرر بمقتضى اللائحة التنفيذية حين تصدر ، للطالبات الذين قد تقف أمامهن عوائق للالتحاق والانتظام... بعد أن تتوفر إمكانيات « الأمكنة » ، و « هيئة التدريس » .

* * *

على أن الأحداث التاريخية الكبرى ، تدعو دائما إلى الحرص والتدقيق ...

وأنا أشفق على هذه التجربة الخطيرة ... التجربة التى طالما أملت فيها منذ سنين ، والتى عشت تحقيقها والسعى فى طريق هذا التحقيق ...

أشفق عليها من رواسب نفسية وفكرية تراكمت مع الأجيال تثير المتاعب خلال فترة الانتقال !

وفترة الانتقال ... هى الخيط الحاد الرفيع الذى علينا أن نجتازه سعيا إلى المستقبل السعيد المرموق !

والرجال أولو العزم ، هم الذين يكونون معبراً يحتمل أثقال التغيير ، حتى لا يتهشم تحت وطأة القديم أو دفعه الجديد . . .

وعلى هذه (القنطرة) البشرية ، كم تغير مجرى التاريخ ، وكم تبدلت أوضاع المجتمعات! وإن أحكم النظم و أكملها فى حاجة إلى هذه (القنطرة) للعبور عليها . قنطرة فيها ثبات ومرونة فى الوقت نفسه . . .

فهل ترى يتاح للجيل الحاضر من الأزهريين أن يحقق معجزة التغيير ، بعد أن شهد قانون التطوير ؟ ؟

« ألم تر كيف ضرب الله مثلا
كلمة طيبة كشجرة طيبة
أصلها ثابت وفرعها فى السماء
تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها
ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » .

« يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ، فى الحياة الدنيا وفى الآخرة
ويضل الله الظالمين
ويفعل الله ما يشاء » .

فتحى عثمان

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الملكية فى الإسلام

للأستاذ أحمد حمد

أنواع الملكية :

الملكية نوعان : ملكية مواهب وملكية اكتساب . أما ملكية المواهب فلا دخل للدولة فيها بتأميم ولا تحديد ولا نزع ولا إلغاء ، لأن المواهب التى يهبها الله لعباده مواهب لا يستطيع الإنسان أن يتدخل فيها بأى نوع من أنواع التدخل ، فموهبة العقل اللبيب أو الصوت الطريب وموهبة اللسان الفصيح أو الجسم الصحيح كيف يتسنى لأحد أن يتدخل فيها بنزع أو إلغاء إلا الذى وهبها ومنحها وهو الله جل شأنه . أما ملكية الاكتساب فهى مجال هذا التدخل ولأن الملكية عرفا واستعمالا لا تطلق إلا على ملكية الاكتساب فقد أصبح المتبادر ذهناً عند إطلاقها هو هذا المعنى وحده ، وملكية الاكتساب هى كذلك نوعان ملكية فردية وملكية جماعية .

الملكية الجماعية :

أما الملكية الجماعية فلها مظاهر متعددة ، منها ملكية العائلة وملكية النقابة وملكية الجمعية وملكية الشركة وأبرزها جميعاً ملكية الدولة أو ملكية الأمة إذ الدولة نائبة عن الأمة فى تصريف أمورها وإدارة شئونها ، والواقع أن هناك ملكيات لا يستطيع الفرد القيام بها ولا العناية بأمرها، وهناك من الجمعيات ما لا تستطيع أداء مهمتها إلا إذا كانت تمتلك عدداً كبيراً أو صغير من الأموال والممتلكات . فكان لابد من وجود هذه الملكيات الجماعية بصورها المختلفة فى كل مجتمع .

الملكية الفردية :

أما الملكية الفردية فهى غريزة وقانون أزلى وليست مجرد نظام اقتصادى يفضله بعض المجتمعات ويرفضه البعض الآخر ، إنها طبيعة تتغلغل فى النفس وتمتزج بالميول والعواطف والمشاعر والأحاسيس ، وتعمل عملها لتحقق وجودها فى مجال صاحبها الواقعى الاقتصادى بما لها من قوة الإغراء والتوجيه فإن ما يحوز المرء فى خزائنه أو يمينه هو التعبير العملى عن هذه الغريزة والانعكاس الخارجى لهذه الفطرة .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

مقررة منه الأزل :

ولقد ابتدأت جميع حقوق الملكية في الأرض عند ما استعمر الله فيها الناس ، وكان الأساس الفطرى الذى يقوم عليه بناء الشئون الاقتصادية أن من حاز شيئاً وأصلح شأنه وجعله قابلا للانتفاع والاستعمال أصبح صاحبه ومالكه ، أى صار من حقه أن يخص استعماله لنفسه دون غيره ، ويطلب الأجر ممن أراد استعماله والانتفاع به .

والملكية الفردية وإن كانت فى نظر الفرد غاية اقتصادية له فهى فى حقيقتها قانون أزلى خطير يعمل عمله فى تطوير الحياة وترقية العمران وزيادة الموارد ، ولعل أعظم ما فى ذلك وأخطره على الإطلاق أن يكشف الإنسان عناصر وجوده المعنوى ويحققها معالم واضحة فى أفق عمله وإنتاجه ، ويحقق وجوده الفكرى فى مجال التنظيم والابتكار والتطوير والإكثار ويحقق وجوده الأدبى فى إرادة الإنتاج واختيار طريقته وكيفية سيطرته على عمله وإنتاجه ويحقق وجوده الروحى فى محيط المجتمع بما يحقق من مبادئ الإيمان والسلوك وتعارف على المثل العليا .

الحكمة من خلق هذه الفطرة :

وقد أراد الله سبحانه ذلك ليحقق به مقاصد سامية وراء ما يريد الإنسان من حيازة وما يسعى إليه من ملكية ، لقد أراده ليربط بين قوى الحياة ومواهب الفطرة فى كيان المرء وبين ثمار الطبيعة الظاهرة وكنوزها الباطنة فيقوم التفاعل التام بين الطرفين وتتكون الحضارة الصالحة والعمارة المنشودة بما فى الإنسان من مواهب العقل والروح وما فى الكون من أسرار الحقائق وكنوز المال والثروة .

والأفراد حينما يشعرون بسلطانهم الحقيق الحر على أملاكهم يشعرون معه بدافع قوى وحافز يسوقهم إلى تحصين معايشهم والرقى بها ومن هنا تتعدد الحرف وتتفرع الصناعات وتكثر الأعمال التى تعود على الأمة جميعها بالخير والثناء .

إلغاء الملكية مناقض للفطرة :

ومن هنا ندرك مدى ما يحدثه تحريم الملكية وإلغاؤها من فساد العمران وإفساد للفطرة البشرية وقضاء على طاقات الإنسان وكبت لها وانقلاب الإبداع الذاتى المنبعث عن فطرة وموهبة من الله تعالى إلى آلية فى التنفيذ وإجراء أعمال الاقتصاد والصناعات ومن ثم فإن الخير إنما فى مسايرة الفطرة مع إزالة أسباب سوء استغلال الملكية وما تفضى إليه من كوارث ونكبات .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الإسلام يقرر الملكية الفردية :

وقد جاء الإسلام فقرر ذلك كله وحققه وأرسى قواعد الملكية الفردية على أسس مكينة راسخة فقد قررها فى نطاقها الفطرى العادل الذى يرضى طموح البشر ويحترم مشيئة الله فى تحقيق المقاصد الحكيمة ، فقد روى أن عروة رضى الله عنه قال : (أشهد أن رسول الله عليه السلام قضى : أن الأرض أرض الله والعباد عباد الله ، ومن أحيا مواتا فهو أحق به) وفى كتاب الأموال أحاديث فى إحياء الموات يروى معظمها عروة هنا رضى الله عنه ، وقد قرر رسول الله فى هذه الأحاديث صور حيازة المرء لثمرة عمله وجعله نتيجة لجهده وكده، وفى ذلك ما يتجاوب مع العدالة فى الإنتاج والطمأنينة إلى مغبة السعى ، والرضا بما يؤتيه العمل والكفاح ، وإذا تعمقنا فيما وراء هذه الأحاديث فستظهر لنا جليا حقيقة مقاصد الحق سبحانه فى العمارة والتعمير، فهو نداء إلى تثمير وإحياء الأرض الميتة لينمو العمران ويزداد الخصب وتتسع رقعة الأرض ، وهذه الأحاديث تحمل الدولة كذلك على تشجيع الأفراد على الملكية وإثارة غريزتها فيهم فهى ليست دعوة إلى التثمير وحسب بل دعوة إلى ملكيات جديدة باستحداث عامر جديد ، يؤيد ذلك ما رواه أسمر بن مضرس إذ قال : (أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعته فقال عليه السلام من سبق إلى مالم يسبق إليه مسلم فهو له . قال أسمر فخرج الناس يتعادون ويتخاطون أى يسارع بعضهم بعضا ويضع كل منهم خطوطا على الأرض تميز نصيبه عن الآخرين) .

وليس أبلغ من امتنان القرآن بالملكية واعتبارها من النعم ، فقد جاء القرآن يمتن على بنى إسرائيل بما منحهم من نعمة الحيازة وبما قرر لهم من حق الملكية ، فقال جل شأنه: « وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين » .

تشريع محكم لحماية الملكية الفردية :

ولتصان الملكية الفردية من العدوان وتحمى من السطو قرر الإسلام عقوبة حازمة حدا لجريمة السرقة « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله » ونهى عن الغصب والنهب والرشوة والجباية الظالمة ونحوها من كل طريق باطل للاستيلاء على أموال الناس « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » .

وكان لعظم جريمة العدوان على الملكية ومبلغ حرمتها عند الله ورسوله أن قررها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوداع

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بقوله : « إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ». وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص فلا يمس ملكية سابقة فيقول : « من ظلم قيد شبر من أرض طوقه من سبع أرضين، ويقول كذلك : (من أحيا أرضا ميتة ليست لأحد فهى له) . ويقول للظالم الذى يزرع فى أرض غيره بدون إذن منه : (من أحيا أرضا ميتة فهى له وليس لعرق ظالم حق . والعرق الظالم هو عروق الشجر أو الزرع أو جذورها إذا غرسها صاحبها ظالما فى أرض غيره) .

وقد قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فى مثل هذه الحالة ـ لصاحب الأرض بأرضه وأمر صاحب النخل بنزع نخله منها .

وقد بلغ من حرص الإسلام على الملكية وصيانتها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى الرجل أن يأخذ متاع أخيه ولو على سبيل المداعبة فيقول: (لا يأخذن أحدكم متاع أخيه جادا ولا لاعبا ، وإذا أخذ أحدكم عصا أخيه فليردها إليه) .

هل الملكية الفردية مطلقة فى الإسلام :

إن المال فى الإسلام محكوم بقانون الإصلاح والإفادة ، ولذلك سمى المال فى القرآن بالخير « وإنه لحب الخير لشديد » فالخير يجب أن يكون سمة المال وهدفه ، وتحت قانون الخير يجب أن يكون التصرف فى المال وحيازته وتثميره أما إذا تعدى المال هذا النطاق واستخدم للإفساد وإشاعة السوء فهنا يجب أن يعمل قانون المصلحة العامة عمله لوقف تيار الفساد واستئصال نوازع السوء ، بل إن الإسلام لم يرض لصاحب المال أن يكون مجانبا للحكمة والسداد ، حين يتصرف فى ماله فأمر المسئولين أن يكفوا عنه يده وأن يتولوا هم التصرف فيه بحكمة وسداد لأن هذا المال هو حق الأمة وسبيل خيرها ورفاهية حياتها ورغادة عيشها : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا » .

قيود تختلف على الملكية فى الإسلام :

ولم يبح الإسلام الملكية فى جميع الأشياء بل حرم ملكية المعادن ظاهرة أو باطنة قال ابن قدامة فى المغنى : (وجملة ذلك أن المعادن التى ينتابها الناس وينتفعون بها من غير مئونة كالملح والماء والكبريت والقار والموميا — نوع من الدواء — والنفط والياقوت وأشباه ذلك لا يجوز احتجازها دون المسلمين، لأن فيه ضررا بهم وتضييقا عليهم) .

وقد جاء فى كتب السنة أن الرسول عليه

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

سلام الله انتزع ملاحة من أبيض بن حمال — وهو رجل من اليمن — كان الرسول قد أقطعها له حين جاء يسأله إياها ، وعندما أخبر أن الملح يستخرج منها دون عناء قال فلا ، إذن وانتزع الملاحة منه . وقد قال ابن قدامة تعليقا على هذا الخبر : ولأن هذا الملح تتعلق به مصالح المسلمين العامة فلم يجز إقطاعه كشارع الماء وطرقات المسلمين ، والملكية مقيدة بالطيبات والمباحات ، أما المحرمات كالخمور والخنازير وما جاء عن طريق الرشوة أو الغش أو الربا أو التطفيف فى الكيل والميزان أو الاحتكار أو استغلال النفوذ والسلطات وما إلى ذلك من الطرق غير المشروعة للكسب فهذه كلها تسقط عنها الملكية الفردية ولا يجوز تملكها بأى حال ، وكذلك قيدت الملكية فى الإسلام بعدم الإضرار وإساءة الاستعمال إذا لم يقبل المالك نصيحة الناصح ولا رجاء الراجى ولا حكم الحاكم ، فقد روى أن سمرة بن جندب كان يملك نخلا فى بستان رجل من الأنصار وكان يكثر من دخول البستان هو وأهله حتى تأذى صاحبه من ذلك وشكاه إلى الرسول فاستدعى سمرة وقال له بع نخلك فأبى ، فقال : هبها له فأبى ، فقال : هبها لى ولك مثلها فى الجنة ، فأبى فقال له : أنت مضار (تقصد ضرر غيرك) ثم قال لصاحب البستان (اذهب فاخلع نخله) . وشكا الضحاك بن خليفة الأنصارى إلى عمر بن الخطاب محمد بن مسلمة لأنه رفض أن يمر الماء من أرضه إلى أرض الضحاك ولا يمكن غير هذا — فاستدعى عمر محمد بن مسلمة وقال له : أعليك ضرر فى ذلك؟ فقال : لا . فرجاه فى أن يمر بأرضه الماء فأبى ، فقال : (إذن فليمرن ولو على بطنك) وشرع كذلك حق الشفعة على الملكية تحقيقا لمبدأ عدم المضارة وإقرارا لقاعدة المصلحة .

حكم الإسلام فى التأميم :

والتأميم (وهو لفظ مستحدث) يعتبر كذلك نظاما من النظم التى ترد على الملكية الفردية ، فقد عرفنا أن قانون الملكية هو المصلحة العامة ، وإذا كان هناك مرفق من المرافق ينتفع به مجموع الأمة وتضار الأمة لو ظل بيد فرد واحد أو أكثر ، وكذلك إذا تطورت خدمة من الخدمات من نطاقها المحدود إلى نطاق المرفق الذى تتعلق به مصالح المجموع كتطور سقاية الماء بالقرب إلى شركات كبيرة للمياه ، وكتطور استئجار الدواب للتنقل إلى شركات كبيرة للنقل ومرفق ضخم للسكك الحديدية وخطوط الطيران ، أقول إذا حدث ذلك فيجب حينئذ الأخذ

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بمبدأ التأميم ، ونقل ملكية هذه المرافق من يد مستغليها إلى ملكية الأمة لعموم النفع بها وعدم الاستغناء عنها ، وقد روى الإمام أحمد وأبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حمى أرضا بالمدينة ليرعى خيل المسلمين - أى جعلها لعامة الناس - وجعل نتائجها من الملكيات الجماعية . والصحابى الذى حدث بهذا هو ابن عمر رضى الله عنه ، والأرض تسمى بالنقيع ، وحمى عمر رضى الله عنه كذلك أرضا بالربذة ، وجعل كلأها لجميع المسلمين ، فجاء أهلها يشكون قائلين : (يا أمير المؤمنين إنها أرضنا قاتلنا عليها فى الجاهلية ، وأسلمنا عليها ، علام تحميها ؟ فأجاب عمر المال مال الله ، والعباد عباد الله ، والله لولا ما أحمل عليه فى سبيل الله ما حميت من الأرض شبرا فى شبر) . ونقل هنا القصة كاملة من كتاب الأموال لأبى عبيدة (حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : سمعت عمر وهو يقول لهنى - حين استعمله على حمى الربذة - يا هنى : اضمم جناحك عن الناس ، واتق دعوة المظلوم فإنها مجابة وأدخل رب الصريمة والغنيمة [1] ، ودعنى من نعم ابن عفان ونعم ابن عوف فإنهما إن هلكت ماشيتهما رجعا إلى نخل وزرع ، وإن هذا المسكين إن هلكت ماشيته جاء يصرخ : يا أمير المؤمنين . أفلا لكلأ أهون على أم غرم الذهب والورق ؟ وإنها لأرضهم قاتلوا عليها الجاهلية وأسلموا عليها فى الإسلام وإنهم ليرون أنا نظلمهم ، ولولا النعم التى يحمل عليها فى سبيل الله ما حميت على الناس شيئا أبدا . قال أسلم : فسمعت رجلا من بنى ثعلبة يقول له : يا أمير المؤمنين ، حميت بلادنا ، قاتلنا عليها فى الجاهلية وأسلمنا عليها فى الإسلام (يرددها عليه مرارا وعمر واضع رأسه) . ثم إنه رفع رأسه إليه فقال : البلاد بلاد الله ، والنعم مال الله ، يحمل عليها فى سبيل الله . وقد استولى كذلك على ما حول المسجد الحرام من دور عند ما أراد توسعته وعوض أهلها عنها .

ومن هنا نص الفقهاء على جواز نزع الملكية الفردية إذا اقتضت ذلك حاجة المرافق العامة أو اقتضاه صالح الأمة ، ولا شك أن الدولة وهى تقوم بمشروعات عمرانية من شق الطرق وإقامة السدود وبناء المنشآت تضطر إلى الاستيلاء على بعض ممتلكات الأفراد فمن ذا الذى يحرم عليها هذا ويمنعها منه .

(١) الصريمة : تصغير الصرمة وهى القطيع من الإبل ، يريد صاحب الإبل القليلة والغنم القليلة .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

تحريد الملكية أسلوب آخر :

وكما يرد التأميم على الملكية للمصلحة العامة كذلك يرد عليها التحديد بل هو أولى ؛ لأن التأميم نقل ملكية الفرد كلها إلى ملكية الأمة ؛ أما التحديد فهو نقل جزء منها فقط إلى مالك آخر دون الباقى أو وقف الملكية عند حد معين لا تتعداه ، وإذا كان التضخم فى الملكيات يدفع إلى الشرور ويوقع فى حمأة الرذيلة والفساد ويخلق سوقا رائجة للبذخ والترف أو سوقا أخرى تعج بالعوز والشظف فلابد من عملية سريعة تخفف من هذا الورم أن تستأصله وتحد من هذا التضخم إن لم تزله .

إن مبدأ سد الذرائع الذى اتفق عليه جميع الفقهاء يؤيد جواز التحديد ، وقد حد عمر رضى الله عنه من حرية كبار الصحابة فى الانتقال من المدينة إلى غيرها من الأمصار ، مع أن الانتقال حق طبيعى للإنسان ؛ وذلك لأن انتقالهم من المدينة إلى غيرها من البلاد سيجعله وحده دون معاونيه من أهل الرأى والمشورة فى سياسة شئون الدولة وتولى أمر المسلمين ، وهذا أمر خطير ومسئولية عظمى تتطلب حزم عمر وتقديره لمصالح الأمة وفقهه لمبادئ الدين ، فإذا كان عمر قد حد من حرية الانتقال وهو حق طبيعى سدا للذرائع فالحد من حرية التملك جائز كذلك سدا للذرائع ، بل إن السنوات الطوال العجاف التى قاست فيها جماهير الفلاحين ظلم الإقطاع وذاقت ألوان العبودية والسخرة ، وصبت عليهم سياط العذاب والهوان تجعل هذا التحديد واجبا من أهم واجبات الدولة لا سيما أن الاستعمار كان يقطع عملاءه وأعوانه أجزاء كبيرة من الأرض مقابل الخيانة للوطن والسير فى ركاب المستعمرين .

القرآن ضد التضخم فى الملكية :

لقد ذكر القرآن أن التضخم فى المال مقرون فى مبدئه بالبغى المطغى وفى منتهاه بالخسف المهلك ، وقص علينا قصة قارون مثالا من الأمثلة تقرؤها الأجيال للعظة والاعتبار « إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين . قال إنما أوتيته على علم عندى ، أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون . فخرج على قومه فى زينته

(البقية على صفحة ٣٩٤)

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

مُعترك المذاهب الفلسفية

للأستاذ عباس طه

الضمير الأدبي شعور باطني في الإنسان يشهد على ما يفعله هو أو يفعله غيره إن كان خيراً أو شراً ، وهو الذي عُبر عنه في القرآن الكريم بالقلب ، والضمير والقلب لغة بمعنى واحد . قال الله تعالى : « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد » وقال : « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » أي تفسد بغلبة الأهواء عليها فيستوي عندها الحسن والقبيح، والخير والشر .

وبناء على هذا فوظيفة الضمير هي ما يحسه كل إنسان في نفسه عندما يشرع في قول أو عمل من الحكم على ما هو شارع فيه ، إن كان خيراً موافقاً للقانون الأدبي ، والعرف الإنساني ، أم مخالفاً لهما . والمشاهد أن هذا الحكم لا يتجاوز حد الشهادة ، فليس فيه صفة

(بقية المنشور على صفحة ٤٩٣)

قال الذين يريدون الحياة الدنيا : ياليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون. فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين » .

بل إن القرآن قد قرر ذلك مبدأ ثابتا في طبيعة البشر في أكثر من آية حيث يقول : « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء » . « كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى ». « كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .

نحن والمستقبل :

إن مستقبلنا مرتبط بما نخططه من خطط وما نقرره من نظم. ومادمنا نخطط حياتنا على ضوء ما رسمه القرآن من مبادئ ونقرر نظمنا على أساس ما قرره من نظم ، فنحن سنصل بعون الله إلى غايتنا، وسنحقق أهدافنا وسيكون مستقبلنا مشرق القسمات رخي النسمات « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ».

أحمد حمد

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

مُعترك المذاهب الفلسفية

للأستاذ عباس طه

الضمير الأدبي شعور باطني في الإنسان يشهد على ما يفعله هو أو يفعله غيره إن كان خيراً أو شراً ، وهو الذي عُبر عنه في القرآن الكريم بالقلب ، والضمير والقلب لغة بمعنى واحد . قال الله تعالى : « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد » وقال : « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » أي تفسد بغلبة الأهواء عليها فيستوي عندها الحسن والقبيح، والخير والشر .

وبناء على هذا فوظيفة الضمير هي ما يحسه كل إنسان في نفسه عندما يشرع في قول أو عمل من الحكم على ما هو شارع فيه ، إن كان خيراً موافقاً للقانون الأدبي ، والعرف الإنساني ، أم مخالفاً لهما . والمشاهد أن هذا الحكم لا يتجاوز حد الشهادة ، فليس فيه صفة

(بقية المنشور على صفحة ٤٩٣)

قال الذين يريدون الحياة الدنيا : ياليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون. فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين » .

بل إن القرآن قد قرر ذلك مبدأ ثابتا في طبيعة البشر في أكثر من آية حيث يقول : « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء » . « كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى ». « كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .

نحن والمستقبل :

إن مستقبلنا مرتبط بما نخططه من خطط وما نقرره من نظم. ومادمنا نخطط حياتنا على ضوء ما رسمه القرآن من مبادئ ونقرر نظمنا على أساس ما قرره من نظم ، فنحن سنصل بعون الله إلى غايتنا، وسنحقق أهدافنا وسيكون مستقبلنا مشرق القسمات رخي النسمات « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ».

أحمد حمد

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الإلزام . فقد يشهد عليه ضميره بأن ما ينتوى عمله شر فيأتيه ، وأن نقيضه خير فيمتنع عنه ، مصراً على الإساءة . فالضمير الأدبى والحالة هذه فى حاجة إلى قوة تنفيذ تكبح الإنسان عن عصيان ضميره ، وهى لا توجد إلا فى النفوس العالية التى يقوم فيها مجرد الشعور بخسة الإساءة مقام الوازع المادى ، فلا يصدر عنها إلا ما يشهد بحسنه ضميرها الأدبى .

ماهو الضمير الأدبى وكيف نشأ فى الإنسان ؟

انقسم علماء النفس فى كنهه ، وفى كيفية نشوئه فى الإنسان إلى ثلاثة مذاهب :

أولها : أنه شعور غريزى فى النفس البشرية ، أى موهوب وليس بمكتسب .

ثانيها : أنه وجه من وجوه العقل .

ثالثها : أنه ثمرة التجربة والتمرس بشئون الحياة .

١ — مؤدى المذهب الأول أن الحكم الأدبى الذى يشعر به كل إنسان فى صميم نفسه ، آمراً إياه بالمعروف ، وناهياً له عن المنكر ، ومشيراً عليه بما يجب أن يفعله ، هو صوت حاسة غريزية فى النفس ، نشأت ملازمة لها بالفطرة ، مثلها كمثل ما منحناه من خاصة التفرقة بين الطعوم المختلفة ، والتمييز بين الخير والشر . وكما تلازم حواسنا الجثمانية دوافع تدفعنا لإيثار الحلو النافع على المر الضار ، كذلك تلازم الضمير الإنسانى عوامل تسوقنا لتفضيل الأفعال الطيبة على الأفعال السيئة .

بناء على هذا المذهب يكون حكم الإنسان على ما هو خير وما هو شر ليس متنزلا عن تعقل سابق ، أو عن تجربة متقدمة ، بل من شعور اضطرارى طبيعى ، موجود فى النوع البشرى من أول وجوده .

يعزى هذا الرأى إلى الفيلسوف الانجليزى شيفتسبورى المتوفى سنة ١٧١٣ .

٢ — مؤدى مذهب العقليين أن الضمير الإنسانى نفحة من نفحات العقل فإن الإنسان متى عقل أن فعلا من الأفعال سيئ الأثر على فاعله وعلى مجتمعه ، سقطت منزلته فى نفسه وكرهه ، وأن فعلا آخر حسن الأثر فى نفسه وفى جماعته التى ينتمى إليها ، ارتفعت قيمته فى نظره وأحبه ، فيتألف من مجموع هذه المدركات شعور قوى فى نفسه يعبر عنه بالضمير الأدبى .

وبناء على هذا فيكون الضمير الأدبى فى الإنسان مجموع أحكام عقلية مستفادة من الشئون الحيوية .

٣ — أما مذهب الذين يقولون بأن الضمير الإنسانى ثمرة التجربة والتمرس بأمور الحياة ، فإن له ثلاثة أشكال :

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أولها : أن الضمير الأدبى ثمرة التربية والعرف .

ثانيها : أنه نتيجة تشارك الأفكار والتعود .

ثالثها : أنه أثر من آثار ناموس التطور والدراسة .

مؤدى الشكل الأول : أن الضمير الإنسانى يميز بين الخير من الشر على مقتضى ما لقنه من أبويه ، ومن المجتمع الذى يعيش فيه . ودليل القائلين بهذا الرأى من أمثال الفيلسوف الانجليزى هوبز وهلفتيوس ، أن الخيور والشرور كثيراً ما تختلف عند الأمم . فلو كانت صادرة عن غريزة طبيعية ، أو عن حكم عقلى ثابت ، لما اختلفت إلى هذا الحد .

ومؤدى الشكل الثانى : أن الضمير نتيجة تشارك الأفكار والتعود ، والعامل الرئيسى فيه هى قيمة النفع العائد على الإنسان من أعماله ، وتأثيرها فى تحسين أحواله .

وقد فسر القائلون بهذه النظرية ، وعلى رأسهم الفيلسوف الانجليزى (ستيوارت ميل) ، كيف ينشأ الضمير الأدبى فى الأفراد ، فقالوا : لا يخلو أى مجتمع من قوة وازعة تسهر على الأمن العام ، وعلى الفصل بين المتنازعين ، وعلى الهيمنة على حفظ كيان الجماعة ، فهى لا تنى فى النهى عن الرذائل ، وعن الأمر بالفضائل ، ولا تألوا جهداً فى معاقبة المجرمين ومكافأة المحسنين .

ولا تنس ما تصادفه الرذيلة من ذم الناس وتشنيعهم ، والقدح فى أهلها وتحقيرهم ، وما تجده الفضيلة من ثناء الناس وتقديرهم وتبجيلهم . كل هذه المؤثرات ولدت فى قلوب الناس إكباراً للفضيلة ، واحتقاراً للرذيلة ، أصبح بالتمرس به طبيعة ثانية فى النفوس البشرية يتوهمها الخياليون متنزلة من العالم العلوى ، وما هى إلا ثمرة ما ذكرناه هنا من العوامل .

أما مؤدى الشكل الثالث : فهو أن الضمير الإنسانى ثمرة من ثمرات ناموس التطور والوراثة ، فعند هؤلاء العلماء وعلى رأسهم دارون وبوخنر وهلسكى أن العالم وما فيه من النواميس قائم على نظام آلى محض ، وكل ما فيه خاضع لهذا النظام لا يشذ عنه ، فجميع الكائنات البسيطة والمركبة ، حتى الحياة والقوة العاقلة ، من صنعها ، وقد صدرت لا عن تدبير وقصد سابقين عليها ، ولكن عن الاتفاق المحض ، وإنما جاءت محكمة ومتناسبة ؛ لأنها نشأت عن قوى منتظمة لا يتسرب إليها أقل اختلال ، وما كان كذلك فلا يعقل أن يصدر منه إلا كائنات منتظمة .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

والضمير الأدبي لا يشذ عن هذه القاعدة ، فليس هو بشيء قائم بنفسه ، ولا بمتنزل من عالم أرفع من هذا العالم ، ولكنه من متولداته كالروح والعقل وما نشأ فيهما من العلم والحكمة والعبقرية .

والضمير الأدبي في نظرهم بدأ تولده في الحيوان ، فإن الحاجة الحيوية حتمت عليه القيام على نظام خاص في معيشته ، وأورث هذا النظام أخلافه ، وكلما ترقوا فيه وصار فيهم صفات راسخة ، أورثوه ذراريهم حتى نشأ الإنسان فكان حاصلا على ما ورثه من آبائه الحيوانيين .

وبما أنه أوتي حظاً من انتظام الجمجمة ، وتناسب الأعضاء ، وتابع طريقه في الارتقاء تمت عوامل النواميس ، فوصل إلى معقولات أولية ، وأصول أدبيـــة اضطرارية لا اختيارية ، ، وأورثها أخلافه ، وما زال يترقى ويورثهم صفاته المكتسبة ، حتى تكون لهم ضمير أدبي ظنه الفلاسفة هبة سماوية ، وهو في الواقع من إملاء الحاجات عليه في آماد لا تحصى ، فنظروا إليه في حالته الراقية ، ولم ينظروا إليه أيام كان لا يفترق عن ضمائر القردة وما دونهم من العجماوات .

تحليل هذه المذاهب والنظر في أدلتها :

قبل أن نكتب كلمة واحدة فيما نحن بصدده يجب علينا أن نمحص شبهات أصحاب نظرية التطور والآلية الوجودية ، فإن هذا المذهب وإن خدع بسهولته بعض العقول ، فإنه قد تبين لأهل العلم فساده بأدلة لا تقبل النقض ، ولزم أشياعه السكوت .

يسهل على الباحث العرضي أن يشبه العالم وما فيه من القوى بأداة مولدة للكائنات على سبيل الاتفاق ، وتحليتها بكل ما هي في حاجة إليه تحت تأثير الضرورة القاهرة ، ولكنه يصعب بل يستحيل عليه أن يعقل ذلك أو يقيم عليه شبه دليل ، لابتناء جميع عناصره على افتراضات .

لقد كفانا العلماء مئونة دحض هذا لأن الاتجاه العلمي تحول إلى مذهب العلامة الهولندي دوفريس ، الذي أثبت عمليا في العهد الحديث ظهور الأنواع الحية الجديدة ، حاصلة على جميع مقوماتها وغرائزها ، طفرة ، فسقط بذلك قولهم بضرورة التطور في الآماد الطويلة ، وبنشوء الغرائز بالتعود وتوريثها للأخلاف ، وبزوال هذين الأصلين ماذا بقي من نظرية التطور التدريجي ، ومن معنى الانتخاب الطبيعي ، ومن رأيهم في نشوء الغرائز ، وفي وراثة الصفات المكتسبة .

اللهم لم يبق شيء أصلا .

وبثبوت حدوث الغرائز المحيرة للعقل

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

للحيوانات الحقيرة ، هبة من غير كسب ، يسهل تصور أن يمنح الإنسان ضميراً أدبياً هبة من مبدعه من غير كسب ؛ لأنه من ضروراته فى درجة حواسه الخمس .

لا جرم أنه يصعب جداً على الإنسان أن يعتقد بأن الصانع جل شأنه يلهم الحشرات الدنيا بوسائل يستحيل علينا تحصيلها لحفظ ذواتها وأنواعها ، ولا يودع فى قلب الإنسان غريزة أدبية يميز بها الحسن من القبيح ، والخير من الشر ، فالفلاسفة الذين قالوا بهذا الرأى هم فى نظرنا على حق ، ولكن هل لدينا من دليل على ذلك نكافح به فى سبيل تثبيت هذه العقيدة فى النفس ؟ .

نعم ، وهو دليل محس لا يترك ريبة فى النفس ، ولا طريق إليه إلا بعد إيراد المناقشات التى تثور عادة حول هذا الموضوع .

مناقشات فلسفية حول الضمير الأدبى للإنسان :

تنحصر شبهات المادين على فطرية الضمير الأدبى للإنسان فى ثلاثة أمور :

أولها : أن ليس للجماعات المنحطة ضمير أدبى على الإطلاق .

ثانيها : أن الضمير الأدبى فى الجماعات التى اجتازت أدوار الاجتماع الأولى يوجد مناسباً لحالتها الأدبية ، وهو يخالف فى كل منها ما عليه فى غيرها . فما تعده جماعة واجباً تعده الأخرى جرماً ، وما تعده الأولى حسناً تعده الثانية قبيحاً . فهو يتطور فى كل منها على حسب تغير الزمان والمكان والاختيار .

ثالثها : أن الضمير الأدبى متناقض عند الأمم المتمدينة .

ونحن نناقش كل شبهة من هذه الشبهات بغية الوصول إلى حقيقة ثابتة يثلج الصدر عليها فنقول :

١ — إن عدم وجود الضمير الأدبى عند الجماعات المنحطة التى لا تمتاز كثيرا عن الحيوان الأعجم ، لا يدل على أنه ليس موجوداً فيها بالقوة ، كما لا يدل عدم وجود الفلسفة لديها على أنها ليست موجودة لديها بالقوة وإذا كان لا يجوز على القول الأخير إنسان يعتد بعقله ، فكان يجب ألا يجوز أحد على القول الأول ، وإلا فهل كان يريد أن يكون الرجل الذى لا يفترق عن العجماوات إلا فى التلفظ ببضع عشرات من الكلمات الساذجة ، ومضطر لأن ينقل عنها ما تصنعه من بيوتها التى تأوى إليها ، ووسائلها التى تستخدمها للحصول على فرائسها إلخ ، وهو مع ذلك مهدد فى كل آونة من وجوده بغارات الوحوش ، وعاديات الطبيعة ، وهل كان يريد المعترض أن يكون لمثل هذا الرجل ضمير أدبى كالذى عند من أمن على نفسه وذويه ، وبلغ

غاية بعيدة من العلم والوسائل الحيوية ، وماذا يفيده ذلك الضمير لو كان له وهو فى تلك الحالة المزعجة والحياة المضطربة ؟ .

ولكن قد يكون لهذه الشبهة وزن إن ثبت عن هذا الرجل أنه لبث على حاله الأولى مجرداً عن الضمير الأدبى بعد أن أمن شر العوادى عليه وعلى أهله ومجتمعه ، وبعد أن وصل إلى حالة من الرخاء والنظام الاجتماعى تسمح له بالانتفاع بما أودع فى جبلته من المواهب الأدبية ، والصفات العلوية ، وهذا لم يحدث قـــط .

٢ — أما ما يشاهد فى الضمير الأدبى لـ تباينها فى البيئات، وت فهذا أمر طبيعى لا : فمن الذى قال إن الإنسان خلق حاصلا على جميع ما هو فى حاجة إليه من علم وأدب وصناعة وفن؟ أما رأيت أن كل هذه الشئون الضرورية لوجوده قد نشأت فيه نشوءا تدريجيا واختلفت فى كل منها عما هى عليه فى غيرها على حسب اختلافات بيئاتها ، وتباينات أحوالها ؟ فهل يسوغ لمن يرى الشعوب على هذه الحالة من الخلافات العلمية والأدبية والصناعية والفنية أن يقول إنها مجردة من الأصول الجبلية التى تولدها .

وهل عندما قال الاجتماعيون إن الإنسان مدنى بطبعه ، أرادوا بذلك أن توجد الجماعات الساذجة على أرقى الأصول الاجتماعية ، من الدرجة التى تشاهد لدى أرقى الأمم الأوربية وهل قدح فى هذا الأصل العلمى وجود جماعات أولية فى مثل ما عليه الحيوانات العجم من الفرقة والتشتت بحيث ظنهم كثير من العلماء من أنواع القردة المرتقية .

٣ ـ كما أن ما يشاهد من الخلافات فى الضمير الأدبى لدى الأمم المتمدينة ، لا يقدح فى وجوده فطريا فى النفس البشرية ، كما لا يقدح اختلافها فى أصول الاجتماع ، وأصول الحكم

وكان فى البلاد سنة ١٩٥٦ تعليم الضمير الأدبى فى ابتدائية حكومية بلدية فى وإلا فإنه من أصل الخلقة . وفى جزيرة بمبا ١٢ مدرسة للإنسانى فى العهد الأ غلاة من الاشتراكيين ، إرتأوا أن أصحاب العاهات أسباب وهن فى المجتمعات ، فيجب إبادتهم وإبادة من يجد منهم حتى لا يكونوا عبئا ثقيلا عليها . وهذا رأى من الوجهة العلمية البحت صحيح ، ولكنه من الوجهة الإنسانية التى يتحكم فيها الضمير الأدبى لا يمكن إساغته ، ولذلك عدت الإنسانية هذا القول هراء محضا ، وأزرت بقائليه واعتبرتهم غير جديرين بالاحترام ، فصمتوا فى وسط سخط العالم وسخريته .

عباسى طه

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

تأثير الإسلام في العبادة اليهودية

للأستاذ عباس محمود العقاد

هذا اسم كتاب ألفه نفتالى فيدر Naphtali Wieder باللغة العبرية ونشرته مكتبة الشرق والغرب بأكسفورد وجعلت عنوانه بالانجليزية :

Islamic Influences on the jewish Worship.

وعنوان الكتاب يغرى بهذا السؤال : كيف يكون هذا التأثير واليهودية سابقة [illegible]

[illegible] من القارئ المسلم أيضا لهذا [illegible] لأن تقدم اليهودية فى تاريخ [illegible] إلى الكثيرين أن السابق [illegible] فى التاريخ أولى بالتأثير فيما يليه ، أو بسبقه إلى الشعائر التى يتشابهان فيها .

وهذا الخاطر « العرضى » هو مصدر تلك « الإشاعة » التى راجت فى الغرب وكادت أن تثبت عندهم ثبوت المقررات العلمية ، فقال بعضهم : إن الإسلام نسخة مصححة من اليهودية ، وزاد آخرون فقالوا : بل نسخة مشوهة من اليهودية والمسيحية ! ولم يبرأ من هذه العجلة رجل فى طبقة الدكتور « شويتزر » فى الثقافة والخلق ، كان من واجبه أن يعصم عقله أمام الإشاعة الرائجة ، وإن كل قول لا يستند إلى البحث ولا يستند البحث فيه إلى الدليل فهو حديث من أحاديث الإشاعات ، إن لم نقل أحاديث الخرافات .

والبحث الذى كان من الواجب أن يستقصيه « الباحث » المقارن بين اليهودية والإسلام إنما يقوم على دراسة الموضوع والأمة لا على دراسة الرقم التاريخى وحده والوقوف لديه بعيدا من موضوعه ومن أهله .

ولا يتم هذا البحث إلا إذا تناول أصالة اليهود فيما نقلوه من العقائد والأخبار ، ثم تناول السبق عامة ولم يتناوله فى ناحية واحدة من نواحيه ، وتناول جوهر الدين ولم يقنع منه بأسماء العناوين .

واليهود ليسوا بالأصلاء فيما تدينوا به من العقائد ونقلوه من الأخبار ؛ لأنهم لم يعرفوا أكثر هذه العقائد والأخبار قبل عهد عبوديتهم فى بابل ، وكل ما كان مفتوح الباب لليهود فيما بين النهرين فقد كان مفتوح الباب أيضا لعرب الجزيرتين : جزيرة الدجلة والفرات وما يليها من أرجاء الجزيرة العربية.

والسبق إلى النبوة عامة لم يثبت لليهود ، بل ثبت من كتب اليهود أنفسهم أن أنبياءهم

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الأول تلقوا علم الدين وشعائر العبادة من «ملكى صادق» و بلعام و أيوب و ثيرون ... وثيرون كما جاء فى العهد القديم هو الذى علم موسى عليه السلام علم التبليغ وإقامة الشريعة ، وهو الذى أمه وأم قومه لصلاة القربان ... وفى تاريخ العرب من أخبار الأنبياء ما ليس فى تاريخ اليهود ، ومنهم صالح وهود وذو الكفل عليهم السلام ، وكلمة «النبى» نفسها لم تكن معروفة عند اليهود قبل دخولهم أرض كنعان ، وإنما كانوا يسمون النبي بالرائى ورجل الرب على رواية العهد القديم .

أما المقارنة فى جوهر الدين فالمعول فيها على المقارنة بين الفكرة التى توحيها الديانة فى العقائد الجوهرية : وهى عقيدة الإله وعقيدة النبوة وعقيدة التكليف .

والمقارنة بين هذه العقائد فى الديانتين الإسلامية واليهودية هى بالإيجاز مقارنة بين «يهوا» والإله الواحد الصمد رب العالمين ، ومقارنة بين نبي التنجيم والخوارق وبين نبي الهداية والبلاغ المبين ، ومقارنة بين الحساب على سنة المحاباة والاختصاص بالخطوة وبين حساب العمل والنية واستقلال الإنسان بما كسب و بما أراد .

ولم يعرف النوع الإنسانى دينا رفع هذه العقائد إلى سماء من التنزيه والرشد والصدق فوق تلك السماء العليا التى ارتفع إليها الإسلام.

فإذا كلف الباحث عقله أن ينظر إلى السبق التاريخى نظرة الإنصاف فليس لليهودية سبق على الإسلام ، وقد يكون السبق على خلاف ذلك للمسلمين على اليهود ، كلما نظرنا إلى أهل الدين فى الزمن القديم أو فى الزمن الحديث .

ولقد بدأ البحث على هذا الأساس فثبت الثبوت الذى لا شك فيه أن اليهود تعلموا من المسلمين فى لغتهم وأدبهم وحكمتهم ، وأن المسلمين لم يأخذوا من اليهود شيئا غير تلك «الإسرائيليات» التى تناقلها الجهلاء. وأفلح المصلحون — أو كادوا — أن يفلحوا أخيراً فى تطهير العقول منها والرجوع بها إلى الجادة الإسلامية فى نظائرها من شعائر الدعوة المحمدية .

فلم تكن للغة العبرية قواعد نحو أو بلاغة قبل القرن العاشر للميلاد ، وهو القرن الذى تعلم فيه (الربانى سعديا جاءون) ثقافة العرب بمصر ووضع أول كتاب للقواعد العبرية وقواعد الفصاحة فيها ، وتلاه (الربانى آودنيم نبي تميم البابلى) فألف كتابه بالعبرية مقرونة بالعربية ، مفسرة بشواهدها وأمثالها .

ولم يكن فى اللغة العبرية فن للعروض فتعلم شعراء اليهود هذا الفن من العرب بالأندلس ومصر ونظموا فى لغتهم وفى لغتنا على الأوزان العربية .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وكان فيلسوفهم موسى بن ميمون تلميذ فلاسفة المسلمين فى المغرب أول من كتب عندهم فى حكمة (التوحيد) واستثنى المسلمين من الأمم التى تنهى التوراة عن التعود بعاداتهم ؛ لأنهم مؤمنون يعبدون الإله الأحد ولا يشركون به إلهاً آخر .

وكتاب اليوم يتقدم بالبحث خطوة أخرى فيقابل بين عبادات اليهود قبل اتصالهم بالمسلمين وعباداتهم بعد هذا الاتصال ببضعة أجيال ، فيثبت المؤلف أن القدوة بالمسلمين عادت باليهود إلى إحياء السنن التى هجروها من عباداتهم الأولى وعلمتهم سنناً أخرى لم يعلموها ، ومنها شعائر فى صميم العبادة كشعائر الوضوء والغسل ونظام الصلاة الجامعة وغيرها من الصلوات .

وينقل المؤلف نصوص التلمود التى لم يرد فيها ذكر للوضوء أكثر من غسل اليدين ، ثم ينقل وصايا الأئمة المتأخرين ووصايا الشعراء الذين تبعوهم بنظم القصيد لترغيب الشعب فى هذه النظافة المستحبة ، وأشهرهم (مناحيم دى لونزان) الذى قال فى بعض شعره : (تطهر من رجس المتاع ووقائع الليل الجسدية ولا يكن العرب والليبيون والليديون أكثر منك طهارة وهم يغسلون أيديهم وأرجلهم ورءوسهم بالماء وفى الفجر وظهراً وعشية ، وكذلك ليلا حين يشتد البرد ويسقط الثلج)

ولما ثار الرجعيون من رجال الدين اليهود ثورتهم على هذه البدع المستحدثة سرت الثورة إلى الشعب فى هذه المرة فقال الرئيس فنحاس نبى مشولم شيخ الطائفة بالإسكندرية : (هب الناس من جميع الأنحاء قائلين : نحن لا نحتمل أقوالكم التى ينقض بعضها بعضاً ، لأنكم تحلون ماتشاءون وتحرمون ماتشاءون . أليست هناك تقاليد أثرت عن أسلافنا ومن تقدمونا تحرم على الإسرائيلى الصلاة وهو بحال الجنابة حتى يغتسل فى الحمام أو يتطهر فى البحر وينظف نفسه؟ فكيف تجيزون الصلاة ودخول الكنيس وتلاوة التوراة دون اغتسال ؟ ... إذا كان الدين كذلك فنحن ذاهبون لنرفع أمرنا إلى القضاء ؟!) .

والقضاء هنا هو القضاء الإسلامى فى غير الشئون الملية التى يتولاها رئيس الطائفة ، مما يدل على اعتبار قضاة الشرع المسلمين مرجعاً للشعب ورجال الدين فى هذه الأمور .

وقد سئل موسى بن ميمون كثيراً فى هذا الخلاف فكان يقول إنه لا يرى فى كتب السلف الأولين ما يوجب غسل الجنابة ، ولكنه يغتسل بحكم العادة حيث عاش ونشأ فى بلاد المسلمين .

وتغنينا أقوال الأحبار بأقلامهم وألسنتهم عن بيان أطوار الرقى الاجتماعى والخلقى الذى سرى إلى عبادات القوم وعاداتهم بعد الاقتداء بأدب الصلاة الجامعة عند المسلمين

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فى المغرب والمشرق . فمؤلف الكتاب العبرى ينقل عن الزبانى الفيلسوف موسى بن ميمون إنه فصل علة الوصية التى دعا فيها إلى إلغاء صلاة الهمس فى المعابد الإسرائيلية فقال :

(إن الذى دعا إلى هذا النظام هو انصراف الشعب إلى النظر أمامه أثناء الصلاة ، فيتحدث كل منهم إلى جاره أو يخرج من الصف والكاهن يتلو تسبيحاته وتبريكاته على غير جدوى ، إذ ليس هناك من يستمع إليه ، وإذا رأى الشعب الأحداث من المتعلمين وغيرهم يتجاذبون أطراف الحديث ويبصقون ويسلكون أثناء الصلاة سلوك من لا يشتركون فيها يفعل مثلهم ويدخل فى روعهم أن الصلاة مقصورة على ما يهمس به الكاهن ولا يسمعونه ...) .

ويقول ابن ميمون فى موضع آخر : (وإن الإمام إذا عاد إلى الصلاة بصوت مرتفع نرى كل من فرغ من صلاته يستدير ليثرثر مع رفيقه ويناجيه فى خاصة أمره ، ويحول وجهه عن الشرق ويبصق ويتشبه به الأحداث فيفعلون فعله ، ويظنون أن ما قاله الإمام لا يعتمد عليه أو عليهم ، ومن ثم يخرج جميع الأحداث وهم لم ينجزوا واجبهم ويبطل الغرض الذى من أجله يرتل الإمام صلاته ... وفى الحق لا يصلى الجمهور فى همس أبداً بل يصلى الجميع بعد الإمام صلاة واحدة فى قدسية وخشوع ، وكل من يعرف الصلاة يصلى معه فى همس والأحداث يسمعون ويركعون جميعهم مع الإمام والشعب كله متجه إلى الهيكل ينجز كل منهم فريضة ويسير الأمر على ما يرام ويمتنع التكرار الطويل ويزول تدنيس اسم الله ، وقد شاع بين الأمم إن اليهود يبصقون ويثرثرون فى صلاتهم لأنهم يشاهدون ذلك أينما رأوهم يؤدون الصلاة ، وهذا هو الصحيح على الأكثر ، كما أرى ، لما ذكرت من أسباب) .

قال المؤلف : (ولما كان الميمونى قد نظر إلى الحالة فى الكنيس من خلال مرآة المسلمين وكان يخشى مما تقوله الشعوب فقد رأى نفسه يوصى ويعمل عمله للقضاء على هذه الحالة) . وكانت خير وسيلة للقضاء عليها فى تقديره أن يسلك قومه فى صلواتهم الجامعة مسلك المسلمين ، بعد الاقتداء بهم فى فرائض الوضوء والتطهر ورعاية أدب المسجد من جميع الوجوه .

ومن الكلام على الوضوء والصلاة يستطرد المؤلف إلى الكلام على سائر الفرائض وعلى العقائد الروحانية التى لا تدخل فى باب الشعائر الحسية ، مما يضيق عنه هذا المقال ونلم به إن شاء الله فى مقال تال ؟

عباس محمود العقاد

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

مختار من الشعر القديم والحديث

الديباج الخسروانى

لسحيم عبد بنى الحسحاس

قال سحيم عبد بنى الحسحاس وكان المفضل الضبي يقول : قصيدة الأسود — يعنى سحيما — ديباج خسروانى :

عميرة ودع إن تجهزت غاديا ... كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا
ليالى تصطاد الرجال بفاحم ... تراه أثيثا ناعم النبت عافيا
وجيد كجيد الريم ليس بعاطل ... من الدر والياقوت والشذر حاليا
كأن الثريا علقت فوق نحرها ... وجمر غضاً هبت له الريح ذاكيا
أرتك غداة البين كفاً ومعصما ... ووجهاً كدينار الهرقلى صافيا
فما بيضة بات الظليم يحفها ... ويرفع عنها جؤجؤاً متعاليا
ويجعلها بين الجناح ودفه ... ويفرشها وحفاً من الزن وافيا
بأحسن منها يوم قالت : أراحل ... مع الركب أم ثاو لدينا لياليا
فإن تثو لا تملل وإن تك غاديا ... تزود وترجع عن عميرة راضيا
ألكنى إليها عمرك الله يا فتى ... بآية ما جاءت إلينا تهاديا
تهادى سيل فى أباطح سهلة ... إذا ما علا صمداً تفرع واديا
ففاءت ولم تقض الذى أقبلت به ... ومن حاجة الإنسان ما ليس قاضيا
وبتنا وسادانا إلى علجانة ... وحقف تهاداه الرياح تهاديا
تو سدنى كفاً وتثنى بمعصم ... على وتحنو رجلها من ورائيا
أميل بها ميل النزيف وأتقى ... بها البرد والشفان من عن شماليا
فما زال بردى طيبا من ثيابها ... إلى الحول حتى أنهج البرد باليا
وقلن لصغراهن أنت أحقنا ... بطرح الرداء إن أردت التباهيا
تمارين حتى غاب نجم مكبد ... وحتى بدا النجم الذى كان تاليا

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وحتى أنار الفجر أبيض ساطعا كأن على أعلاه ريطا شآميا
فأدبرن يخفضن الحديث كأنما قتلن قتيلا أو أتين الدواهيا
وأصبحن صرعى فى الحجال كأنما شربن مداما أو مرين لياليا

قال المفضل : كان عبد بنى الحسحاس أسود طمطمانيا إلا أنه كان حسن الشعر رقيق الألفاظ وأتى به أول ما قال الشعر عثمان بن عفان فقيل له : اشتره فإنه شاعر ، فقال : لاحاجة لى فيه، لأن العبد الأسود إذا كان شاعراً وجاع هجا موليه، وإذا شبع شبب بنسائهم، وهو آخر أمره مقتول ، وكان الأمر كما قال ، وسأل عمر بن الخطاب يوما أهل مجلسه عن الذى يقول : « كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا » ، فقيل : عبد بنى الحسحاس ، فقال : لو قدم الإسلام على الشيب لفرضت له .

الإيجاز

قال أبو العباس :

من كلام العرب الاختصار المفهم ، والإطناب المفخم . وقد يقع الإيماء إلى الشىء فيغنى عند ذوى الألباب عن كشفه كما قيل « لمحة دالة » .

وقد يضطر الشاعر المفلق والخطيب المصقع والكاتب البليغ ، فيقع فى كلام أحدهم المعنى المستغلق واللفظ المستكره . فإن انعطفت عليه جنبتا الكلام غطتا على عواره . وسترتا من شينه . وإن شاء قائل أن يقول : بل الكلام القبيح فى الكلام الحسن أظهر ، ومجاورته له أشهر ، كان ذلك له . ولكن يغتفر السيء للحسن ، والبعيد للقريب .

فمن ألفاظ العرب البينة القرينة المفهمة ، الحسنة الوصف ، الجميلة الرصف قول الخطيئة :

وذاك فتى إن تأته فى ضيعة إلى ماله لا تأته بشفيع

وكذلك قول عنترة :

يخبرك من شهد الوقيعة أننى أغشى الوغى وأعف عند المغنم

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الكتب

فى بلادى الجميلة

للدكتورة نعمات أحمد فؤاد

١ — أصدرت الكاتبة البليغة الدكتورة نعمات أحمد فؤاد كتابين فى هذا الشهر أحدهما (النيل فى الأدب المصرى) والآخر (فى بلادى الجميلة) وسنقدم هذا الكتاب بالمقال الذى قدمه به إلى القراء الأستاذ رئيس التحرير. أما الأول فلنا إليه عودة.

الأدب العربى — وإن شئت قلت الأدب العالمى — فقير فى أدب المرأة. ومعنى الفقر هنا يقترب كثيراً من معنى الخلو، لأنك إذا عدت إلى مراصد التاريخ تراقب منها سماوات الأدب فى الشرق والغرب لا تجد فى آفاقها الرُّحب إلا نجمة تلمع من حقبة إلى حقبة لمعان السها تظهر من بعيد لتختفى من قريب!.

وهذه الأنجم النوادر يلمعن فى الأدب لا فى العلم، وفى النظم لا فى النثر، وفى فن الرجل لا فى فن المرأة!.

تستطيع إذن أن تضرب الأمثال على ضآلة الأدب الحوائى بجانب الأدب الآدمى من كل أدب فى كل بلد وفى كل زمن؛ لأن هذه الظاهرة عامة تكاد ترجع إلى الاستعداد والطبع أكثر مما ترجع إلى الاستبداد والجهالة... وفعل المقاربة (تكاد) يمنع من إطلاق الحكم على شاعرية المرأة؛ لأن المفهوم الشائع أنها انفعال مجسد وإحساس مرهف وتعبير بارز. وربما يصحح هذا المفهوم أنها على الجملة لم ترزق الخيال المجنح ولا التأمل العميق ولا التصوير المجرد ولا التفكير المستقل. إنها منذ خلقها الله من ضلع آدم مصابة بالتبعية للرجل. فالحب مثلا وهو أخص صفاتها الطبيعية تشعر به أشد الشعور، ولكن حياءها الذى تأصل فى طبعها من حياطة الرجل لها ورقابته عليها يمنعها من التعبير الحر عن هذا الحب فتتركه للرجل. ولو أنها تغلبت يوما على هذا الحياء بجرأة الحرية وضعف الوازع ففعلت ما فعلته الكاتبة الفرنسية فرنسواز ساجان، أو الكاتبة العربية خولة الخورى [1] لكان ذلك بدعا فى المجتمع يسترعى النظر ويستدعى الفضول.

---

(١) سماها جدها فارس الخورى (خولة) وأبت إلا أن تسمى نفسها (كوليت)!.

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

والبغض أيضاً يساير الحب فى طبيعة المرأة ، فهى تبغض ولكن بغضها من نوع خاص لا يطلب التعبير العلنى وإنما يكتفى بزفرة فى الصدر أو بعبرة فى العين . وهى لا تخطر ببالها أن تمدح لتستجدى أو تهجو لتستعدى ، فإن الرجل قد آمنها من الجوع والخوف بكفه وسيفه .

دنيا المرأة هى عش الزوجية الذى تحلم به وهى فى رعاية الأب ثم تستكن فيه وهى فى حماية الزوج ، وكل آلتها لهذا العش جمال وحب تمسك بهما الرجل ، وحنان وعطف ترأم بهما على الولد . والتعبير عن هذه العواطف الطبيعية يكون بالفعل لا بالقول ، وبالشعور لا بالشعر ، فإذا خرجت عن دنياها الخاصة إلى الدنيا العامة فتفاعلت مع الأحداث ، وتأثرت بأحوال الناس حملت نصيبها من أمانة الأدب ورسالة الفكر .

فى هذه النواحى العضوية والنفسية والاجتماعية يجب أن تلتمس الأسباب الجوهرية لندرة الأدب النسوى فى العالم قديمه وحديثه وشرقيه وغربيه ، فإن التمس هذه الأسباب فى حرمان المرأة من الحرية وتخلفها فى الثقافة وانعزالها عن المجتمع لا يعلل هذه الندرة فى الغرب ، وإن التمسها فى انكبابها على العمل وانغمارها فى المادة وانطلاقها من القيد لا يعلل هذه الندرة فى الشرق ، وإذا تذكرت أن هذه الندرة ملحوظة فى أدب اليونان والرومان وفى أدب الهند والفرس ، وفى أدب اللاتين والسكسون أدركت أن هذه الظاهرة المحيرة أعمق من أن تحلل فى كلمة موجزة ، وأوسع من أن ترد إلى سبب واحد

خذ الأدب العربى مثلا : شغل هذا الأدب العريق الزمن من منتصف القرن الخامس إلى منتصف القرن العشرين ، وطبق الأرض من أقصى بلاد الشرق إلى أقصى بلاد الغرب ووسع آداب الخليقة منذ طفولة الإنسان إلى اضمحلال الحضارة العربية . وأنت مع ذلك إذا عرضت عصوره الخمسة على ذاكرتك لا تجد فيها من نوابغ النساء فى الأدب إلا الخنساء وتوابعها من خِرْنِق بنت بدر ، وليلى بنت لكيز وجليلة بنت مرة فى العصر الجاهلى ، وإلا سكينة وليلى الأخيلية بين تسعين شاعراً فى العصر الأموى ، وإلا علية بنت المهدى فى العصر العباسى ، وإلا ولادة بنت المستكفى وحمدونة فى العصر الأندلسى ثم تنتظر طويلا لتعثر فى طوايا ذاكرتك على السيدة عائشة الباعونية تتنقل بين دمشق والقاهرة فى أوائل القرن العاشر الهجرى !

نعم أوافقك على أن فى الآفاق السحيقة نجيمات دقاقا لا يدرك ضوأهن المرصد ، ولكن ذلك على صحته لا ينفى الندرة ولا يغير

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

النسبة ، فإن فى الرجال أيضا آلافا غمرهم الخمول فلم يقعوا فى سمع الزمان وبصره لا بالرواية ولا بالرؤية .

أما ما روى عن أبى نواس من أنه لم يقل الشعر إلا بعد أن حفظ شعر ستين امرأة ، وما روى عن الخوارزمى من أنه قصد الصاحب بن عباد بأرجان . فلما وقف ببابه ذهب الحاجب إلى الصاحب وقال : إن بالباب أديبا يستأذن فى الدخول فقال الوزير : قل له قد ألزمت نفسى ألا يدخل على إلا أديب يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب . فقال أبو بكر للحاجب ارجع إليه وقل له : هذا القدر من شعر الرجال أو من شعر النساء ؟ فلما أخبر بذلك الصاحب قال هذا أبو بكر الخوارزمى ، فإن ذلك وشبهه إذا أطفأت لمعة التمويه والتهويل فيه لا يبقى تحت النظر منه إلا تلك المقطعات التى جمعها الرواة واللغويون من شعر أعرابيات مجهولات كن ينشدنه إلهاء لأنفسهن وهن يهدهدن الطفل أو يدرن المغزل أو يرعين القطيع .

* * *

قلت إن المرأة الموهوبة إذا خرجت من نفسها إلى الناس ، ومن بيتها إلى المجتمع ، فشعرت بالشعور العام وأسهمت فى الوجود المشترك ، تفتحت قريحتها عن الجزء الإلهى المكنون فى كل نفس وهو الأدب فعبرت به عن مشاعر شعب أو أحاسيس عالم ، مصداق ذلك تجده فى أدبنا النسوى فى هذا القرن على تفاوت شديد فيه بين ربعه الأول وربعه الثانى . تيقظت المرأة المصرية على صيحة قاسم أمين ، ولم تكد تمسح عن جفنيها فتور الكرى الثقيل الطويل حتى ضاقت بالحجاب وبرمت بالقيد وتطلعت من خصاص الأبواب وثقوب النوافذ إلى المراد الرحب والفضاء الفسيح والشارع اللجب ، فقررت أن تحطم القيد وتكسر الباب وتهصر الستار وتخرج إلى الدنيا لتشارك الرجل فى العلم والعمل والأمل ، فتفعل كما يفعل وتقول كما يقول وترجو كما يرجو . وساعدها على هذه الانطلاقة حدوث الهبة العامة فى مصر عقب الحرب العالمية الأولى ، وسهولة النشر والإعلام بالطباعة والصحافة والإذاعة . وكانت البواكير الأدبية بالحقل النسائى قد أخذت أكمامها تتشقق عنها فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، فظهرت وردة اليازجية وعائشة التيمورية وزينب فواز وأنيسة وعفيفة الشرتونيتان ولبيبة هاشم وملك ناصف ومى زيادة .

ثم اكتمل شباب الربيع واكتهل غراس النهضة فظهرت الطبقة الثانية من الأديبات وكانت أنضر عوداً وأذكى أريجا وأعلى ثمراً

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وأغلى فائدة . طبقة سهير القلماوى وعائشة عبد الرحمن ونعمات فؤاد ووداد سكاكينى وفدوى طوقان وملك عبد العزيز ونازك الملائكة وروحيه القليني ثم جاذبية صدقى . وقد تقسمن الفنون الأدبية على حسب استعدادهن واجتهادهن ، فمنهن الناقدة البصيرة والباحثة المحققة والكاتبة البليغة والأديبة الموفقة والشاعرة الرقيقة والقصصية المجيدة . ولكل واحدة منهن أسلوب فى النثر أو النظم صاغته من طبيعتها ونشأتها وثقافتها واستعدادها ، فيه الغموض والاختلاط ، وفيه الوضوح والتميز ومنه الوصفى الرصين السليم ومنه التقريرى السقيم المهلهل . ولست هنا بسبيل البحث الموضوعى فى هاتين الطبقتين فأبين العوامل المؤثرة فيهما ، والخصائص المميزة بينهما ، وأحلل الأعمال الصادرة عنهما فإن ذلك موضعه تاريخ الأدب . إنما أنا فى هذه الكلمة بسبيل كاتبة وكتاب . الكاتبة هى الدكتورة نعمات فؤاد ، والكتاب هو كتابها الحادى عشر (فى بلادى الجميلة) ، وما أريد أن أعرض لنعمات هنا إلا من جهة الفن ، ولا لفنها اليوم إلا من جهة الأسلوب . ومن يعرض لفن الكاتب وأسلوبه بالكشف والوصف والتحليل فقد عرض لكل شىء فيه . وهل الأسلوب كما قيل بحق إلا الكاتب أو الكاتبة فى صورة مؤتلفة من عقله وفكره وشعوره وخلقه وذوقه وطابعه ؟

لقد كتبت نعمات فى البحث والنقد والوصف والتراجم ، ولكن هذه الفنون المختلفة يؤلف بينها أسلوب واحد إذا عرفته عرفت طريقتها فى هذه الفنون وحقيقتها من هذه المعانى .

إن الأسلوب مركب فنى من عناصر مختلفة يستمدها الفنان من ذهنه ومن نفسه ومن ذوقه ، تلك العناصر هى الأفكار والصور والعواطف ، ثم الألفاظ المركبة والمحسنات المختلفة والموسيقية المعبرة . والمراد بالصورة إبراز المعنى العقلى فى صورة محسة ، وبالعاطفة تحريك النفس لتميل إلى المعنى المعبر عنه أو لتنفر منه . والأسلوب بهذا المعنى لا يكتسب بالتعليم ولا بالتقليد . وإنما هو هندسة روحية وملكة ذهنية تتمثلان فى قالب معنوى غير موصوف ولا معروف تخرج منه الفكرة والعاطفة والخيال والصورة منسقة على الوضع الذى ارتضاه الذوق الرفيع فى الإنسان الذى علمه الله البيان وآتاه الحكمة .

ولعلنا إذا استثنينا النساء الشواعر فى القديم والحديث لا نجد فى الكاتبات العربيات من ينطبق على أسلوبهن هذا الوصف إلا كاتبتين اثنتين فى هاتين الطبقتين : الأولى فى الأولى مى زيادة ، والأخرى فى الأخرى نعمات فؤاد . ذلك لأن أسلوبهما يتميز من سائر الأساليب النسوية بالشاعرية والأناقة والتنويع والتلوين والحركة . وتزيد نعمات على صاحبتها

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بالعمق والدقة والسلامة وتوليد المعنى من المعنى ومزاوجة اللفظ للفظ واستبطان دخائل الموضوع واستقصاء أطرافه حتى لا تدع فيه معنى يخطر على بال . وكل ذلك فى غير تكرار ولا إملال ولا سقط ، وكل ذلك فى حسن نسق وجمال إيقاع من غير تكلف ولا شطط .

وموسيقى نعمات ألحان من المعنى وأنغام من اللفظ لا يبلغ بدونها الكلام ، ولا يقوى بغيرها الأثر . وهى موسيقى معبرة لأنها من بنية الأسلوب فى باطنه ، لا من حلية التركيب فى ظاهره . وهى فى بعض الكتاب والكواتب سجية وطبع ، فكما لا يستطيع البلبل أن يكون غراباً ينعب ولا ضفدعا تنق كذلك لا يستطيع الفنان الصادق أن يكون فجاً على الذوق ولا ثقيلا على الأذن .

أذكر أن نعمات كانت فى بعض أعمالها أمينة للجنة النثر بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، فكانت تكتب محاضر الجلسات بالأسلوب الرفيع تختار له اللفظ الملائم ، وتنتقى له التعبير المؤدى ، ولكن أعضاء اللجنة وهم من أقطاب الكتاب أنكروا عليها أن تستبدل بأسلوب الدواوين أسلوب البيان والتبيين . فآثرت أن تظل بلبلا يطرب على أن تصير غراباً ينعب ، وانصرفت عن هذا العمل إلى غيره . إن أسلوب نعمات أصيل صادق ، لأنه ينم عن طبيعة المرأة ويكشف عن جوهر الأنوثة . ولا يشاركها فى هذه الخصيصة إلا الآنسة مى . أما غيرهما من الكاتبات النوابغ فقد تقرأ لهن الأسلوب الجزل والبيان المحكم والرأى النضيج ، ولكنك تستشف من وراء ذلك محاكاة الرجل فى فحولة منطقه وطريقة فنه.

أنت من نعمات بين زوج وفية وأم رءوم وأخت مواسية ومواطنة مخلصة وعاشقة للنيل تنشد على ضفافه الخضر أناشيدها المؤلفة من عبرات إيزيس ، وضحكات كليوبطره ، وصلوات عمر وغزوات صلاح الدين .

ونعمات منك بمثابة بياتريس من دانتى تطوف بك فى مجالى الطبيعة ومشاهد الكون (فى الورد) و (فى الريف) و (فى الليل) و(فى المقطم) و (فى الهرم) و (فى الفرح) كما طافت بالشاعر الإيطالى حبيبته الروحية الملهمة مجالى الفردوس ومشاهد عدن .

حاشاك أن تحمل كلامى عن نعمات على المجاملة والمهاواة لأنها امرأة . وللنساء على الرجال لين القول وحسن المصانعة ، إنى أقول وبين يدى الدليل وأحكم وأمام عينى السند .

اقرأ على سبيل المثال مقالها فى (البيت) أو فى (الريف) أو فى (المدرسة) أو فى (الطريق) أو أى مقال شئت ، ثم حاول من طريق الفن أو من طريق الذوق أن تطبق

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ما وصفت لك من أسلوبها على ما قرأت أنت من كلامها ، فإذا لم تخرج من التصور إلى التصديق ، ومن التطبيق إلى التحقيق جاز لك أن تقول إنى رجل يقول على الأدب بغير علم ، ويحكم على الأدباء من غير بينة .

* * *

ذلك بعض القول فى الكاتبة ، أما الكلام عن الكتاب فقد تضمنه الكلام عن أمه . وإن الثمرة فيها سر الشجرة كله ، فهمها أقل لك إن الشجرة ريانة الأصول فينانة الفروع رفافة الورق وارفة الظل حلوة الجنى ، لا تجد فى هذا القول على صدقه من الكفاية والرضا ما تجده فى الثمرة حين تقطفها بيديك ، وترمقها طويلا بعينيك ، ثم تدسها فى فمك ، فتذوق من حلاوة العصير ، وتشم من فوحة العبير مايقنعك أن النبعة كريمة وأن الشجرة مباركة :

لقد حدثتك عن الكاتبة لأنها لا تتحدث عن نفسها ، أما الكتاب فسأدعه وإياك ليحدثك عن نفسه .

أحمد حسن الزيات

٢ — المسلمون فى الهند :

للأستاذ أبى الحسن الندوى .

هذا كتاب جديد للأستاذ الندوى عضو المجمع العلمى العربى بدمشق ، ومعتمد دار العلوم ، ندوة العلماء بالهند نشرته مكتبة دار الفتح بدمشق .

الكتاب دراسة اشتملت على دور المسلمين فى حضارة الهند وتراث العلماء المسلمين العلمى وعنايتهم باللغة العربية ، ومدى تأثيرها فى اللغات الهندية ، ومراكز العلم والثقافة ، والدور الذى قام به مسلمو الهند فى تحريرها ، ثم تناولت الدراسة مشكلاتهم ، وأثر الصوفية فى المجتمع الهندى .

إن هذه الدراسة عرضت تاريخا مضى للمسلمين بالهند ويهمنا منه ما يلفت الأنظار إلى الدور الرئيسى الذى قام على عواتقهم ، والأستاذ الندوى يقرر أن مركزهم كان القائد فى الحركة التحررية ، وهذا طبيعى لأنهم هم ولاة البلاد وسادتها حين احتل الانجليز الهند ، ولا ينسى التاريخ نضال السلطان تيبو (فتح على خان) المتواصل وتعبئة المجاهدين للقتال حتى سقط شهيداً فى الميدان ، ولم ينقطع نضال المسلمين حتى نالت الهند استقلالها وزعيم الهند الإسلامى الكبير مولانا (أبو الكلام آزاد) يومئذ رئيس المؤتمر الوطنى الهندى .

كما عرضت هذه الدراسة لحاضر المسلمين فى الهند اليوم وهم أكثر من أربعين مليونا ، فتناولت مشكلاتهم التى يعانيها ويحاول

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

التغلب عليها ، بعضها نتيجة أخطائه ، وبعضها نتيجة رواسب الماضى ومخلفاته الفكرية والسياسية ، وبعضها نتيجة وضع الأحوال والحوادث التى مرت بها الهند فى العهد الماضى.

ويرى الأستاذ الندوى أن المشكلة الكبرى هى مشكلة الدعوة الإسلامية التى تتعثر اليوم وتقف مشلولة الحركة ، وأن المشكلة الثانية تتصل بالانحراف المقصود عن الدستور الهندى الذى يكفل حرية العقيدة لكل طائفة ، وهذه القاعدة اليوم أصبحت حبراً على ورق كما يقولون ، ويتضح هذا فى المناهج الدراسية التى لا تعنى الا بالهندوكية ديانة الأكثرية على ما فيها من تحد للعقيدة الإسلامية ، لاسيما وأن هذه المناهج إجبارية على كافة الطلاب ، أما المشكلة الثالثة فهى مشكلة اللغة ، وهذه المشكلة تتمثل فى انحراف آخر عن الدستور ، فقد تقررت لغة (أردو) لغة قومية رسمية ، ولكن المسئولين استطاعوا أن يفرضوا اللغة الهندية إجبارياً كأداة للتعليم ، وأثر ذلك فى ثقافة المسلمين ، حيث كانت لغة أردو الوسيلة الوحيدة التى تربطهم بالثقافة الإسلامية ، فحروفها عربية تسهل بها قراءة القرآن ودراسة اللغة العربية ، وفيها آدابهم وحضارتهم . وهناك المشكلة الاقتصادية ، فقد بدأ قسط المسلمين — بعد التقسيم — فى الوظائف الحكومية يضعف ويقل حتى أصبحت نسبة ضئيلة تنذر بتطور خطير فى أوضاع المسلمين الاقتصادية والاجتماعية على السواء .

كنت أود أن يكون كتاب الأستاذ الندوى معنياً عناية أكبر بمشكلات المسلمين فى الهند ، بل قاصراً على هذه المشكلات ، وقد ذكر أنه إنما قدم رءوس المشكلات ، ونفهم من هذا أن هناك مشكلات أخرى لم يتعرض لها ، ولست أدرى لم لم يعرض أستاذنا المشكلة الكبرى (الدعوة الإسلامية) عرضاً واضحاً يضع فيه النقط على الحروف كما فعل فى غيرها ، لاسيما وأن التعصب وحده اليوم هو الذى يتعقب الدعوة الإسلامية ويقف لها بالمرصاد .

* * *

٣ — الفكر العربى وطابعه فى التاريخ

للستر ديلاس أوليرى

هذا الكتاب من كتب وزارة الثقافة والإرشاد ، نشرته مكتبة عالم الكتب بالقاهرة وقام بالترجمة والتعليق الدكتور تمام حسان وقام بالمراجعة الدكتور محمد مصطفى حلمى رئيس قسم الفلسفة الإسلامية بجامعة القاهرة كلية الآداب .

المؤلف مستشرق نمساوى ومؤلف الحضارة الإسلامية ، والكتاب دراسة عميقة وعلى جانب من الخطورة أيضا ، قسمه اثنى عشر فصلا : تناولت الصورة السريانية للهلينية ، العهدين العربى والعباسى : دور الترجمة ، المعتزلة ، فلاسفة الشرق والمغرب ، التصوف الإسلام السلفى ، النقلة اليهود ، ثم أثر الفلسفة العربية فى المدرسة اللاتينية .

فى هذه الجولة (الممتعة) يقرر المؤلف :

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أن الثقافة الأوربية الحديثة مشتقة من الثقافة الرومانية التى كانت هى بنفسها مجموعة من النتائج التى تمخضت عنها مؤثرات متعددة . كانت الحياة العقلية الهلينية أقواها ، ولكن هذه النتائج تفاعلت فأسفرت عن نظام متماسك عن طريق القدرة الرائعة على التنظيم - أما الثقافة الإسلامية فهى فى أساسها وجوهرها جزء من المادة الهلينية الرومانية ، حتى علم التوحيد الإسلامى قد تحدد وتطور بواسطة منابع هيلينية .

ونرى هذا المستشرق فى الفصل الأول يضرب على هذا الوتر ، ويحاول أن يدخل على ذهن القارىء أن محمداً - صلوات الله عليه - كان على صلة بمعلمين من النساطرة (المسيحيين) وأن رهبان أولئك النساطرة ومبشريهم كانوا على صلة بأوائل المسلمين ، وهذا كلام بالطبع لا يقوم على دليل علمى ، وإنما هو نغمة يضرب عليها دائما غلاة المستشرقين كالمستر ديلاس أو ليرى .

والأحاديث النبوية فى رأى هذا المستشرق صنعت فى العصر الأموى لتكيف أى وضع جديد مع الإسلام ، ويجنح الغلو بالمؤلف إلى حد يقرر فيه أن المسلمين حين عرفوا فلسفة أرسطو تلقوها كما يتلقى الوحى ، وأن هذه الفلسفة كانت والقرآن يقرآن جنبا إلى جنب ، وأن الرهبانية المسيحية تركت أثرها فى التصوف الإسلامى وزهاد المسلمين الأوائل فى القرن الثانى الهجرى كإبراهيم بن أدهم والكرخي والطائى ، الذين يراهم المؤلف فريقا ذا نمو محلى بين العرب تطورت به مؤثرات مسيحية مما قبل الإسلام حيث كانت الرهبانية المسيحية معروفة لدى العرب على تخوم الصحراء السورية وفى صحراء سيناء .

فى الكتاب دراسة دسمة لها تقديرها ، وفيه مفتريات وأضاليل أبرزها المؤلف عن قصد ، وقد أدى الدكتور تمام حسان جانبا من الواجب حين كشف فى مقدمته عن سوء المؤلف ، ولكن التعليق لم يكن متكافئا مع المفتريات التى دست بين السطور .

إننا لا ننكر الإقدام على ترجمة دراسات المستشرقين المتصلة بالإسلام لدسامتها وتعمقها وسعة الاطلاع الواضحة فيها ، ما دامت لا تنقصنا القدرة على رد المفتريات على أعقابها ، وهى مفتريات يدفع إليها التفكير الصليبى الذى لا يتورع عن أن يلبس الحق بالباطل .

وهناك مسألة جديرة بالنظر ، فالمؤلف كغيره من المستشرقين ، يعتمد كثيراً على كتب التراث الإسلامى القديم ، ولعل من الخير أن نعيد النظر فى هذا التراث ، وأن تكون هذه المهمة الأولى لمجمع البحوث الإسلامى بالأزهر إن شاء الله ، هذا وإن مؤتمر التوجيه لعلماء الأزهر برئاسة الأستاذ الأكبر الذى انعقد فى الأسبوع الأول من

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

شهر سبتمبر بالإسكندرية ، قد أصدر قرارات منها إعادة النظر فى منهج التاريخ الإسلامى ، ونحن نأمل أن يعاد النظر فى كتب التراث الإسلامى بأسره .

* * *

٤ — وجاء أبو بكر :

للأستاذ خالد محمد خالد

هذا الكتاب الذى نشرته دار الكتب الحديثة بعابدين ، حلقة ثانية لحلقة سبقت تحت عنوان (بين يدى عمر) والأستاذ خالد لا يهدف إلى ترجمته عن كبار الصحابة ، وإنما يهدف إلى دراسة تحليلية ، ومنهجه أن يلتقط من حياتهم مثلا رفيعة ، وقيما عليا ويضعها فى إطار تبرز داخله عظمتهم وعبقريتهم .

فهو تحت عنوان (ليبلغن الكتاب أجله) يجلى استعداد أبى بكر النفسى والقلبى والعقلى لعقيدة الألوهية الحقة ، والوحدانية الخالصة إنه لم يرض كما — رضى غيره — من شباب العرب ، ألوهية حجارة صماء لا تسمع ولا تبصر ولا تغنى من الحق شيئا ، وإن عقله ونفسه وقلبه لتحن إلى محاولات المنددين بوثنية الجاهلية ، ممن أرهصوا بالتوحيد الخالص قبيل الرسالة المحمدية ، كقس بن ساعدة ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة ابن نفيل .

ويتجلى استعداد أبى بكر أيضا للإيمان ، فهو يتجاوب مع الرسول حين يعلن أنه رسول الله إليهم ، وهو فى كل ما يخبر به الرسول من أمور يجعل شعاره مثلا أعلى للتصديق المدعم باليقين (إن كان قال فقد صدق) وتتجلى عظمة الصديق بعد ذلك فى ثباته وقوة إرادته النابعة من إيمانه بالله وثقته فيه ، فهو فى مواقفه فى أزمة السقيفة على أثر وفاة الرسول ، ومشكلة حرب الردة ، ومسألة قيادة أسامة الصغير السن لجيش المسلمين فى وقت عصيب ، فى هذه المواقف وغيرها تجلت شخصية أبى بكر الفذة التى لم تعرف الضعف ولا التردد حيال تحمل التبعات والمسئوليات .

ويكشف الاستاذ خالد عن شخصية الحاكم المثالى تحت عنوان (ولست بخيركم) فيضعه داخل دائرة من الدقة والنزاهة والأمانة ، ويتخذ من أول خطبته للخليفة نموذجا للحاكم المثالى .

(إنى وليت عليكم ولست بخيركم . إن أحسنت فأعينونى . وأن أسأت فقومونى)

وفى الفصل الخامس والأخير يعرض الأستاذ خالد الصديق أبا بكر الحاكم البسيط الذى لم تفتنه مظاهر الحكم ، ولا عظمة السلطان ، فهو قبل الحكم يحلب للأرامل الشياه ، ويقضى لهن الحوائج ، وظل كذلك بعد الخلافة . . الترجمة للعظماء شىء سهل ، ولكن الجديد فى كتابات الأستاذ خالد ، هو تجسيم المعانى الكبيرة وإبراز المثل الرفيعة فى أسلوب تحليلى جميل

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بريد المجلة

من الأستاذ الدكتور محمد البهى :

كتبت هذه المجلة كلمة ترحيب فى عددها الماضى هنأت فيها المعنيين بالإصلاح الدينى والتطوير الأزهرى بتولى الدكتور محمد البهى وزارة الأوقاف وشئون الأزهر فلما اطلع عليها فضيلته بعث بهذه الرسالة الرقيقة البليغة إلى رئاسة تحرير هذه المجلة وهذا نصها :

أخى الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات

رئيس تحرير مجلة الأزهر .

سلام الله عليكم ورحمته

وأشكر لكم تحيتكم الكريمة على صفحات مجلة « الأزهر » وهى تحية أعتز بها ، إذ تأتى من أديب كبير ، وصديق عزيز . ورائد أصيل للفكر العربى والإسلامى الحديث . وإن « مدرسة الرسالة » لتمثل فى تاريخنا المعاصر تجديداً أدبياً فكريا روحيا قوميا ، تلتمس جذوره وأصوله فى « مدرسة الإمام » وتبرز ثماره وآثاره فى انطلاقتنا القومية الكبرى فى هذه الأيام التاريخية الكبرى التى قدر لنا أن نحياها منذ ثورة « جمال عبد الناصر » الوثابة البناءة .

وإننى إذ أكرر شكرى وتقديرى ، أدعو الله مخلصا أن يبارك فى حياتكم وقلمكم ليظل - كالعهد به دائما - حداء المروءة والإيمان .

والسلام عليكم ورحمة الله .

وزير الأوقاف
وشئون الأزهر
(دكتور محمد البهى)

استدراك وتعقيب :

فى مقالى : (نظرات فى كتاب فلسفة تاريخ محمد) المنشور فى العدد الماضى ذكرت حديث : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » وتعرضت للرواية التى ذكرها الأستاذ مؤلف الكتاب وهى وضع كلمة : (احرث) بدلا من اعمل فى أول الحديث .

ومن الإنصاف للأستاذ محمد جميل بيهم أن أقول إن هذه الصيغة وردت فى (النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن قتيبة ، الجزء — ١ — ص ٣١٢ ، العثمانية ١٣١١) .

على أن من العلماء من يصف هذا الحديث بأنه ضعيف أو موقوف وبعضهم يقول إنه : لا أصل له .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أما ما ذكره فضيلة الشيخ عبد الرحيم فودة فى (لفت نظره) عن قصة الإسراء . فى صدد الكلام عن المعجزات ، فإن المعجزة — كما يعرفها العلماء . هى (العمل الخارق للعادة المقرون بالتحدى) ، ولا كذلك الإسراء

ومن العلماء من قال إن الإسراء كان (رؤيا منامية) ، ومع أن الأستاذ جميل بيهم لم يتعرض فى كتابه للإسراء ، فإن من حقه أن يقول مقالة هؤلاء العلماء ، وله أن يقول — كما قال قبله علماء آخرون — إن معجزة النبى عليه السلام هى القرآن الذى تحدى الله العرب أن يأتوا بمثله أو بسورة منه ، أو آية ، فعجزوا .

محمود الشرقاوى

لفت نظر ... أيضا

قال الشيخ محمد سعاد جلال يعقب على هذا التعقيب : إنما تكون المعجزة مقرونة بالتحدى عند قصد التحدى . أما تحقق مفهوم المعجزة فى حد ذاته فهو ثابت وإن لم تقترن بالتحدى كانفلاق البحر لموسى ونبع الماء بين أصابع النبى صلى الله عليه وسلم . وانشقاق القمر فهذه كلها معجزات ثابت بعضها بالقطع كانفلاق البحر وبعضها بالأحاديث المستفيضة التى تلقتها الأمة بالقبول كنبع الماء بين أصابعه صلى الله عليه وسلم . وكالأحاديث التى تعين مدلول قوله انشق القمر على أنه حصل فعلا وليس مؤولا بيوم القيامة ...

هذا ما قاله الصديق الشيخ محمد سعاد جلال فى تعقيبه الشفوى السريع على هذا التعقيب المكتوب ، وأضيف إليه ماقاله العلماء من أن التحدى يكون بالقوة كما يكون بالفعل . وليس من اللائق بأستاذ كان سكرتيراً لتحرير هذه المجلة أن يتصيد الآراء التافهة المرفوضة عند جمهرة العلماء . ويعتمد عليها فى التدليل لترويج ما لا يحل ترويجه من الآراء . .

عبد الرحيم فوده

حول لفت نظر :

قرأت بالمجلة فى عدد جمادى الأولى سنة ١٣٨٢ هـ . صفحة ٣٦١ تحت عنوان (لفت نظر) ملاحظة للأستاذ عبد الرحيم فودة على كلمة الأستاذ محمود الشرقاوى . نظرات فى كتاب فلسفة تاريخ محمد . فوجدت فى ملاحظة الأستاذ فودة نقطتين لم أستطع فهمهما . هما قوله : إن الأنبياء كانوا يعتمدون على معجزات وخوارق ، وعد من معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم حادث الإسراء .

والثانية هى قوله : إن الإيمان بالله معناه

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الإيمان بوجوده وقدرته وكتبه ورسله وكل ما ينسب إليه من صفات الكمال وما يصدر عنه من أقوال . فمعنى من آمن بالله بعبارة واضحة صريحة من أسلم ودخل فى دين الله .

ولما رجعت لأحد علماء الأزهر أرشدنى إلى كتاب من كتب التوحيد التى تدرس بالأزهر وإلى بعض كتب التفسير فخرجت منها بما يأتى :

أن الأمر الخارق للعادة إنما يسمى معجزة إذا صدر على يدى نبى يتحدى به قومه . ويكون إظهار الله لهذا الأمر الخارق على يدى النبى المتحدى به حجة على قومه .

وأما الخارق الذى يجرى لا على سبيل التحدى فهو مجرد كرامة . كما يظهر على يدى النبى يظهر أيضاً لولى من أولياء الله . ولا دخل له فى التحدى ولا فى إقامة الحجة على الغير .

وعلى ذلك فحادث الإسراء . لم يتحد به النبى صلى الله عليه وسلم قومه لأنه حصل فى الليل وهم نيام . وعلى ذلك فهو ليس بمعجزة .

على أن بعض كبار الصحابة قال إنه كان مناماً بروحه الشريفة . ولم يكن فى اليقظة .

وأما أن الإيمان بالله معناه الإيمان بكل ما ذكره الأستاذ فهذا لا يتفق مع قوله تعالى (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) آية ١٠٦ يوسف وقوله تعالى (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) آية ٨٢ الأنعام ومعنى ذلك أن الإنسان قد يكون مؤمنا بالله وبوجوده وقدرته وكماله ومع ذلك يكون مشركا به تعالى .

فنرجو أن توضح لنا المجلة فى عددها القادم ما يزيل هذا اللبس . والسلام عليكم ورحمة الله .

محمود عبد القوى

كلية الحقوق بعين شمس

للبس :

لو قرأ الكاتب الفاضل الآيات السابقة والآية اللاحقة للآية التى ذكرها لزال من ذهنه ما توهمه لبسا : فليقرأ قبلها قوله تعالى : « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين . وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين . وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون . وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » وليقرأ بعدها قوله « أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون » فسيخرج بعد قليل من التأمل أنه لا يكفى فى الإيمان مجرد التصديق بوجود الله ، فقد يكون مع التصديق بوجوده شرك يوقع فى شرك

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الهلاك والعياذ بالله ، فلا يكون لهذا الإيمان قيمة ، بدليل قوله تعالى : « أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة ».

صحيح أن مجرد التصديق بوجوده تعالى يسمى فى اللغة إيمانا لأن الإيمان قد تعلق بنسبة وهى ثبوت الوجود لله ، ولكنه ليس الإيمان المطلوب ، بدليل الآية التى ذكرها الكاتب « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم » فلا شك أن الشرك ظلم كما يقول الله « إن الشرك لظلم عظيم » .

أما ما ذكره عن المعجزة فقد عقبنا على مثله فى نفس هذا العدد فليرجع إليه .

عبد الرحيم فودة

مهرجان للشعر فى الإسكندرية :

بالرغم من التشاؤم الذى يسود العالم بسبب أزمة كوبا ، والخوف من قيام حرب ذرية تهدد بفناء البشرية وتقضى على الحضارة فى بضع لحظات ، انبعثت من الإسكندرية ألحان عذبة رقيقة تحمل كلمات الحب والسلام.

ففى مهرجان الشعر الرابع الذى افتتح بالإسكندرية أول أمس ، اجتمع لأول مرة شعراء من ١٩ محافظة من جميع أنحاء جمهوريتنا . واجتمع كذلك ممثلو البلاد العربية من اليمن والجزائر وفلسطين ولبنان وسوريا والعراق ، والكويت ، والبحرين.

وقد احتشد فى مسرح كلية الحقوق أكثر من ألفى شاعر وزائر ومحب للشعر . وافتتح حمدى عاشور محافظ الإسكندرية المهرجان الكبير بكلمة عن دور الإسكندرية الطلائعى فى الثورات ، والمعارك الوطنية ، ومجالات العلم والثقافة . وقال للشعراء : أنتم حملة المشاعل أرجو أن تشقوا طريقنا للسلام على أضوائها .

تشجيع الشعراء :

وتحدث يوسف السباعى سكرتير المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون عن المجهودات التى يقوم بها الشعراء لنشر عبير السلام والمحبة وسط دخان الحرب الذرية التى تهدد بفناء العالم . وأضاف قائلا : . « وأقدم شكرى للرئيس جمال عبد الناصر الذى يرعى أقلام الشعراء بعنايته . وإن المجلس ، سيعلن عن مسابقات شعرية جديدة وطبع دواوين الشعراء الجدد ، والاهتمام بنشر التراث الشعرى القديم لربط حاضرنا بماضينا .

وألقى عبد المنعم الصاوى وكيل وزارة الثقافة كلمة نيابة عن الدكتور عبد القادر حاتم قال فيها : إن الشعر لم يكن فى يوم من الأيام ترفا ، وإنما كان إحساسا وتعبيرا عن كيان الأمة . والشعر هو النسمة الجميلة التى هبت من دول عدم الانحياز ، كلها أمل ، وحب وسلام .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وأعلن عبد المنعم الصاوى قائلا : إن وزارة الثقافة ، قررت تشجيع جميع الشعراء ليزداد صوت السلام وليرتفع صوت المحبة عاليا .

العقاد يهاجم :

ثم ألقيت كلمة العقاد ، وكانت رائعة ، حملت فى طياتها هجوما على الشعر الحديث ، قال إن الإنسان العادى يستطيع أن يمشى وأن يتحدث بسهولة وأن يرفع عقيرته بالصياح ، ولكنه إذا رقص أو غنى أو ألف بين الأصوات ليخرج موسيقى متناسقة ، أصبح فناناً والقواعد الفنية ليست قيوداً على الفنان ولكنها الحرية الكاملة ، التى تساعد الفنان على إيصال فنه إلى الجماهير .

وتتابع الشعراء فى إلقاء قصائدهم ، فألقى عزيز أباظه قصيدته عن (شوقى) وإبراهيم العريق (مندوب البحرين) وهارون هاشم رشيد (مندوب فلسطين) ، وعبد الله العلوى (مندوب اليمن) وألقيت قصيدة الشاعر محمود عماد معهم وكانت عن (القمر الجريح) الذى أصابه الصاروخ .

الشعراء الشبان :

وسلم محافظ الإسكندرية ، جائزة التفوق للشعراء الشبان الذين فازوا فى مسابقة المجلس الأعلى للفنون والآداب ، وقد فاز أحمد داود عن قصيدته (ترنيمة نهد) بسبعين جنيها ، ومحمد أمل دنقل عن قصيدة (طفلها) بخمسين جنيها ، ومحمد عادل سليمان بثلاثين جنيها عن قصيدته (حكاية أجير إقطاعى والثورة) .

شاعرات المهرجان :

وقد اشتركت فى المهرجان ست شاعرات هن : جليلة رضا ، نجاة شاور ، روحية القليني ، نسرين عبد الحى ، شريفة فتحى ، لورا الأسيوطى .

وتحدثت الدكتورة سهير القلماوى عن التجديد فى الشعر العربى ، والدكتورة نعمات فؤاد عن المازنى .

وانتهى المهرجان بحفل شاى أقامته الهيئة المحلية لرعاية الفنون والآداب بالإسكندرية فى نادى الضباط .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

باب الفتاوى :

من أضابير لجنة الفتوى

يشرف عليه : ابراهيم محمد الأصيل

حكم المهر والشبكة قبل العقد .

السؤال :

خطب رجل فتاة ودفع لها مهراً وشبكة، ثم توفى قبل أن يعقد العقد عليها ، فما الحكم فى ما دفع للمخطوبة وهل يرد كله أو بعضه ؟

محمد على شمس : بالغربية

الجواب :

ما دام الحال كما ذكر ، من أنه لم يتم عقد الزواج على الفتاة المذكورة ، فلا حق لها فى شىء من المهر ، ولورثة المتوفى الرجوع على هذه المخطوبة بما دفع لها من ذلك ، وكذلك لا حق لها فى الشبكة ؛ لجريان العرف على أن هذه الشبكة لم تدفع على أنها هديه بحتة ، وإنما دفعت لها على أساس أن يتم الزواج ، وما دام الزواج لم يتم بسبب موت الزوج قبل العقد ، فلا حق لها فى هذه الشبكة ، ولورثة الزوج استردادها كما فى المهر .

حكم سن الزواج شرعا وقضاء .

السؤال :

على أى نص من النصوص الشرعية اعتمد قانون الجمهورية العربية المتحدة زواج البنت التى لم تبلغ سنها السادسة عشرة والصبى الذى لم يبلغ سنه الثمانية عشرة وما الحكم الذى يترتب على مخالفة هذا التشريع ، وهل هذا التشريع خاص بالجمهورية العربية المتحدة أم يسرى على جميع البلاد الإسلامية ؟

محمد الحضرمى ـ حضرموت

الجواب :

صحة النكاح شرعا لا تتقيد بسن معينة للزوج أو الزوجة فيصح النكاح شرعا ويترتب عليه جميع آثاره الشرعية من مهر

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وحل استمتاع ونفقة وطاعة . لكن إذا حصل خلاف بين الزوجين فى شىء من ذلك وترافعا إلى المحكمة ، فإنها لا تسمع دعوى الزوجية إلا إذا كان الزوج قد بلغ سنه ثمانى عشرة سنة ، وكانت الزوجة قد بلغت ست عشرة سنة فإن الجمهورية العربية المتحدة لما رأت أن فى الزواج قبل هذه السن ضرراً أرادت منع ذلك تجنبا للضرر الناتج من هذا الزواج ، ولم تعمد إلى وضع ذلك مباشرة بل قصدت إلى منعه عن طريق تقرير عدم سماع الدعوى ، وبنت ذلك على القاعدة الفقهية التى تقرر أن القضاء يتخصص بالزمان والمكان والحادثة . فلولى الأمر أن يمنع القضاة من سماع الدعوى فى بعض الحوادث ، وله أن يقيد سماعها بشروط يراها . وهذا القانون خاص برعايا الجمهورية العربية المتحدة .

عصمة المرأة بيدها ، وهل حكمها فيها حكم الرجل ؟

السؤال :

تزوجت على أن تكون العصمة بيدها تطلق نفسها متى شاءت وفى أى وقت شاءت وطلقت نفسها طلقة رجعية فهل ، لزوجها أن يراجعها دون موافقتها ، وإذا تمكن من ردها بوثيقة فهل تكون هذه الوثيقة قانونية ، وإذا طلقته بعد ذلك مرتين فهل تكون العلاقة الزوجية قد انتهت ـ وإذا توفيت بعد ما يقرب من ستة أشهر من الطلقة الأولى هل يرث الزوج شرعا فى تركتها ؟

مهندس حامد عبده معيط

الجواب :

صيغة العصمة تملك بها الزوجة طلقة واحدة فى أى وقت شاءت دون أن تفيد تكرار التطليق ، وقد طلقت نفسها طلقة رجعية فلزوجها مراجعتها ، وقد راجعها فعلا فليس لها بعد ذلك تطليق نفسها ، وما صدر منها من الطلاق بعد ذلك لا اعتبار له ؛ لأنها لا تملكه وعلى هذا فقد ماتت وهى زوجة لزوجها وله ميراثها شرعا .

نقل الدم وهل يبطل الزوجية والمصاهرة ؟

السؤال :

أولا : مرضت إحدى النساء وأدخلت المستشفى وأصبحت حالتها الصحية خطيرة جداً ، فاقترح الطبيب المعالج حقنها بالدم فتطوع زوجها بتقديم الدم لها ، ثم شفيت المريضة فهل هذه الحالة هل تبقى الزوجية قائمة بينهما أم تصبح الزوجة محرمة عليه ؟

ثانياً : امرأة حامل احتاجت إلى دم

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فأعطاها أحد الأشخاص كمية من دمه لإنقاذ حياتها ، ثم شفيت المرأة ووضعت بنتا فهل يحل لمعطى الدم الزواج بهذه المرأة أم لا ؟ وهل يجوز له الزواج بالبنت عند بلوغها ؟ وهل يجوز زواج ابنه من بنت المرأة المذكورة ؟ .

الحاج عبد الله داود الدوكزلى

الجواب :

الحقن بالدم لا يمنع بقاء الزوجية المذكورة فى السؤال الأول - ولا يوجب تحريم المصاهرة بين صاحب الدم أو ابنه وبين المحقونة به أو بنتها كما فى السؤال الثانى .

رأى الشريعة الإسلامية فى احتفالات ملكات الجمال . والمصايف ، واليانصيب

السؤال :

١ — ما رأى الشريعة الإسلامية فى احتفالات ملكات الجمال التى تقام فى أنحاء الدنيا؟

٢ — ما رأى الشريعة الإسلامية فى المصايف وهل يوضعها الحالى تخالف الشريعة وما هو الإصلاح الذى تقترحونه لتتلاءم مع الشريعة ؟ .

٣ — ما رأى الشريعة الإسلامية فى اليانصيب الذى تزاوله بعض الهيئات الخيرية والأفراد ؟

ابراهيم الطحاوى

الجواب :

١ — هذه الاحتفالات لا تقرها الشريعة الإسلامية بحال لما فيها من المفاسد العظمى والمنافاة للفضيلة ولما يجب على المرأة من ستر جسمها ومواضع الزينة منها :

وما هذه الاحتفالات إلا تقليد سيئ لما يجرى فى البلاد الغربية التى لا تدين بالإسلام. وقد حرص الإسلام على صيانة المرأة من هذا التبذل وهذه المواقف المنكرة ، وفى الاشتراك فيها وتعضيدها إثم كبير .

٢ — إن مجرد الذهاب إلى المصايف دون أن يقترن به ما يخالف الآداب الشرعية لا جناح فيه ، وأما ما يأتى به أكثر الناس فى هذه المصايف مما يغنى العلم به عن وصفه فهو منكر أشد الإنكار شرعا وعرفا ولا خفاء فى ذلك .

٣ — فى اليانصيب يدفع الناس أموالهم للجهة التى أصدرته على أمل الكسب ، وقليلا ما يكسبون وكثيرا ما يخسرون ودفع المال على هذا الوجه غير جائز شرعا وهو إحدى صور الميسر .

والمشروعات الخيرية يجب أن تقوم على الأساس المشروع وأن تكون بوازع نفسى من الدين والرغبة فى الخير ولا يحمل الناس على التبرع لها بما يوقعهم فى الإثم .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

تشريح الأجسام فى رأى الدين .

السؤال :

ما هو حكم الله فى أمر تشريح جثث الإنسان بغية التعليم الطبي لتخريج الأطباء ؟.

محمد سليمان غازى ـ حماة ـ سورية

الجواب :

من مقدمات فن الطب بل من مقوماته تشريح الأجسام ، فلا يمكن الطبيب أن يقوم بطب الأجسام وعلاج الأمراض بأنواعها المختلفة إلا إذا أحاط خبراً بتشريح جسم الإنسان علماً وعملا . وعرف أعضاءه الداخلية وأجزاءه المكونة لبنيته واتصالاتها ومواضعها وغير ذلك ، فهو من الأمور التى لا بد منها لمن يزاول الطب حتى يقوم بما أوجب الله عليه من تطبيب المرضى وعلاج الأمراض . ولا يمترى فى ذلك أحد ولا يقال قد كان فيما سلف طب ، ولم يكن هناك تشريح ؛ لأنه كان طباً بدائياً لعلل ظاهرة . وكلامنا فى الطب لشتى الأمراض والعلل ، والعلوم تتزايد ، والوسائل تنمو وتكثر .

وإذا كان التشريح كما ذكر ، كان واجباً بالأدلة التى أوجبت تعلم الطب وتعليمه ، ومباشرته واجبة على طائفة من الأمة ؛ فإن من القواعد الأصولية أن الشارع إذا أوجب شيئاً يتضمن ذلك إيجاب ما يتوقف عليه ذلك الشئ . فإذا أوجب الصلاة كان ذلك إيجاباً للطهارة التى تتوقف الصلاة عليها . وإذا أوجب بما أو مأنا إليه من الأدلة على فريق من الأمة تعلم الطب وتعليمه ومباشرته ، فقد أوجب بذلك عليها تعلم التشريح وتعليمه ومزاولته عملا

هذا دليل جواز التشريح من حيث كونه علماً يدرس ، وعملا يمارس ، بل دليل وجوب التخصص فى مهنة الطب البشرى وعلاج الأمراض .

أما التشريح لأغراض أخرى كتشريح جثث القتلى لمعرفة سبب الوفاة وتحقيق ظروفها وملابساتها ، والاستناد به على ثبوت الجناية على القاتل أو نفيها عن متهم ، فلا شبهة فى جوازه أيضاً إذا توقف عليه الوصول إلى الفصل فى أمر الجناية ؛ للأدلة الدالة على وجوب العدل فى الأحكام حتى لا يظلم برىء ولا يفلت من العقاب مجرم أثيم .

حكم نقل أعضاء جسم ميت إلى حى :

السؤال :

تلقينا من مستشارنا الثقافى فى جاكرتا استفسار الدكتور هيث طبيب العيون ، الذى يقوم بإعداد رسالة جامعية فى طب العيون عن مشكلة طبية دينية ، هذه المشكلة كانت قد أثيرت فى مؤتمر طبى عقد بالقاهرة ، وهى تتعلق بنقل أعضاء جثة الميت إلى جسم حى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بقصد علاجه ، والذى يهمه كطبيب عيون هو نقل جزء من عين الميت لاستخدامه فى ترقيع القرنية ، فما حكم الشرع ؟

مستشار ج . ع . م . فى جاكرتا

الجواب :

يتأذى الميت مما يتأذى منه الحى ، فأخذ جزء منه يؤذيه وقد يتأذى أهله كذلك . وعدم إبصار الحى مثلا وتعطل نفعه ضرر يفوق ضرر الميت إذا قورن به ؛ لأنه إذا ترك جزء الميت للميت فإنه يبلى ولا يتنفع به أحد . وإذا نقل لغيره من الأحياء فإنه سيؤدى وظيفته وينتفع به الحى وقد يتعدى نفعه لغيره من الأحياء كذلك فيعود نفعا عاما ـ ولا يقف دون هذا ضرر الميت بأخذ جزئه منه ؛ فإن الضرر الأخف يحتمل لدفع الضرر الأعظم ولا شك أن ضرر الحى أكثر فالنقل إليه أولى أن يسلك سبيله ويتبع ، على أن الإنسان اجتماعى لم يخلق لنفسه وإنما خلق له وللمجتمع . فإذا أمكن أن تبقى منفعة بعض أجزائه ولو لغيره بعد وفاته فلا مانع منه ، ولا يقف الدين فى سبيل ذلك بشرط ألا يكون فى ذلك مثلة بالميت وأن يستأذن أهله فى ذلك حتى لا يترتب على ذلك مفسدة .

كتابة القرآن الكريم بالحروف اللاتينية :

السؤال :

« ما قول سادتنا ـ أيدهم الله فى كتابة القرآن الكريم بالحروف اللاتينية المعروفه ؟ »

عن الهيئة المركزية للرابطة العلوية

الرئيس الثانى

السيد أبو بكر بن محمد الحبشى العلوى

وكيل الكاتب الأول

السيد عبد الله بن أبى بكر بن سالم الحبشى العلوى

الجواب :

لا شك أن « الحروف اللاتينية المعروفة خالية من عدة حروف توافق العربية ، فلا تؤدى جميع ما تؤديه الحروف العربية ، فلو كتب القرآن الكريم بها على طريقة النظم العربى كما يفهم من الاستفتاء لوقع الإخلال والتحريف فى لفظه ، وتبعهما تغير المعنى وفساده .

وقد قضت نصوص الشريعة بأن يصان القرآن الكريم من كل ما يعرضه للتبديل أو التحريف .

وأجمع علماء الإسلام سلفا وخلفا على أن كل تصرف فى القرآن الكريم يؤدى إلى تحريف فى لفظه ، أو تغير فى معناه ـ ممنوع منعا باتا ومحرم تحريما قاطعا .

وقد التزم الصحابة رضى الله عنهم ومن بعدهم إلى يومنا هذا كتابة القرآن الكريم بالحروف العربية .

ومن هذا تبين أن « كتابة القرآن العظيم بالحروف اللاتينية المعروفة لا تجوز » .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بين الصحف والكتب

اختيار وتعليق عبد الرحيم فوده

وفاء . . .

... ولست أعرف صبيا تأثر بحياة الصبا، واحتفظ بحوادثه وذكرياته، ما أقام فى هذه الدنيا، ووفى للذين بروا به وأحسنوا إليه كذا الصبي.

لم يكد يقدر على البر وإسداء المعروف وإظهار شكره للنعمة، واعترافه بالجميل حتى ضرب للناس فى ذلك أروع الأمثال وأبلغها تأثيرا فى القلوب.

أرضعته أمة لأبى لهب يقال لها «ثويبة» أياما قبل أن تأخذه «حليمة» فلما علم ذلك من أمرها حفظ لها هذه النعمة، وعرف لها هذا الجميل، فلم يكد يقدر على شكرها والبر بها حتى جهد فى ذلك، وإذا هو يحمل زوجه خديجة على أن تسعى عند أبى لهب فى أن تشترى منه هذه الأمة لتعتقها، فيأبى أبو لهب، فيتصل معروف الرضيع بأمه هذه ما أقام بمكة، حتى إذا هاجر إلى المدينة لم ينس أمه ولم يهملها، وإنما يرسل إليها الصلات والكسوة من حين إلى حين، حتى إذا عاد من خيبر وقيل له إن ثويبة قد ماتت سأل عن قرابتها ليناهم بما كان ينالها به من المعروف، فأنبئ بأنها لم تترك أحدا.

وحياة أهل البادية مملوءة بالضنك حافلة بالشقاء، فانظر إلى «حليمة» تهبط مكة تستعين بابنها على أثقال الحياة، فيكلم لها خديجة فتمنحها بعيرا وأربعين شاة، وانظر إليها تستأذن عليه مرة أخرى فإذا أدخلت عليه ورآها قال: أمى أمى! ثم بسط رداءه فأجلسها عليه، ثم أدخل يده من دون ثيابها فمس صدرها مسا، ثم قضى حاجتها.

ثم انظر إليه بعد أن عظم وارتفع شأنه ودانت له العرب كلها. وقد نصره الله يوم «حنين» على هوازن، فهزم الجند، واحتوى المال، وسبي الذرية والنساء، وقسم الغنائم بين المسلمين، وإنه بالجعرانة (موضع) صباح يوم وإذا وفد من هوازن يقبل عليه مسلما، منبئا بإسلام من وراءه من الناس، وفى هذا الوفد عمه من الرضاعة، وإذا عمه يتحدث إليه فيقول: يارسول الله، إنما فى هذه الحظائر من كان يكفلك من عماتك وخالاتك وحواضنك، وقد حضناك فى حجورنا، وأرضعناك بثديانا، لقد رأيتك

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

مرضعا فما رأيتك مرضعا خيرا منك ، ورأيتك فطيما فما رأيت فطيما خيراً منك ، ثم رأيتك شابا فما رأيت شابا خيراً منك ، وقد تكاملت فيك خلال الخير ، ونحن مع ذلك أصلك وعشيرتك ، فامنن علينا من الله عليك ، فيجيبه : لقد استأنيت بكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون ، وقد قسمت السبي وجرت فيه السهمان (جمع سهم وهو النصيب) فما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وأسأل لكم الناس ، فإذا صليت بالناس الظهر فقولوا : نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله ، فإنى سأقول لكم ، ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وسأطلب لكم إلى الناس .

فلما صلى الظهر قام الوفد ، فأتم ما أمر به ، ووفى لهم بوعده ، وشفع لهم عند الناس فردت عليهم نساؤهم وأبناؤهم لم يأب ذلك إلا نفر من الأعراب اشترى منهم ما كان فى أيديهم من السبي ورد على أهله .

قلت لمحدثى : فإن هذا الوفاء بليغ التأثير فى النفوس ، وأبلغ منه هذه (الحيلة . ا) الطاهرة البريئة فى استخلاص السبي من الذين ملكوه ، فيها وفاء ، وفيها رد للحرية على آلاف من الناس ، وفيها إقرار للأمن والسلم فى قبيلة ضخمة قوية من العرب ، وفيها تخليص القلوب من الضغينة والموجدة والحقد ، وتهيئتها لقبول الإسلام والنصح للمسلمين فى صدق وإخلاص .

قال محدثى : نعم ! ولكن له وفاء آخر يملأ القلوب رحمة ويمزقها لوعة وأسى ، لأنه وفاء المحب الصادق فى الحب ، والعاجز عن النفع الذى لا يملك لمن يحب خيرا .

قلت : وكيف يجد العجز إلى هذا القلب العظيم سبيلا . ؟ قال : إن لله قدراً مهما تعظم القلوب فلن تغيره أو تبد له .. لقد كان أشد الناس تعلقا بأمه ووفاء لعمه : مر بقبر أمه عام الحديبية فاستأذن ربه فى أن يزور القبر فأذن له ، فزاره وأصلحه ومكث عنده حينا ، ثم استأذن ربه فى أن يستغفر لأمه فأبى عليه فانصرف عن القبر باكيا كئيبا . وبكى المسلمون لبكائه . واكتأب المسلمون لاكتئابه .

ودخل مكة عام الفتح ، ظافراً منتصراً وبينما هو فى بعض مواضعها رأى أصل قبر فعطف عليه وأقام عنده ، واستأذن فى الاستغفار لصاحب القبر فلم يؤذن له . فانصرف محزونا كئيباً . وبكى فبكى الناس . وما رأى الناس يوما أكثر باكيا من ذلك اليوم واختلط أمر هذا القبر على الرواة . فظنوه قبر أمه وقبر أمه فى « الأبواء » ، ومن يدرى ؟ لعله قبر جده الشيخ .

وعرض الإسلام على عمه وألح عليه .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وكاد الرجل أن يقبل لولا حمية الجاهلية فلما مات قال ابن أخيه لأستغفرن لك . فلامه القرآن فى ذلك لوماً عنيفاً .

تبارك الله . ! رجل يخرج الله به أمة كاملة من الظلمات إلى النور . ويفتح لها أبواب الخير على مصاريعها إلى آخر الدهر . ثم يأبى الله عليه أن يستغفر لأمه وعمه وأن ينقذ أهله الأقربين الذين أدوه إلى الناس وحموه حتى أدى الأمانة وبلغ الرسالة .

قلت لمحدثى : وماذا تنكر من ذلك وعدل الله محتوم لا يقبل أخذاً ولا رداً ، ولا تجوز عليه المصانعة ولا المحاباة . ؟

من كتاب على هامش السيرة

الدكتور طه حسين

أقراص منع الحمل . . لمن ؟!

اختفت أقراص منع الحمل . أو هى لا تكاد تطرح فى السوق حتى تختفى ، وهذه ظاهرة تسترعى الانتباه وتثير القلق معاً . !

فليس من السهل التسليم بأن امتصاص السوق لهذه الأقراص راجع للدعاية التى أحيطت بها ، لأن هذه الدعاية اصطدمت من أول يوم بالناحية الدينية .

والذين يضعون أصابعهم على نبض الرأى العام فى بلادنا يعلمون حق العلم أننا شعب متدين متشبث إلى أبعد مدى بعقيدته ، ومن ثم لا مجال للزعم بأن فكرة تحديد النسل قد غزت رءوس ملايين المتدينين بهذه السرعة رغم تعارضها مع مبادئهم .

الدعاية إذن ليست هى مصدر هذا الإقبال الشديد على أقراص تحديد النسل ، فماذا يكون السبب . ؟

إن الظاهرة الثانية التى صاحبت الإقبال الشديد على هذه الأقراص تشير إلى أن استجابة المدن كانت أبعد بكثير من استجابة سكان الريف ، وهذا يعنى أمرين .

أولا : أن الأقراص قد ضلت طريقها إلى الفلاحين أصحاب المشكلة الحقيقية الذين تنتشر بينهم ظاهرة تعدد الزوجات وكثرة النسل ، وفشل الدعاية لتحديد النسل بين صفوف الفلاحين ليس بدعة فينا ، بل هى ظاهرة طبيعية جداً اعترفت بها أكثر بلاد العالم وخاصة الصين عندما شنت حملتها الكبرى لإقناع الشعب الصينى بأضرار الإسراف فى النسل .

ولعل أطرف ما روى وقتها عن عناد الفلاحين هذه القصة . فقد شكا أحد المشرفين الحكوميين من أنه رأى ذات مرة مجموعة من الفلاحين ملتفين حول إحدى لوحات الدعاية التى ملأت كل مكان . وكانت اللوحة تمثل عائلتين . إحداهما تضم مجموعة ضخمة من الأطفال العراة الجائعين وأخرى تضم طفلين فقط . وقد ارتديا ملابس نظيفة وظهرا فى أتم صحة .

وأسرع الموظف يندس بين جموعهم ليدير

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

المناقشة بينهم لصالح المشروع . فإذا به يفاجأ بأنهم وقفوا ليبدوا أسفهم على الزوجة التى لم تنجب غير طفلين ...

الأقراص إذن قد ضلت طريقها إلى من هم فى حاجة إليها ، واتجهت إلى أوساط المتعلمين وسكان المدن .

ولكن إلى أى مدى ذهبت هذه الأقراص فى ضلالها .. ؟ ومن هم المستفيدون من نتيجة تعاطى هذه الأقراص . ؟

هل هم المتزوجون وحدهم . .

أخشى أن تكون الإجابة على هذا السؤال فى ظل النظام الذى يجرى فيه توزيع هذه الأقراص مستحيلة ، فليس ثمة ضمان واحد فى نظام التوزيع الحالى لأن يقتصر تعاطى هذه الأقراص على المتزوجين فقط .

إذن . لا مفر والأمر كذلك من الاعتراف بأن هذه الأقراص ـ وقد ضلت طريقها ـ تمضى فى ضلالها بلا قيود . .

وهذا خطر داهم يجب أن تدق له الأجراس فلقد أثبت إحصاء أخير فى أمريكا أن أكثر من ٦٠ ٪ ممن يتعاطين أقراص الحمل من المراهقات ، وهى ظاهرة مفزعة لا أحسب أحدا من المتحمسين لتحديد النسل عن طريق إغراق السوق بالأقراص يستريح ضميره لتجاهلها

إننا لا نريد أن نشيد بناءنا الاقتصادى على أنقاض كياننا الاجتماعى ...

عبد السلام داود
من جريدة الأخبار

التعليق ...

لقد قيل ـ غير ما قاله الكاتب ـ إن أساس التفكير فى اختراع هذه الأقراص يرجع إلى الإحساس بضرورة الحد من كثرة عدد القطاء فى أوربا لا إلى الرغبة فى تحديد النسل ، وهذا وحده يكفى فى تصور مدى الخطر الداهم علينا وعلى أخلاقنا . إذا لم نبادر باتخاذ الوسائل التى تحمى مجتمعنا وأخلاقنا منه ، والأمم كما قال شوقى :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت
فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وكما قال :

وليس يعمر بنيان قوم
إذا أخلاقهم كانت خرابا

مائة ألف من بنى تميم :

لما استقر الأمر لمعاوية دخل عليه الأحنف ابن قيس فقال له معاوية : والله يا أحنف ما أذكر يوم « صفين » إلا كانت حزازة فى قلبى إلى يوم القيامة ، فقال الأحنف : والله يا معاوية إن القلوب التى أبغضناك بها لفى صدورنا ، وإن السيوف التى قاتلناك بها لفى أغمادها ، وإن تدن من الحرب فترا ندن منها شبرا ، وإن تمش إلينا نهرول ، ثم قام وخرج ، وكانت أخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلامه ، فقالت لأخيها : من هذا يتهدد ويتوعد . قال : هذا الذى إذا غضب غضب لغضبه مائة ألف من بنى تميم لا يدرون فيم غضب .

من كتاب هبة الإمام فيما يتعلق بأبى تمام .
شرح وتعليق الأستاذ محمود مصطفى